

مرآة حياتي

العماد أول مصطفى طلاس

الرأي العام

SyriaMirror.net

الفهرس

مقدمة

لعب وزير الدفاع السوري السابق العماد أول مصطفى طلاس دورا سياسيا مؤثرا في سورية طوال العقود الأربعة الماضية، وكان من صانعي القرار السوري والإقليمي في فترات عدة، وفي كتابه الجديد «مرآة حياتي»، الذي سيصدر عن دار طلاس في دمشق قريبا، يروي العماد أول سيرة العسكري والحزبي والسياسي والإنسان، ويكشف عن الكثير من الأسرار ويزيل الغموض عن أمور عدة.

في هذه السيرة الذاتية السياسية والعسكرية يطرق طلاس كل الموضوعات التي تخطر في بال المراقب حول شخصية جمعت بين السياسة والعسكر والأدب، ففي لحظة يسلط الضوء على الجوانب العسكرية في حياته، تراه ينتقل إلى الجوانب السياسية عندما تفرض السياسة ذاتها، ومرة تجده يلعب دور المفاوض السياسي المحنك، سواء أكان في سورية أم في الخارج.

يروي طلاس الكثير... الكثير من الأحداث والتفاصيل بلسان الرجل، عاشها وساهم فيها وتأثر فيها وأثرت فيه، وبين هذا وذاك يلتقط أنفاسه ليستريح على مقعد العسكري الإنسان الشاعر، ليعود مرة أخرى إلى الساحة فاعلا في الأحداث ومؤثرا بحركتها، وأحيانا عدة مصوبا لمسار العديد من الأمور.

«مرآة حياتي» قراءة في تاريخ المنطقة من خلال مساهمة شخصية مهمة فيها، و«الرأي العام» تنشر هذا الكتاب على حلقات*.

---

* نشرت هذه الحلقات في جريدة "الرأي العام" الكويتية يومياً بين يومي ١٦ نيسان (أبريل) ٢٠٠٥ و ٥ أيار (مايو) ٢٠٠٥

الحلقة الأولى: استشعر الرئيس الأسد أن رفعت جاد في عملية السيطرة على دمشق فطلب مني إحباطها وإشعاره أن المواجهة ستكون عملية انتحارية

في أوائل شهر شباط (فبراير) من العام ١٩٨٤ كنت متوجهاً إلى مكتبي في القيادة العامة ولدى مروري قرب حديقة الجاحظ لاحظت عدّة صور ملصقة على الحيطان لشقيق الرئيس «العميد رفعت الأسد» وكانت الصورة تمثله وهو رافع قبضة يده كدليل على القوة والتحدّي.. ولم أكن مرتاحاً نفسيّاً لهذه المناظر المؤذية والغبية وقلت بنفسي طالما أنّني انزعجت منها فلابدّ أنّ الرئيس حافظ الأسد سيكون أشدّ انزعاجاً لأنّ هذا الموضوع يخصّه بالدرجة الأولى قولاً واحداً.

كان الرئيس الأسد الشخص الوحيد الذي يتابع المواضيع الأمنية داخل الوحدة /٥٦٩/ (سرايا الدفاع) ذلك أنّ العميد رفعت عندما كان يستشعر أنّ أحد ضبّاط الأمن في وحدته يتعامل مع شعبة المخابرات كان يزجّ به في السجن الخاص بالوحدة ولا يعود أحد يعرف عنه شيئاً لذلك أصبحت الوحدة تشكل (غيتو) خاصاً يصعب انتهاكه ومع هذا فقد كان للقائد الرئيس حافظ الأسد بعض الضباط داخل الوحدة يزوّدونه بأخبارها الخاصة عبر قنوات سريّة للغاية لم يستطع حتى رفعت نفسه أنْ يحيط بها. وبدأت تتشكّل القناعة لدى القائد الأسد أنّ رفعت يبيّت شيئاً ما وأنّ الوحدة في حالة استنفار دائم مع أنّ الظروف المحلية لم تكن تستوجب ذلك.

إقصاء قائد الكتيبة «١٧٠»

في منتصف شهر شباط فبراير عام ١٩٨٤ وجّه القائد حافظ الأسد بنقل قائد الكتيبة «١٧٠»* وهي الوحدة المكلّفة بحراسة مبنى القيادة العامة ووزارة الدفاع وكان قائد الكتيبة العقيد سليم بركات من أتباع العميد رفعت الأسد ومن المحسوبين عليه شخصيّاً وقد تمكّن رفعت من إقناع الرئيس الأسد بتعيين هذا الضابط (رغم قلة كفاءته المسلكية) في فترة

---

* كان القائد الاسد يهدف من وراء عملية حماية القيادة العامة من سيطرة العميد رفعت المباشرة عليها كما ان تغيير القائد المحسوب شخصيا على رفعت وبخاصة في هذا المركز وفي هذا الظرف يعني ان صاحب القرار في تعيين الضباط ونقلهم هو الرئيس الاسد قولا واحدا. كما ان نقل هذا الضابط يعتبر اول ثقب في قلعة رفعت الاسد.

نشاط الإخوان المسلمين في أواخر السبعينيات ورغم معرفتي بتفاهة هذا الضابط ويشاركني في الرأي رئيس الأركان العماد حكمت الشهابي ورئيس شعبة المخابرات اللواء علي دوبا فاتّنا لم نُبدِ رأينا بصراحة وتركنا الأمر يصدر دونما لفت نظر للسيد الرئيس لأننا كنّا نعلم أنّ رفعت كان هو وراء هذا التعيين وكان الهاجس الأمني هو المسيطر على ذهن السيد الرئيس ولذلك كانت الكفاءة العسكرية تتراجع إلى المرتبة الثانية.

ولمّا كان أول الغيث قطرة فقد صدر الأمر بنقل الضابط المذكور بتاريخ ١٩٨٤/٢/١٩وتعيين المقدّم علي يونس عوضاً عنه وتمّ ابلاغ أمر النقل لقائد الكتيبة «١٧٠» من قِبل العماد حكمت الشّهابي لأنه يتبع اليه مباشرة وكان ذلك في ١٩٨٤/٢/١٨ الساعة الحادية عشرة صباحاً كما تمّ ابلاغ اللواء علي دوبا من قِبل العماد حكمت أيضاً بأنّ قائد الكتيبة المنقول محظر عليه دخول مبنى القيادة العامة بتاتاً.

غادر قائد الكتيبة «١٧٠» مبنى القيادة العامة وهو بحالة غضب شديد وتوجّه مباشرة إلى مقر قيادة العميد رفعت الأسد في القابون وشكا له الأمر وكان توجيه رفعت للضابط بأنّ يعود مساءً إلى قيادة الكتيبة ويتسلّم قيادتها من جديد وكان العميد رفعت يعتقد بداخل نفسه بأن القائد الأسد أصدر أمراً بنقل أربعة عشر ضابطاً من المحسوبين على رفعت الأسد بتاريخ سابق ولم ينفذ منهم أحداً الأمر وسكت الرئيس الأسد على مضض ولو لم يكن هؤلاء محسوبين على شقيقه رفعت لكان مصيرهم السجن أو العزل من الجيش في أضعف الاحتمالات.

في الساعة الخامسة بعد الظهر عاد قائد الكتيبة المنقول العقيد سليم بركات إلى مقر القيادة العامة ولم يمانع الحرس لأنّهم أساساً من عناصره وطلب إلى قادة السرايا أنْ يجمعوا له عناصر الكتيبة بلباس الميدان الكامل وبعد دقائق كان الاجتماع جاهزاً في ساحة الأركان الخلفية فخطب بهم قائلاً: «لقد عيّنت قائداً للكتيبة بتوجيهات من العميد رفعت الأسد ولن أغادر هذه الكتيبة الاّ بأوامر شخصية من القائد رفعت الأسد*».

وعَلِمَ اللواء علي دوبا بالأمر من قائد الكتيبة الجديد فتوجّه مباشرةً بسيارته إلى مقر قائد الكتيبة وطلب إلى العقيد أسعد صباغ والمرافقة أنْ

---

* كان هذا التعبير يروق كثيرا للعميد رفعت ولذلك كان عناصر سرايا الدفاع كافة يردّدون هذه العبارات وكذلك المنافقون من عسكريين ومدنيين

تلحق به وصعد مباشرة إلى حيث يتواجد العقيد بركات وتوجّه نحوه قائلاً: لقد انتهى كل شيء ولم يعد لك مكان في هذه الكتيبة وعليك أنْ تغادر فوراً. وصرخ العقيد بركات وهو شاهر مسدسه: سيدي اللواء لا تقترب منّي رجاءً.. فقال له اللواء دوبا: بل سأقترب منك يا ابن الكلب.

وفي هذه اللحظة وصل العقيد صباغ وعناصر المرافقة (أربعة مساعدين مسلّحين بالبنادق الروسية) وقاموا بتجريد العقيد بركات من سلاحه وهتف اللواء دوبا إلى العماد حكمت بأنّ المسألة قد حُلّت.. والتفت إلى العقيد سليم قائلاً: أتشهر مسدّسك عليَّ يا سليم فقال له: معقول يا أبا محمد أنْ أشهر مسدّسي عليك.. وهنا قام اللواء دوبا بصفع العقيد بركات على خدّه: أنا اللواء علي دوبا ولست أبا محمد سأحاكمك يا سليم بركات. ثم أمر اللواء دوبا باطفاء الأنوار في الكتيبة وأمر العقيد أسعد صباغ بانزال العقيد بركات في سيارته وزجّه في سجن الشرطة العسكرية بموقع القابون وانتهت الحادثة دون ضجيج وبقي الذين يعلمون بها محصورين في أشخاص معدودين.

<u>بداية المواجهة الحامية بين الطرفين</u>

لم يهضم العميد رفعت الأسد هذا الاجراء، ولذلك قرّر المواجهة بعد نصائح أصدقائه، في الداخل والخارج، التي أخفقت معها الأساليب كافة للسيطرة على قرار الرئيس حافظ الأسد المستقل والذي يخدم المصلحة السورية ويتناغم مع مصلحة الأمة العربية، ولهذا وجدت واشنطن الفرصة مناسبة لكي توجّه عملاءها نحو تصعيد الأمور في وجه الرئيس الأسد، لأنّ شقيقه رفعت سيكون حتماً مطواعاً لسياسة البيت الأبيض وعلى النقيض من شقيقه وفقاً لحساباتهم ومعلوماتهم ومعلومات أصدقائهم. وكما ذكرت فانّ الرئيس الأسد كان الشخص الوحيد في القوات المسلحة الذي يمسك ببعض الخيوط الأمنية في سرايا الدفاع وعندما تأكّد أنّ المواجهة قادمة لا محالة وأنّ رفعت الأسد قد رفع الجاهزية القتالية في سرايا الدفاع منذ أسبوع أي أنّ العملية جديّة وليست عملية اختبارية لتفقّد الجاهزية القتالية للتشكيل.

وفي الساعة الثانية الاّ ربعاً من صباح ١٩٨٤/٢/٢٥ هتف لي الرئيس الأسد إلى المنزل وأعطاني التوجيه التالي: «ارتد لباسك العسكري وتوجّه مباشرة إلى مكتبك في القيادة العامة واستنفر التشكيلات الضاربة القريبة من دمشق وارفع درجة استعدادها القتالي إلى الكامل لأنّ العميد

رفعت الأسد استنفر سرايا الدفاع بالكامل وهو يعدّ العدّة للسيطرة على دمشق لذلك يجب أنْ تتّخذ الاجراءات كافة لاحباط خططه وليكن في علمك أنّ رفعت الآن جادٌّ هذه المرة في موقفه وأنا أعرف أنّك لا تخاف من أحد ولكن يجب أنْ تضع في اعتبارك أنّ المواجهة قائمة لا محالة ولذلك ليس أمامك من طريق سوى اشعاره بأنّ المواجهة مع الجيش ستكون عملية انتحارية له ولأتباعه كافة».

وفي دقائق معدودة كنت مرتدياً لباس الميدان ووصلت إلى مبنى القيادة العامة الساعة الثانية وخمس دقائق واستنفرت فوراً لواء الصواريخ المحمول على دبابات والذي تبلغ دقّته بضعة أمتار كما استنفرت اللواء «٦٥» المضاد للدبابات والذي يقوده العميد علي هرمز والوحدة «٥٤٩» (سرايا الصراع ضد الدبابات) والتي يقودها العميد عدنان الأسد (ابن شقيق السيد الرئيس) كما استنفرت قائد الفرقة الأولى اللواء ابراهيم صافي وقائد الفرقة الثالثة اللواء شفيق فياض وقائد الفرقة السابعة العميد علي حبيب و قائد الفرقة التاسعة اللواء عدنان بدر الحسن وتمّ هذا الاجراء في أقل من خمس دقائق وبعد ذلك وصل إلى مكتبي تباعاً اللواء علي دوبا واللواء محمد الخولي وقال لي كلّ منهما: انّ الرئيس الأسد وضعنا تحت تصرّفك لكي ننجز المهمّة التي كلفت بها، قلت لهما: لقد استنفرت الوحدات والتشكيلات التي سبق ذكرها ودونكما الهواتف على مكتبي فقوما باستنفار الوحدات القريبة من دمشق وبدا مكتبي كأنّه غرفة عمليات وكل واحد منّا يتكلم مع قائد تشكيل ويطلب اليه رفع الاستعداد القتالي إلى الكامل... وهكذا تمّ استنفار بقيّة ألوية الصواريخ و القوى الجوية والدفاع الجوي وألوية مدفعية احتياط القيادة العامة وسرايا المهام الخاصة في شعبة المخابرات وسرايا الشرطة العسكرية ومفارز مخابرات القوى الجوية... يعني لم نترك قائداً قريباً من دمشق وبأمرته وحدة مقاتلة الاّ وتمّ رفع جاهزيّته القتالية إلى الكاملة، مع تأكيدنا للضباط كافة أنّ الرئيس الأسد يضع ثقته المطلقة بهم.

وأعلمت الرئيس الأسد بالوضع في الجيش وأنّ الوحدات والتشكيلات القريبة من دمشق أصبحت جاهزة لتلقي أيّة مهمّة وشكرني على هذا الانجاز وأوصاني بالمتابعة... وهنا لابدّ من أنْ أقول كلمة حول ذاكرة الرئيس الأسد بأسماء التشكيلات وأرقامها... فلم يترك سريّة أو كتيبة أو لواء أو فرقة في القوات المسلحة الاّ وذكرها وطلب استنفارها وعندما كنت أقول له: لقد تمّ الأمر سيدّي، وبعد خمس دقائق يرنّ جرس الهاتف والمتكلم كان بالطبع الرئيس الأسد الذي كان يذكّرني بوحدة جديدة وكنت

أقول له لقد تمّ استنفارها ولم تهدأ المكالمات والاتصالات الاّ قرابة السابعة صباحاً حيث طلبت من الرئيس راجياً أن يخلد إلى الراحة ويأخذ قسطاً من النوم وقلت له مازحاً: «بقي رب العالمين لم نستنفره بعد»!. فقال ضاحكاً: لأنّه معنا، طيّب الله يعطيك العافية*.

كان اللواء علي دوبا واللواء محمد الخولي قد استأذنا في الساعة الرابعة صباحاً للنوم في مكاتبهما و بقيت وحدي في المكتب أتلقى اتصالات السيد الرئيس. وفي احدى المكالمات قلت للرئيس: صحيح أنّنا غيّرنا قائد كتيبة الحراسة لكنّنا لا نعرف الألغام التي وضعها رفعت في الكتيبة كما أنّ حراسة القيادة القطرية القريبة من مبنى القيادة العامة هي من سرايا الدفاع ولذلك فان أمننا القريب لا يوحي بالاطمئنان فهل تسمح لي بأن أنقل فوجاً من الوحدات الخاصة ليكون احتياطاً قريباً في يدي.. فقال لي: هل تستطيع ذلك دون أن تخبر اللواء علي حيدر (وكان الرئيس الأسد يعلم بأنّ هناك تنسيقاً كاملاً بين شقيقه رفعت وعلي حيدر) فأجبته أنّني قادر على ذلك ولمّا سألني أي فوج مغاوير سوف تُحضر من لبنان؟.. أجبته: الفوج «٣٥» الذي يقوده العميد صبحي الطيب ورئيس أركانه العقيد محسن سليمان. فأجاب: أشك في أنّك سوف تنجح في هذه المهمة!.. فقلت له أنا على يقين من النجاح طالما أنّني مغطّى بأوامرك.. فقال: استخدم صلاحيّاتي المطلقة في هذا المجال وتمنّى لي التوفيق.

الوحدات الخاصة تبدّل ولاءها

في الساعة التاسعة صباحاً كان في مكتبي العميد صبحي الطيب ورئيس أركانه العقيد محسن سليمان وأعطيتهما فكرة عن الموقف وقلت لهما لابدّ من قلب معادلة الأمن القريب وهذا لا يكون بعناصر الشرطة العسكرية وانّما برجال من المغاوير المتمرّسين على القتال ولذلك أطلب اليكما باسم الرئيس حافظ الأسد أن تأمرا الجنود والضباط كافة الذين بأمرتكم أن يتوجهوا فوراً من مكان تمركزهم إلى معرض دمشق الدولي وهو المكان الذي حدّدته كنقطة ازدلاف للجميع، وذلك لقربه من القيادة العامة ولأنّ أجنحته المتعددة والواسعة تسمح بمبيت الرجال دون أنْ نلفت انتباه أحد. وعندما سألني العقيد محسن: كيف نتصرّف اذا حاولت مفارز سرايا

---

* اجرى القائد الاسد معي في تلك الليلة اكثر من مئة اتصال هاتفي ولو انني استخدمت آلة التسجيل لحصلت على وثيقة نادرة تبرهن مدى قوة واتساع ذاكرة الرئيس الاسد ولكن يبدو ان هذا الموضوع اصبح يتمتع باجماع عربي ودولي.

الدفاع من الألوية المحيطة بدمشق منعنا؟.. وكان جوابي: انّ الحركة يجب أن تكون افرادية على السيارات العابرة وبوساطة عربات المبيت شريطة ألا تشكّل العربات أي رتل اطلاقاً وعندما تواجهون عناصر سرايا الدفاع عليكم بضربهم بأخمص البندقية واذا استمرّوا في الممانعة فما عليكم الاّ أن تقلبوا لهم ظهر المجن ووجّهوا نحوهم فوهة البندقية التي تنبع منها السلطة السياسية في الحالات الثورية كما قال الرفيق «ماوتسي تونغ»، عند ذلك سوف تجدونهم يفرّون من المجابهة لأنّ ارادة القتال لديكم أقوى بكثير وأنتم حُماة السلطة وهم الخارجون على القانون.

وأخيراً سألني العميد صبحي الطيب والعقيد محسن سليمان: طيّب ماذا سنقول للّواء علي حيدر اذا سألنا عن سبب ارسال قواتنا إلى دمشق من دون علمه؟.. فقلت لهم: الجواب في منتهى البساطة لقد سأل عنك العماد طلاس فلم يجدك ونظراً لخطورة الحالة فقد استدعانا إلى مكتبه و طلب الينا تنفيذ توجيهات الرئيس الأسد وهكذا صار... وصافحتهما متمنيّاً لهما التوفيق. وتوجّه قائد الفوج ورئيس أركانه إلى منطقة عنجر وقاما بتنفيذ المهمة على أكمل وجه.

في الساعة التاسعة والنصف صباحاً حضر إلى مكتبي العماد حكمت الشهابي والعماد علي أصلان حيث وضعتهما في صورة الموقف وقلت لهما انّ سبب عدم استدعائهما كان أولاً من أجل تنفيذ عملية الاستنفار بشكل سرّي بحيث لا تعرف به شعبة العمليات الا لاحقاً حتى لا يعرف العميد رفعت الأسد بالموضوع، هذا من جهة، ومن جهة ثانية لم يكلّفني ذلك سوى بضعة اتصالات هاتفية مع قادة الفرق وقادة التشكيلات وأنتما معتبران حكماً مع الرئيس حافظ الأسد قولاً واحداً. وكان جوابهما: انّ هذا الموضوع لا يحتاج أبداً إلى نقاش فنحن مع القائد حافظ الأسد على السرّاء والضرّاء.

في الساعة الرابعة والنصف بعد الظهر حاولت أنْ أخلد إلى النوم بعد عمل أربع عشرة ساعة متواصلة ولكن مدير مكتبي بعث اليّ بقصاصة يُعلمني بها بأن اللواء علي حيدر يرغب في مقابلتي، قلت له: دعه يدخل، واستقبلته كالعادة لكنّني لاحظت علائم الاضطراب على وجهه فبادرني قائلاً: سيدي ماذا صنعت أنا لكم وللرئيس حتى تعاملوني كالزوج المخدوع أي آخر من يعلم؟... وكان الرئيس الأسد قد رسم لي خطّة لمعالجة هذا الموقف الطارئ. قلت له بوضوح: اذا كنت حقّاً معنا فما عليك الاّ أن تطلب من مكتبي العميد رفعت الأسد وتقول له بصراحة

موقفك وعند ذلك فقط سوف أتّصل أمامك بالرئيس وسوف أرسلك لمقابلته فوراً لجلاء أي موقف غامض في قناعة السيد الرئيس، فقال لي: اطلب لي العميد رفعت حالاً، وطلبت العميد رفعت على الهاتف المباشر وكان على الخط في أقل من ثوانٍ وقلت له: أخي أبو دريد اللواء علي حيدر يريد أن يكلمك فسألني: هل هو عندك!، فأجبته طبعاً، فقال لي: صار لي من الصبح وأنا أفتش عنه دونما جدوى*. وناولته سمّاعة الهاتف فقال له اللواء علي حيدر: «أبو دريد ما بتعرف أنه في هذا البلد لا يوجد سوى قائد واحد هو الرئيس حافظ الأسد... كيف يقوم عناصر من سرايا الدفاع بهذه الأعمال المشينة التي تسيء إلى انضباط القوات المسلحة وكان جواب العميد رفعت: أنت الآن تريد أن تعطيني درساً في الوطنية يلعن أبوك ابن كلب». وأغلق السماعة في وجهه فقال لي اللواء علي حيدر «عجبك»، لقد شتمني وأغلق الهاتف بوجهي، قلت له: الآن حقّ الحق.. واتّصلت بالسيد الرئيس وأعلمته بالحادثة فقال لي: أرسله فوراً إلى القصر الجمهوري، وتوجّه من مكتبي إلى القصر وتمّ التأكيد على ولاء الوحدات الخاصة للرئيس الأسد، وطبّق اللواء علي حيدر حكمة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب «الرجوع إلى الحق خير من التّمادي في الباطل». وفي الساعة السابعة مساءً أخذت الاعلام بأن ألفي ضابط وصف ضابط وجندي من الوحدات الخاصة أصبحوا متمركزين في معرض دمشق الدولي، وبذلك أصبح الأمن القريب لمبنى القيادة العامة للجيش والقوات المسلحة جيداً وانقلبت المعادلة لصالحنا كنسبة وتناسب في القوى والوسائط.

ولم أكتف بذلك فطلبت إلى العميد عدنان الأسد أن يرسل سّريتي م/د واحدة «مالوتكا» حقائب والثانية من طراز «فاغوت» وتم تمركزهما على سطح مبنى القيادة العامة، وبذلك غدت القيادة العامة قلعة محصّنة لا تُنتهك.

---

* في الوقت الذي كان رجال الوحدات الخاصة يتوجهون إلى دمشق من كل فج عميق كان اللواء علي حيدر يتناول الغداء في منزل علي حمية في حور تعلا بالبقاع، وعندما علم بالموضوع قال لعامل المقسم: اريد صبحي الطيب حيا... او ميتا... وعندما اخذ الهاتف العميد صبحي الطيب قال للواء علي حيدر: لقد استدعاني العماد طلاس إلى مكتبه مع العقيد محسن سليمان وطلب الينا نقل الفوج /٣٥/ إلى المعرض لمواجهة عناصر رفعت الاسد وان هذه الاوامر عكس توجيهات الرئيس الاسد شخصيا فماذا تريدنا ان نفعل؟... فقال له: نفذ اوامر نائب القائد العام.

الحلقة الثانية: اتفقت مع عدنان الأسد على تهريب الصواريخ إلى منزل الرئيس في سيارة الإسعاف لأن سرايا الدفاع كانت تحيط بدمشق

كان لابدّ من إصدار الأمر بتشكيل الحرس الجمهوري لإفهام القوات المسلحة بخاصة وبقية فئات الشعب بعامّة بأنّ القصر الجمهوري يحرسه الحرس الجمهوري ولم يعد لسرايا الدفاع أي دور في حماية السيد الرئيس. واتّفقنا على أنْ يكون قوام الحرس الجمهوري فرقة مدرّعة يضاف اليها ثلاثة أفواج حراسة تماثل ملاكاتها أفواج المغاوير في الوحدات الخاصة. وحتى يولد الحرس الجمهوري واقفاً على رجليه من لحظة تشكيله اقترحت على سيادة الرئيس أن نأتي بوحدات جاهزة من الفرق والتشكيلات مباشرة، وضربت مثلاً اذا أخذنا كتيبة مشاة أو دبابات أو مدفعية من أي فرقة فلن تتأثر جاهزيتها ومن السهل عليها تشكيل كتيبة أخرى من قوام الفرقة وهكذا ظهر في أمر التشكيل للمرّة الاولى اسم الوحدة التي ستنضم إلى الحرس الجمهوري... وقد حاول رفعت الأسد عرقلة هذا التشكيل الذي اعتبره حربة موجّهة إلى عنقه، ومنع بالقوة بعض الكتائب من الالتحاق بالحرس الجمهوري الاّ أنّ وحدات الدبابات تمكنت من خرق الحصار له والتحقت بالتشكيل الجديد، وكان في المقدمة الكتيبة «٢٥٩» من اللواء «٨١» الفرقة الثالثة أول الملتحقين وانّي لأشعر بالزّهو والاعتزاز بأنّ هذه الكتيبة هي أول كتيبة دبابات تسلّمت قيادتها في حمص بعد ثورة الثامن من آذار المجيدة. وهكذا بدأ الحرس الجمهوري يقف تدريجياً على قدميه ليقوم بمهمّته النّبيلة.

تهريب الأسلحة المضادة للدبابات في العربة الصحية

كان منزل الرئيس الأسد هو الهدف الأول لسرايا الدفاع ولذلك فقد كان يشكل بالنسبة لي هاجساً أمنيّاً يؤرّقني ليل نهار.. ولكن هذا الهاجس كان بالنسبة للعميد عدنان مخلوف (الذي عُين قائداً للحرس الجمهوري) كابوساً لا يطاق. ولمّا كانت وحدة سرايا الصراع التي يقودها عدنان الأسد مرشّحة للاصطدام فوراً بعناصر سرايا الدفاع التي سوف تتحرك باتجاه دمشق، فقد رأيت من الأفضل أنّ نسحب صواريخ «الفاغوت» من اللواء «٦٥» (مضاد للدروع). ولمّا كان العميد رفعت قد نشر ألويته المحيطة بدمشق وأصبح مسيطراً على المداخل فقد اتفقت مع العميد عدنان بأنّنا سوف نلجأ لتهريب الصواريخ إلى منزل الرئيس حافظ الأسد

بالعربات الصحيّة (سيارات الاسعاف) وعليه أن يفرّغ حمولة العربات ويعيدها إلى مصدرها، واتصلت بالعميد هرمز قائد اللواء أن يحضر ثماني عشرة قاعدة صاروخية من طراز «فاغوت» مع ثلاث وحدات نارية لكل قاعدة ويرسلها إلى منزل الرئيس الأسد على دفعات (عربات منفردة) وأن يربط جندياً بالشاش الأبيض من يديه ورأسه ويكون (الميكروكروم) بديلاً للدم النازف، وفهم قائد اللواء الغاية من العملية التمثيلية وقلت له: يجب أنْ توصي سائق الصحية بأن يفتح (زمور الخطر) قبل الحاجز بمدة كافية وأن يسابق الريح في الوصول إلى دمشق، وهكذا انطلت اللعبة على العميد رفعت وتم نقل القواعد الصاروخية المطلوبة كافة وأصبحت حول منزل الرئيس حافظ الأسد، ولكن هذا الموضوع لم يبق سرّاً بيننا نحن الثلاثة وانّما شاركنا العميد رفعت بالمعلومات عن طريق وشاية قام بها أحد عملائه في اللواء «٦٥» وهو الرائد يوسف العلي، وقد كشف هذا المغفّل عن نفسه بسرعة ولذلك وضعه العميد هرمز تحت الرقابة المشددة، وما أن سافر العميد رفعت إلى موسكو حتى تم نقله إلى مكان ثانوي لا يستطيع به أن يعضّ أو يخرمش.. وتم تصنيفه في عداد الضباط غير الجديرين بثقة القيادة العامة، كما تم وضع حواجز حديدية قنفذية حول بيت الرئيس الأمر الذي يعوق حركة الدبابات ويجعلها هدفاً ثابتاً للأسلحة المضادة، وبهذا العمل تمّت عملية تحصين بيت قائد الأمّة ورمزها المفدّى.

تنفيذ أمر نقل الضباط المحسوبين على رفعت

وفي غمرة لعبة عض الأصابع بيننا و بين العميد رفعت الأسد استأذنت السيد الرئيس القائد العام بتنفيذ أمر النقل للضباط المحسوبين على شقيقه والذين ماطلوا في التنفيذ مستندين إلى دعم العميد رفعت وتعهّدت له بأنّ هذه العملية سوف تتم في جوٍّ ودّي ولن نريق قطرة دم واحدة.. فقال لي: أشكُّ في أنهم يقبلون ونحن في ذروة الأزمة، فقلت له اذا أعطيتني الضوء الأخضر فغداً تراهم وقد أصبح كلّ منهم في مكانه الجديد. فقال: اذا كنت قد عزمت فتوكّل على الله. وطلبت من مدير مكتبي أن يبلغ الضباط المنقولين وعددهم أربعة عشر بأن يتواجدوا في مكتبي غداً الساعة السادسة صباحاً. وتمّ ابلاغ الضباط جميعاً وكان جوابهم لماذا في هذا الوقت المبكر ونحن نعلم أنّ العماد طلاس يبدأ دوامه الساعة العاشرة صباحاً وينتهي الساعة العاشرة مساءً فلماذا نحضر قبل الدوام الرسمي بساعة ونصف؟ وكان جواب مدير المكتب: الأمر واضح ولا لبس به وأنتم مطلوبون غداً الساعة السادسة صباحاً.

في صباح اليوم التالي حضر الضباط المعنيون إلى مكتبي متأخرين ساعة ونصفاً عن الموعد ولمّا سألتهم عن السبب؟ أجاب كبيرهم: هل تريد أن نقول لك الحقيقة؟، قلت: نعم، قال: كنّا عند أبي دريد (يعني رفعت الأسد)، قلت لهم: اذاً لم يكن الرئيس الأسد مخطئاً عندما نقلكم من أماكنكم وها أنتم الآن تعترفون دونما أي ضغط أو اكراه أنّكم كنتم لدى قائد سرايا الدفاع... المهم نحن الآن أولاد اليوم وعفا الله عمّا مضى... ولكن قبل أن أُعطيكم توجيهات القائد العام أودُّ أن أطرح عليكم السؤال التالي: مَنْ منكم تقدّم اليَّ بطلب شخصي أو عام ولم ألبِّ طلبه... فسكت الجميع ولم يحر أيّ منهم جواباً... قلت لهم: اذاً لماذا تلعبون بذيولكم وتضعون ثقتكم وولاءكم لغير قائدكم... (فسكتوا أيضاً) وتابعت... الآن أمرني القائد العام أنْ أنفّذ أوامره بنقلكم إلى وظائفكم الجديدة... من ينفذ الأمر سوف يُعفى من أيّ عقوبة أو مساءلة مسلكية* أمّا في حال اصراركم على غيّكم فأنا كلفت نوّابكم في التشكيلات والوحدات أن يعتقلوكم ويرسلوكم مباشرة إلى السجن المركزي، وفي حال المقاومة والعصيان العسكري فانّ لدى نوّابكم الأمر منّي شخصيّاً باطلاق النار عليكم وأنتم تعرفون أنّنا لن نحاسبهم على النتائج مهما كانت لأنّهم ينفّذون الأوامر والتعليمات وأنتم الخارجون على القانون. أما في ما يتعلّق بأمور التسلم والتسليم فاعتبروا أنّ لديكم براءة ذمّة مصدّقة من وزير الدفاع وسوف تصلكم بالبريد، أما بالنسبة لحاجاتكم الشخصية فيمكنكم أن ترسلوا السائق لجلبها من مكاتبكم وحذار من الالتفاف على الأوامر واذا مكرتم فانّ مكرنا أشد واذا تطاولتم على القائد العام فانّ يدي ستطول هذه المرة رقابكم. وضربت بقبضتي على الطاولة (وكانت الغاية من ذلك ادخال الرهبة في نفوسهم) وكان صوتي المرتفع والجدّي يدلُّ على مدى الحسمية وعدم التساهل أبداً في الموضوع. فأذعن الجميع للتعليمات وأدّوا التّحية العسكرية وتوجّهوا إلى أماكن وظائفهم الجديدة ولم يحاول أي منهم المناورة كما لم يعد أي منهم إلى الاتصال بالعميد رفعت أبداً... وأعلمت الرئيس الأسد بنجاح المهمة وكان مرتاحاً للغاية وقلت له: ليس الجيش والشعب معك في هذه الأزمة وانّما العناية الالهية كذلك، ورويت له قصّة الشيخ أحمد عبد الجواد الذي جاء من المدينة المنورة لنجدة الرئيس الأسد، وحتى يكون القارئ معنا سأروي له الحكاية كما حدثت:

* عدم تنفيذ أمر القائد العام يعتبر في حالة الحرب جناية يعاقب مرتكبها بالسجن سبع سنوات كحدٍّ أدنى.

في أوائل شهر شباط (فبراير) من العام ١٩٨٤ اتصلت زوجتي لمياء الجابري (أم فراس) بالشيخ أحمد عبد الجوّاد وطلبت منه أن يأتي إلى سورية وكان جوابه: انّني الآن في المدينة المنورة وأمامي المدفأة الكهربائية ولا أقوى على برد الشام في شهر شباط. فقالت له أم فراس: اذاً على خاطرك وفوجئنا في اليوم التالي به يطرق الباب مع الشيخ محمد الهندي. وبعد أن رحّبت بمقدمه وقلت له: من الذي أتى بك الينا؟... أجاب اسأل زوجتك أم فراس، فقلت: أريد أن أسمع منك. فقال: بعد هاتف أم فراس توجّهت إلى مسجد الرسول وبدأت بالصلاة وتلاوة القرآن حتى غلبني النّعاس فنمت في الروضة الطاهرة ورأيت حلما دفعني إلى المجيء إلى الشام وأمام هذا الحدث اتصلت بشركة الطيران السعودية وغادرت المدينة المنورة على أول طائرة متوجّهة إلى دمشق وها أناذا بينكم... بعد أن شربنا القهوة قال لي: انّني مكلّف (...) في مكان مرتفع في دمشق على مدى ثلاثة أيام ونقوم سويّة بالدّعاء بأن يحفظ الله البلد والقائد حافظ الأسد، وأجبته: حبّاً وكرامة... ورجاني أن نستخدم سيارة الشيخ محمد الهندي لأنّها متواضعة ولا يجوز أن نتقرب إلى الله ونحن نركب أفضل السيارات... وأجبته لا مانع لديّ مطلقاً... وصعدنا الثلاثة إلى جبل قاسيون وصلّينا قرب (نصب الجندي المجهول) وقمنا بالدّعاء حسب الأصول.

في اليوم الثاني طلب منّي أنْ نصلّي في أعلى مكان في دمشق قرب شارة التلفزيون على جبل قاسيون وتوجّهنا إلى هناك وكنت أجلس إلى جانب السائق وتعرّف عليّ قائد الحرس، وهو من عناصر سرايا الدفاع، وفتح لنا الحاجز بعد أن أدى التحية العسكرية وقمنا بالصلاة والدّعاء إلى الله بأن يحفظ البلد وقائدها الأسد.. وشعرت وأنا أصلّي بوجود حركة غير طبيعية في الموقع فالدبابات خارجة من مخابئها وسدنة الدبابات يقومون بتنظيف الذخيرة ومسح المدافع وتنظيفها، من أعمال الصيانة وقلت في نفسي ربّما تصادف مجيئنا مع يوم المرآب في سرايا الدفاع.

في اليوم الثالث قال الشيخ أحمد لسنا بحاجة لكي نصلّي في مكان مرتفع ويمكننا أن نصلي في حديقة المنزل... وهبطنا مع سجادات الصلاة إلى الحديقة وصلّينا وتوجهنا إلى الله بالدعاء نفسه.

وانّني أعترف للقارئ بأنني أكبرتُ في هذا الرجل محبته للقائد الأسد دون أن يراه أو يقابله شخصياً.

وقد حدثت هذه الواقعة في أوائل شهر شباط (فبراير) ١٩٨٤، وقبل أن يكتشف أحد باستثناء السيد الرئيس نوايا العميد رفعت في عزمه على كشف أوراقه بشكل مبكر وقد بقي الشيخ أحمد في سورية حتى انفرجت الأزمة وسافر العميد رفعت إلى روسيا*.

الشيخ أحمد الرفاعي يتراءى لي في المنام

كان الرئيس الأسد أحرص مني على نفسي وقال لي في بداية الأزمة: ليس من الضروري أن تنام كل يوم في مكتبك... بل يمكن أن تناور وتبيت كل يوم في أحد مكاتب القيادة العامة وتعلمني عن رقم هاتف المكتب. وكان جوابي: انني مصمم على المبيت في مكتبي مهما كانت النتائج وحتى أعطي مثلاً للآخرين بأنّ القائد يموت دفاعاً عن وطنه حتى ولو كان في مكتبه... فقال: اذا كان هذا رأيك فأنا موافق لأنّه من الضروري أن تترك أمثولات ومآثر للتاريخ.

و في ١٢ آذار (مارس) ١٩٨٤ كنت نائماً في مكتبي واذا بي أسمع بعد منتصف الليل جلجلة كبيرة في ساحة الأمويين وقدّرت أنّه يوجد في الساحة نحو ألف رجل يرقصون رقصة الحرب وكان على رأسهم الشيخ الجليل أحمد الرفاعي... كانت سيوف الجنود تلامس الأرض الاّ قليلاً وكانت الرماح تتطاول حتى لتنوف على شرفة مبنى القيادة العامة وكانت الأيدي تمسك بالأيدي والأكتاف متراصّة كأنّها بنيان مرصوص وقائد الدبكة الحربية يقول بصوت جهوري يشق عنان السماء:

«يا أيها النبي والكوكب الدرّي أنت امام الحضرة سلطانها القوي»•.

وعندما يصل الشيخ أحمد الرفاعي إلى كلمة (سلطانها القوي) تهوي ألف قدم على الأرض فترتج ساحة بني أمية وكأنّ زلزالاً ضربها.

استيقظت من نومي وأطليت من النافذة فلم أجد شيئاً وخرجت إلى الشرفة ومعي مرافقي المساعد سيف الدين سعدة فلم أجد شيئاً وعدتُّ إلى النوم

---

* علمت بعد انتهاء الازمة بأن الرقيب اول رئيس الحرس الذي فتح لنا الحاجز على قمة جبل قاسيون عاقبه العميد رفعت عشرين يوما في سجن الوحدة

• قال لي الشيخ عربي قباني (رحمه الله): اننا نتناقل هذا النشيد في المدائح النبوية ونقول: سلطانها الغيبي فأجبته هذا ما سمعته من الشيخ احمد الرفاعي دونما تحريف او تصحيف.

من جديد وما هي الاّ نصف ساعة حتى عاودني المنام ونهضتُّ من السرير وكرّرت المحاولة ولم أجد شيئاً وهكذا حصل معي في الرؤيا الثالثة وسجلت تاريخ الليلة على مفكرة المكتب، وبعد انتهاء الأزمة اعترف النقيب مالك مصطفى من سرايا الدفاع بأنَّ العميد رفعت الأسد أمره ثلاث مرات بأن يطلق قذيفة مدفعيّة محمولة من طراز «غفوزديكا KVOZDIKA» على مكتبي وبعد خمس دقائق كان يأتيه أمر معاكس بأن ينزع القذيفة. وهكذا كانت العناية الالهية تحرس مبنى القيادة العامة.

خطّة العميد رفعت للسيطرة على دمشق

كان العميد رفعت الأسد يستغل فترات ضغط الاخوان المسلمين على مرافق الدولة المختلفة ويطلب في ذروة الأزمة ضباطاً ومجندين إلى الوحدة، وكانت ادارة شؤون الضباط تستجيب له وكذلك شعبة التنظيم والادارة الأمر الذي رفع تعداد الوحدة من ستة عشر ألفاً إلى أربعين ألفاً من مختلف الرتب. وقد ساعده في ذلك أن التطوّع كان مفتوحاً لديه ولهذا فانَّ كل مجند يأتي إلى الوحدة يكون زيادة على الملاك. وحتى تستوعب سرايا الدفاع، التي هي في الأساس (فرقة مدرعة) + لواء مشاة جبلي + ثلاثة أفواج انزال + كتيبة «مغاوير خاصة» + كتيبة دبابات مستقلة، هذه الأعداد الكبيرة من الجنود، شكّل العميد رفعت بصورة غير نظامية أربعة ألوية مشاة أطلق عليها «الألوية المحيطة» وأعطاها أرقاماً من عنده وكلّف كل لواء منها بمهمة السيطرة على المحاور المؤدّية إلى دمشق وفقاً لما يلي:

ـ اللواء الأول: محور حمص ـ دمشق.

ـ اللواء الثاني: محور بيروت ـ دمشق.

ـ اللواء الثالث: محور القنيطرة ـ دمشق.

ـ اللواء الرابع: محور درعا والسويداء ـ دمشق.

كانت الفكرة الأساسية للسيطرة على دمشق تقضي باغلاق المحاور الأساسية فيوجه الوحدات والتشكيلات الضاربة المتمركزة خارج دمشق والتي ولاءها معقود للقائد حافظ الأسد، وفي اللحظة نفسها تتحرّك ثلاث مفارز قوامها سرية دبابات + سرية مشاة ميكانيكية + فصيلة هندسة عسكرية بمهمة السيطرة على منزل رئيس الجمهورية من قبل المفرزة

الأولى، بينما تقوم المفرزة الثانية بالسيطرة على مقر القيادة العامة، والمفرزة الثالثة تقوم باحتلال مقر الاذاعة والتلفزيون وتعلن مباشرةً على العالم نبأ استلام «رفعت الأسد» مقاليد السلطة في البلاد. ولاشعار سكان العاصمة دمشق بأنّ القبضة التي استلمت الحكم هي قبضة فولاذية، تقوم كتائب المدفعية «ب م ـ ٢١» بقصف دمشق عشوائياً* لارهاب السكان وقطع أنفاس الناس حتى يصبح أهل الشام مثل أهل بغداد أيام «الحجّاج» سابقاً وأيام «صدّام» لاحقاً.

بعد ذلك تقوم مفارز المشاة من سرايا الدفاع بعملية نهب وسلب للمدينة المنكوبة وقد أبلغ العميد رفعت ضبّاطه وجنوده أنّ المدينة ستكون لهم حلالاً زلالاً مدّة ثلاثة أيام بلياليها، وبعدها لا يجوز أبداً أن يظلّ فقير واحد في سرايا الدفاع. واذا طلب أي جندي بعدها مساعدة أو اكرامية ستقطع يده. ولذلك على من يكتبوا تاريخ سورية الحديثة أن يقدّروا مدى وأهميّة الحكمة البالغة التي استخدمها الرئيس حافظ الأسد بنزع فتيل الأزمة على نار هادئة.

---

* يمكن لكتيبة واحدة ان تطلق ٧٢٠ طلقة في دقيقة وعشرين ثانية وهي الجيل المطوّر عن قذائف (الكاتيوشا) التي ابتكرها المهندسون الحربيون الروس في الحرب العالمية الثانية وكان لها دور مؤثر في الضربات النارية. وفي حديث هامس لابي دريد «رفعت الاسد» مع مستشاره السياسي «محمد حيدر» وكانا يمشيان في ضوء القمر بمعسكرات القابون: «مو حرام واسافه ان تهدف هذه المدينة الجميلة». فأجابه محمد حيدر: «والله صحيح حرام واسافة ولكن شو طالع بأيدينا غير هيك».

الحلقة الثالثة: العميد رفعت الأسد وعد المتعصبين من الطائفة العلوية بإقامة الدولة العلوية في المنطقة المحيطة باللاذقية إذا ساندوه

في أوائل نيسان (ابريل) من العام ١٩٨٤ وقرابة الساعة الرابعة بعد الظهر تلقيت اتصالاً هاتفياً من قائد قواتنا في طرابلس العميد سليمان حسن وأعلمني أنّ علي عيد جهّز مفرزة من اللصوص قوامها نحو مئتي عنصر مع عشرين سيارة متنوعة وهم مسلحون ببنادق كلاشينيكوف ومدافع مضادة للدروع (ر.ب.ج.٧) وقنابل يدوية ومسدسات.. وهناك اتفاق ضمني مع أبو دريد يعني العميد رفعت الأسد بأنّ هذه المجموعة سوف تشارك في نهب محلات المجوهرات وخصوصا في دمشق عندما تحين ساعة الصفر لاستباحة المدينة ثم يهربون بالمسروقات إلى لبنان (طرابلس الشام) وهناك تتم عملية الاقتسام.

اتصلت فوراً بقائد فرقة الدفاع الجوي في المنطقة الوسطى اللواء أحمد غميض وأسندتُ اليه مهمة القبض على اللصوص وقلت له: اذا كنت غير قادر على مجابهتهم فأنا على استعداد لأن أعطي أمراً لمدير كلية المدرعات العميد فاروق عيسى لكي يضع تحت تصرّفك سرية دبابات من فوج البيانات العملية، فأجابني لا لزوم لذلك فأنا قادر على مجابهتهم والقاء القبض عليهم... وبعد ربع ساعة اتصل بي اللواء غميض وقال لي: «لقد زمق*» اللصوص إلى دمشق ولم نستطع الامساك بهم، قلت لقائد الفرقة: ألم أقل لك اذا كنت غير قادر على التنفيذ أعلمني حتى أسند المهمة لغيرك! فأجابني: سيدي «زمقوا»... «زمقوا» لم نستطع أن نعمل لهم شيئاً.

أنهيت المكالمة واتصلت على الفور باللواء شفيق فياض قائد الفرقة المدرعة الثالثة والمتمركزة في القطيفة وأسندت له مهمة القبض على اللصوص وطلبت اليه أن يحرّك سرية مشاة ميكانيكية من اللواء عشرين وأن يضع عربة مدرعة على مفرق معلولا وعربة ثانية على المحور القديم، وبقية العربات على المحور الأساس. وأن يكون الاتصال بالنظر

* زمق في اللغة العربية تعني فتح القفل، وفي العامية السورية تعني هرب من مكان ضيق.

بين الجميع. وكان جوابه: سيدي اتركوا لي التفاصيل وسوف تسمعون الأخبار الطيّبة بعد أقل من ساعتين.

كان وصول اللصوص إلى دمشق سيشكل اهانة لسمعة القوات المسلحة اذ انهم تمكنوا من خرق الحواجز الأمنية كافة على الطرقات. صحيح أنّهم يرفعون أعلام الحزب وشعاراته على سياراتهم وصور رفعت الأسد ولكن هذا لا يغيّر من حقيقتهم، وهو أنّهم لصوص لا يجوز أبداً أن نسمح لهم بدخول دمشق وممارسة مهام التخريب والسلب التي كانوا يمارسونها سابقاً في بيروت عندما أطلقوا على أنفسهم «فرسان البعث» وهم خليط من سرايا الدفاع وعناصر علي عيد، وقد انسحبوا من بيروت إلى طرابلس الشام ولم يتصدّوا للقوات الاسرائيلية أثناء اجتياحها للعاصمة اللبنانية في صيف العام ١٩٨٢. لذلك فانّ قواتنا المسلحة الباسلة لا تحترمهم أبداً، بل تحتقرهم، وبعد ساعة ونصف الساعة تماماً اتصل اللواء شفيق فياض ليعلمني بنجاح المهمة وأنّ اللصوص أصبحوا رهن الاعتقال بعد أنْ تم تجريدهم من أسلحتهم وذخائرهم وسياراتهم، قلت للّواء شفيق: يجب أن يعاملوا باحتقار كما يعامل البدوي الجمل الأجرب، وكما يعامل الفلاحون الكلاب الشاردة. فقال: لا توص حريصاً فهم موضوعون في العناية الثورية المشددة. وسينالون عقاباً وضرباً شديداً على مؤخراتهم بعد رشّهم بخراطيم المياه، حتى لا ينسوا هذا الحدث في حياتهم. وتم احتجاز اللصوص شهراً ونيف ولم يطلق سراحهم الاّ بعد أن انتهت الأزمة وسافر العميد رفعت إلى موسكو.

<u>الطائفة المرشدية تعلن ولاءها للسيد الرئيس</u>

كان الرفيق محمد ابراهيم العلي قائد الجيش الشعبي قد وضع أوراقه مبكّراً مع العميد رفعت ولم يكن هذا الموضوع ذا قيمة اطلاقاً قُبيل الأزمة لأنّ كثيراً من المنافقين وبخاصة منتسبو «رابطة الدراسات العليا» كانوا يحومون حول العميد رفعت كما تحوم الغربان على بقايا الحيوان.

وكان من عادة الرفيق قائد الجيش الشعبي أنّه كثير التجوال متطلّع دائماً للجديد من الأخبار بعد ثورة الثامن من آذار (مارس)، ولم تزل هذه العادة تسكنه حتى الآن على الرغم من مرور أربعة عشر عاماً ونيّف على الحركة التصحيحية. وكان يمرُّ على مكتبي بمعدّل مرة واحدة في الأسبوع وكان يسأل دائماً عن أحوال الدنيا وكنت أطمئنه أنّها بخير وهي مازالت تدور وللأمانة التاريخية فانّ ضباط القيادة العامة لم يكونوا يقدّرون

الرفيق أبو ندى حقّ قدره ولم يكن في القيادة سوى الرئيس الأسد وأنا نعرف نضال محمد ابراهيم العلي وتضحياته في سبيل الحزب والثورة من حركة الضباط الأحرار في حلب إلى حركة ٢٣ شباط (فبراير) وكان هذا الموقف يؤلم الرفيق محمد ولذلك لم يكن يزورهم الاّ لماماً.

بعد الحدث الجلل أقفلت مكتبي في وجه قائد الجيش الشعبي، وطلب مقابلتي مرات عدّة وكنت أعتذر دائماً غير أنّه ألحّ على المقابلة فوافقت أخيراً. ولمّا حضر سألني مستغرباً هذا الموقف منه، وقلت له في مثل هذه الأمور لا توجد حلول وسط فامّا أن تكون مع الرئيس الأسد أو أن تكون في الجهة الأخرى: فقال: أنا مع الرئيس حافظ الأسد (شيله... بيله) وحتى أقطع الشك باليقين فانّني جاهز لكي آتي بأبناء سليمان مرشد من «حمص» ومن «جوبة البرغال» لمقابلة السيد الرئيس، فقلت له: وما أهميّة الطائفة المرشدية في الأزمة؟، قال لي: ألا تعلم أنّ العميد رفعت الأسد يعطي أهميّة خاصة لهذه الطائفة فبالاضافة لشراكته مع النور المضيء والمهندس فؤاد تقلا بالأعمال التجارية فانّ عدداً كبيراً من أبناء الطائفة انخرطوا في سرايا الدفاع تنفيذاً لتعليمات قيادتهم الروحية وهم يشكلون العمود الفقري لسرايا الدفاع ويأتي ترتيبهم بالأهمية بعد الشريحة العلوية مباشرة، قلت له توكّل على الله ويجب أن أسمع في القريب العاجل أخباراً طيّبة، فأجاب: لا قريب ولا بعيد غداً سوف يكونون خلال ساعات عدّة في القصر الجمهوري.

وصدق محمد ابراهيم العلي في وعده واستقبل الرئيس حافظ الأسد في مكتبه ابناء الطائفة وفي مقدّمتهم النور المضيء واستغرقت المقابلة ثلاث ساعات ونيّف وما تسرّب منها كان الآتي:

قال أولاد سليمان المرشد للسيد الرئيس: نحن لا يمكن أن نكرّس الخيانة كمبدأ للطائفة، ففي الماضي اتّهمنا الانكليز بأننا عملاء فرنسا، واليوم يتّهمنا الوطنيون القوميون في سورية بأننا عملاء اميركا نحن باختصار رجال حافظ الأسد وقد أحببنا أخاك رفعت لشعورنا بأنّه جناحك الأيمن أمّا وأنّه قد شقّ عصا الطاعة عليك فلا ولاية له علينا ونحن جاهزون منذ هذه اللحظة لأن نتسلم مهمة الحراسة على مكتبك أو بيتك، وكان جواب السيد الرئيس: لا لزوم لكلّ ذلك... المهم أن تُفهموا أبناء الطائفة بهذا التوجّه الجديد «واليوم قبل بُكرة».. وانصرف الاخوة الثلاثة من مكتب رئيس الجمهورية، وبطريقة تشبه السحر تم الاتصال بأبناء الطائفة كافة

وأخذوا جميعهم التّوجّه الجديد... وبدلاً من قلعة الأسرار التي لا تنتهك أصبحت سرايا الدفاع مثل الغربال يتسرّب منها كل ما يحدث فيها...

وشعر رفعت بالحدث واستدعى إلى مكتبه كبيرهم النور المضيء وبقي يتحاور معه زُهاء سبع ساعات لم يأخذ منه لا حقاً ولا باطلاً. وأخيراً قال له رفعت بعد أن سئم من المناقشة والمماحكة: أتعرف أنّك لن تكلّفني سوى رصاصة واحدة في رأسك! فأجابه النور المضيء أعرف ذلك ولكن هل تعرف أنّ الطلقة الثانية ستكون في رأسك أنت، ولمعلوماتك أنّ الحاجب الذي قدّم لنا القهوة والشاي الآن هو من عشيرتي أي باختصار هو مرشدي وليس علويا. هنا أنهى رفعت المناقشة على أمل اللقاء مرّة ثانية للمتابعة، ولكنّه بدا كمن أُصيب في مقتل... وطلب إلى المسؤول عن التوجيه السياسي في سرايا الدفاع بأن يُجري سبراً عشوائياً لمئة جندي مرشدي ويسألهم سؤالاً وحيداً: هل أنتم معي أم مع أخي الرئيس حافظ الأسد؟، وفي اليوم التالي صُعق رفعت الأسد عندما جاءه الجواب بأن نسبة المؤيّدين للرئيس الأسد مئة من مئة وليس تسعة وتسعين.

وبلغ الغضب أشدَّه لدى رفعت ومحازبيه وصمّم على أن ينتقم من الطائفة المرشدية وأمر عناصره بأن يفتشوا عنهم في كل مكان وفي أي تشكيل وجمعهم قرب قلعة «برقش» شمال غرب مدينة قطنا وقام بتجريدهم من أسلحتهم الفردية وأركبهم عربات نقل عسكرية كبيرة وقذفهم على الحدود السورية اللبنانية ـ الفلسطينية وفي مواجهة الجيش الاسرائيلي مباشرةً، ولم ترد اسرائيل على هذا الاجراء لأنّ الجنود الذين في مواجهتم شبه عراة وكان الوقت ليلاً. وعلى الفور أعلمت الرئيس الأسد بالأمر وأرسلت لكل واحد منهم بندقية ووحدة نارية مع كيس بحارة وتعيين عمليّاتي يكفي ثلاثة أيام... وطلبت إلى اللواء جميل حسن رئيس شعبة التنظيم والادارة أن يوزّعهم على وحدات الجيش كافة، من القامشلي إلى صلخد، وكان عددهم ثلاثة آلاف ومئتين وخمسة وعشرين ضابطاً وجندياً.

وخلال ثلاثة أيام تم تصفية ذيول هذه المشكلة، ولكنّ العميد رفعت كان قد أصيب بجرح بليغ، صحيح أنّ نسبة القوى والوسائط لم تكن في الأساس لصالحه لأنّ سرايا الدفاع كانت في ذروة الأزمة تعادل نحو أربعين ألف عسكري* بينما بقية وحدات الجيش نحو ٣٦٠ ألفاً ولكن خروج الطائفة

---

* **كان العدد الحقيقي لسرايا الدفاع حسب يومية الوحدة «كشف القوة الشهري» بتاريخ ١٩٨٤/٢/١٥ (٤٠٠٩٤).**

المرشدية منها بهذا الشكل زعزع كيانها وهزّ بنيانها. ومن هذا الموقف المتشكّل قرّر العميد رفعت أن يؤدّب أولاد سليمان المرشد في عقر دارهم أعني جوبة البرغال. فجهز لهذه المهمة كتيبة مغاوير وأركبها في سبع حافلات ووجّهها باتّجاه اللاذقية... وعندما علمت بهذا النبأ اتصلت برئيس فرع المخابرات العسكرية في اللاذقية العقيد أسامة سعيد وأعلمته بالأمر وقلت له عليك أن تومّن حماية النور المضيء بمفارز سريعة من عندك أو من الشرطة العسكرية واذا لزم الأمر يمكن أن تطلب العدد الذي تحتاجه من الجنود من قائد القوى البحرية فقال لي: سيدي لا نحتاج لأي مساعدة لأنّ نحو خمسمئة مسلّح من الطائفة المرشدية أصبحوا متواجدين في جوبة البرغال حول قصر أبناء سليمان المرشد، ومرّة ثانية تؤكّد الحقائق والوقائع أنّ أسلوب الاتصال لهذه الجماعة أرقى من أسلوب اتّصال أي مخابرات في العالم حتى بعد استخدامها لأقنية الاتصالات في الأقمار الاصطناعية.

وصلت طلائع سرايا الدفاع إلى جوبة البرغال فوجدت أنّ الحراسة كثيفة حول بيت سليمان المرشد وأنّ المعركة لن تكون في صالحهم أبداً، وبعد أن اتصلوا بالعميد رفعت طلب اليهم أن يهبطوا إلى الساحل ويتمركزوا في معسكر تلة الصنوبر التي تبعد عن اللاذقية إلى الجنوب بنحو سبعة كيلومترات. ولم يحتاج حلفاؤنا الجدد لأي دعم مادي أو عسكري. وبعودة الطائفة المرشدية إلى حمى الرئيس الأسد بدأت تتآكل سرايا الدفاع من الداخل ولم يعد لها تلك الهيبة التي كانت لها أيام زمان.

<u>محاولة فتح جبهة ثانية في اللاذقية</u>

كانت سرايا الدفاع تملك مركز تدريب لعناصر اللواء الجبلي في منطقة جوبة البرغال. واضافةً لذلك فقد احتلّ العميد رفعت تلة الصنوبر التي تقع على البحر مباشرة وكان يتمركز في هذه المنطقة كتيبة أو أكثر من أفواج الانزال الجوي، ولمّا أخفقت التدابير التي نفذّها العميد رفعت ضد الطائفة المرشدية أمر عناصره المرسلة من دمشق لهذه الغاية أن تتمركز في الموقع المذكور لتعزيزه ولأهميّته البالغة لقربه من مركز المحافظة وأعني بذلك مدينة اللاذقية.

ولمّا كان العميد رفعت يعتمد بشكل جدّي على أبناء الطائفة العلوية قرّر نقل الصراع إلى هناك لأنّ المنطقة حسّاسة وكان يتصوّر أنّه من الصعب على السيد الرئيس أنْ يأمر سلاح الطيران بقصف الأماكن التي ينشب

فيها النـزاع وكذلك الأمر بالنسبة للمدفعية والصواريخ ومن هذا الاحساس الخاطئ بدأت حركات رفعت تتعثّر خطوةً خطوة لأنّ ما بني على باطل فهو باطل... كان رفعت يدغدغ أحلام المتعصّبين طائفياً بأن وعدهم أنّه سيقيم الدولة العلوية هناك كما أقام اليهود الدولة العبرية في فلسطين، وكما كان غلاة المتعصبين من الموارنة يحلمون باقامة الدويلات الطائفية التي ستدور بفلك اسرائيل قولاً واحداً. وشجّع رفعت أنّ اميركا سوف ترحّب بالفكرة لأنّها مع أي تفكّك للأمة العربية لأنّ هذا يخدم مصالحها الوطنية ومصلحة حليفتها الاستراتيجية اسرائيل، ونسي العميد رفعت أنّ والده الراحل سليمان الأسد ـ رحمه الله ـ كان من أشدِّ المقاومين الشرسين لانشاء الدولة العلوية وكان في طليعة المناضلين الوطنيين في أواسط الثلاثينيات لمقاومة هذه الفكرة واجتثاثها من جذورها.

بدأ تحرّش العميد رفعت بالنّظام هناك بأن أوعز إلى أنصاره في اللاذقية بأن يكتبوا على الجدران عبارات تمجّد بشخصه دون غيره مثل (رفعت الأسد الشمس التي لا تغيب)، كما بدأوا بنصب الحواجز الطيّارة لاشعار المواطنين أنّهم موجودون بقوّة على الساحة في محافظتي الساحل (اللاذقية وطرطوس). واتصلت بالرئيس الأسد وأعطيته المعلومات المتوفرة لدينا عن نوايا العميد رفعت باللاذقية وانّه حاول السيطرة على مسقط رأس الرئيس الأسد حتى يقول للعالم: اذا كان أخي لا يستطيع السيطرة على المحافظة التي ولد فيها فهو بالأحرى غير قادر على السيطرة في باقي المحافظات...

كانت توجيهات القائد الأسد واضحة وضوح الشمس: لا مهادنة أبداً مع الخارجين على النظام، اضربهم اليوم قبل الغد لأننا كلّما تأخرنا بضربهم وتصفية الحسابات معهم كلّما ازدادوا شططاً في أعمالهم وتصرّفاتهم وتمادوا في ايذاء الناس والمواطنين وأعطوا العالم العربي والخارجي فكرة مغلوطة عن واقع الحال في سورية.

اتصلت بقائد القوى البحرية اللواء فضل حسين وقلت له: عليك أن تنذر المتمرّدين في معسكر سرايا الدفاع بالاستسلام خلال ساعة واحدة وبعد ذلك اذا لم يستجيبوا عليك أن تضربهم بالمدفعية الساحلية وأن تحرّك باتّجاههم كتيبة المشاة البحرية مدعومة بالفوج «٨٢٦» دبابات، كما طلبت اليه أن يحرك كاسحتي ألغام وستة زوارق صواريخ وأن يتم الرمي على المتمرّدين بالمدافع المضادة للطائرات (رمي مباشر) وأن يتم تقرب هذه القوات إلى الساحل لضربهم بقذائف الأعماق (المضادة للغواصات)

وبالأسلحة الرشاشة الثقيلة المضادة للطائرات والمركبّة على زوارق الصواريخ. وعندما لاحظتُ عليه امارات التردّد والخوف وعدم الحسمية أكدتُّ عليه بأنّني أعطي الأوامر نيابة عن القائد العام واذا كان غير قادر على تنفيذ المهمّة فنحن جاهزون لارسال فوج مغاوير (انزال جوّي) ليتكفّل بتصفية المتمردّين، وأعطيته الأمر أنّه بعد ساعة واحدة تنتهي مهلة الانذار وعليه أنْ يبدأ بقصف المعسكر بالمدفعية. وبعد ساعة من هذا الأمر اتصلت بقائد القوى البحرية وقلت له هل بدأت الرمي، فقال لي: لقد رشقناهم رشقة ونحن الآن نحصي خسائرهم.

وتيقّنت من لهجته أنّه كاذب* ومراوغ وغير جدّي في معالجة الموضوع... وخائف... قلت له: أين المقدّم علي خضّور قائد الفوج المدرّع؟. فقال لي: انه بجانبي... وطلبته على الهاتف وقلت له: اصعد بنفسك على أول دبابة في الفوج واطلب إلى الرماة أن يسددوا مدافعهم على العربات المصفّحة (ب.م.ب) التي يضعها المتمردّون على مدخل المعسكر وتدمّرها تماماً بصلية تركيز من سرية دبابات، أي أريد أن ترمي عشر دبابات بآن واحد، وكانت غايتي الأساسية احداث صدمة معنوية ضد القوى المناوئة.

وبعد دقائق نفّذ الأمر وتم تدمير ثلاث ناقلات وجرى اخلاء القتلى والجرحى، واستنجد العميد رفعت متوسّلاً الرئيس الأسد بأن نوقف النار لأنّه قرّر أن يُخلي المعسكر وينفّذ تعليمات القيادة العامة. وهكذا تم حسم المشكلة في المنطقة الساحلية وتم استرداد المعسكر وعادت العناصر التابعة لسرايا الدفاع إلى دمشق.

ولابدّ من اعلام القارئ بجوٍّ احدى المناقشات التي جرت في القيادة العامة بعد الاشتباك مباشرة، قال العماد حكمت الشهابي وأيّده في ذلك العماد علي أصلان: بعد أن رجع إلى حمص وطرابلس أكثر من خمسمئة سيارة أصبحت المشكلة مكشوفة للناس جميعاً ولا نستطيع بعد اليوم أن نتستر عليها.. وكان جوابي: لن تُقدم أيّ وكالة أنباء على اذاعة هذا الخبر اطلاقاً وذلك لسببين:

---

* **عندما انتهت الازمة وجة القائد رئيس الجمهورية بانهاء خدمات هذا الضابط من الجيش السوري و تم تعيين اللواء مصطفى طيارة قائدا لسلاح البحرية في نشرة ١٩٨٤/٧/١.**

الأول: أنّ وكالات الأنباء الغربية والموجّهة من اميركا لن تذيع النبأ لأنّه يبرز انتصار الرئيس الأسد وهم لا يرغبون بذلك.

الثاني : وكالات الأنباء التي تدور في فلك موسكو لن تذيع هي الأخرى هذا النبأ حتى لا تسبب لنا أي احراج لأنّنا نحن لم نقم باذاعته.

وصدقت نبوءتي ولم تقم أيّ وكالة أنباء أو صحافة أجنبية باذاعة هذا النبأ، بما في ذلك الصحف اللبنانية المحسوبة على الخط الاميركي.

تزامنات تدل على أنّ المعلّم واحد

كان من أبرز خصائص هذه الأزمة العاصفة أن يتزامن تصعيد الموقف العسكري من قبل العميد رفعت كلّما زارنا الرئيس اللبناني أمين الجميّل ومع أنّ السياسيين في لبنان بعامة لا يحبّون أبداً قطع شعرة معاوية مع اميركا ولكن المنتسبين منهم إلى حزب الكتائب اللبنانية وعلى رأسهم أمين الجميّل يعتبرون الولاء لاميركا قضية مقدّسة لا يعلو عليها شيء. ومع أنّهم يزعمون أنّ فرنسا هي أمّهم الحنون ولكنّهم كاذبون لأنّ عينهم دائماً على اميركا.. وخلال ثلاثة شهور ونيّف من عمر الأزمة زارنا الرئيس اللبناني ثلاث مرات ولم يحدث في تاريخ العلاقات المميزة مع أي دولة في العالم أن يقوم رئيسها بزيارة بلد آخر بمثل هذه الكثافة، وهذا ما يؤكّد أنّ الزيارات كانت تتم بايحاء وتوجيه من الادارة الاميركية، ولأنّ اميركا تعرف ما يدور في سرايا الدفاع عن طريق عميلها النقيب جوزيف صنصيل ولكنّها تجهل تماماً ما يجري في دائرة الرئيس الأسد، ومن هنا جاء الطلب إلى الرئيس أمين الجميّل بأن يشدَّ الرّحال إلى دمشق ليعرف ماذا يدور خلف الأكمة، وللأمانة التاريخية كان الرئيس اللبناني يعود إلى بيروت صفر اليدين لأنّ الرئيس الأسد يتمتّع بموهبة خارقة في اخفاء نواياه على خصومه. ومع أنّه لم يلعب «البوكر» ولا مرّة واحدة في حياته فانّ وجهه بالنسبة لمن يقابله وبخاصّة من المحسوبين على اميركا أو الدائرين في فلكها يبدو كوجه لاعب «البوكر» لا يمكن لأحد أن يأخذ منه شيئاً لا بحق ولا بباطل، وهكذا كانت التقارير ترسل إلى واشنطن وكلّها تشير إلى أنّ الرئيس الأسد في أحسن حالاته، وخاب فأل الادارة الاميركية وأهدافها الخبيثة.

الحلقة الرابعة: رفعت الأسد قال لرئيس جامعة دمشق أثناء الامتحانات: العمى في قلبكم ابعثوا لنا أستاذا يدلنا أين توجد أجوبة الأسئلة

ما كاد العميد رفعت الأسد يحصل على الاجازة في التاريخ في العام ١٩٧٤* حتى أسّس (رابطة خرّيجي الدراسات العليا) وأخذ موافقة وزارة العمل والشؤون الاجتماعية• على ذلك لكي يكون عمله تحت المظلّة القانونية، وأعطى تبريراً لعمله بأنّ مصلحة الرئيس الأسد أن يكون خريجو الدراسات العليا موالين للنظام على اعتبار أن شقيقه رفعت هو رأس الهرم في هذه الرابطة، وانتشر الخبر بسرعة البرق ولم يبق انتهازي أو متسلّق أو متطلّع إلى السلطة أو التقرّب من وهجها الاّ وانخرط في هذه الرابطة (كخرط الدب على العنب).

وتمّ توزيع السيارات والهدايا غير الرمزية على كبار المريدين والمسبّحين بحمد رئيس الرابطة وفضله، واختير السيد غسان شلهوب نائباً لرئيس الرابطة°.. وجاءت أحداث الاخوان المسلمين في نهاية السبعينات وأوائل الثمانينات لتعطي الدليل القاطع أنّ الرابطة لا وجود لها وأنّ هذا العدد الضخم كان كغثاء السيل أو حزمة من القش لا تغني عن الحق شيئاً.

---

* عندما كان العميد رفعت منتسبا إلى الجامعة (قسم التاريخ) شكا لي رئيس القسم الدكتور محمد خير فارس بان رفعت يأتي مع مفرزة من الحرس إلى الجامعة ايام الامتحان ولا احد يجرؤ من المراقبين ان يقول له شيئا فماذا افعل؟... قلت له: لا تفعل شيئا لانه لن يعمل لديكم استاذ تاريخ!... وما كاد رفعت ينهي الاجازة في التاريخ حتى سجل في كلية الحقوق هو وزوجته «لين» وابنه «دريد» وكانوا يقدمون الامتحان سوية في غرفة رئيس الجامعة «الدكتور زياد شويكي» حرصا على امن الطلاب وامن المعلومات، وعندما جاءتهم الاسئلة مع فناجين القهوة وكتب السنة الاولى قال لهم رفعت: العمى في قلبكم... ابعثوا لنا استاذا يدلنا اين توجد الاجوبة لهذه الاسئلة.

• تأسست الرابطة استنادا إلى الامر رقم (٩٨٥) تاريخ ١٩٧٤/٩/٢٦ وحلت استنادا إلى الامر رقم (١٢١٢) تاريخ ١٩٨٤/٩/١٠.

° كانت الدكتورة «لين الاسد» زوجة العميد رفعت هي النائب الاول وكانت القرارات التي تصدر بغياب «ابو دريد» وقرينته باطلة. ورغم ذلك قبل غسان شلهوب بهذه الوظيفة الشكلية.

وعندما حدثت الأزمة ظنّ أعضاء الرابطة بأنّ الوقت قد حان لقطف ثمار جهودهم فبدأوا يهاجمون جهراً الرئيس حافظ الأسد في مجالسهم الخاصة ويتّهمونه بالديكتاتورية، وأنّ العميد رفعت راعي الديموقراطية في هذا البلد وعقدوا مؤتمراً لهم في فندق «الشيراتون» حضره ما هبَّ ودبَّ (من الجنادب والخنافس والقراد*) . ولم تسعف القريحة العميد رفعت فبدأ حديثاً سياسيّاً مشوّشاً عن الديموقراطية والأوضاع العامة في سورية بحيث لا يمكن لأحد أنْ يفهم منه شيئاً حتى ولو حاول ذلك وبذل قصارى جهده وانفضّ المؤتمرون وهم في حيص بيص وأدركوا أنّ أيام الرابطة غدت قريبة وأنّ أحلامهم ذهبت أدراج الرياح لأنّ ما بني على باطل فهو باطل.

وعلى الرغم من ادراكي المسبق أنّ الرابطة أصبحت في حكم المنتهية فقد اتصلت بعدد من الأصدقاء المتورّطين بالانتساب إلى الرابطة وطلبت اليهم الانسحاب وبذلك قد أسهمت في تهديمها من الداخل والخارج.

وفي زحمة العمل على الاتّجاهات كافة اتّصل بي هاتفياً الرفيق وفيق عرنوس عضو الرابطة وقال لي: هل تضمن لي سلامتي؟.. فأجبته «بأنّي سوف أضمن لك عدم دخولك السجن اطلاقاً.. أمّا موضوع فصلك من الحزب فلا أستطيع أبداً أنْ أعد في ذلك»، ومقابل هذا الضمان وعدني بأنّه سيوافيني بالسجلات كافة الموجودة في الرابطة وأنْ يأتي بها إلى البيت حتى لا يشاهده أحد. وفي الساعة الواحدة ليلاً أعلمتني زوجتي بأنّ الأمانة وصلت.. قلت: أرسليها فوراً إلى المكتب وقضيت ليلةً كاملةً وأنا أراجع ملفّات رابطة خرّيجي الدراسات.

المهم أرسلت الوثائق إلى القصر الجمهوري فأمر السيد الرئيس بوضع رابطة خرّيجي الدراسات العليا تحت الرقابة المشدّدة. وبعد أن انتهت الأزمة، أصدرت القيادة القطرية قرارها رقم /٥٧٤/ تاريخ ١٩٨٤/٧/٥ طلبت فيه إلى الرفاق المنتسبين إلى الرابطة أنْ يتخلّوا عن هذا الالتزام ويكرّسوا كلّ نشاطهم السياسي للحزب وأنذر القرار بفصل كل رفيق يخالف هذا التوجيه، وبذلك اختفت من الساحة رابطة خرّيجي الدراسات العليا التي كان ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب.

---

* **قال الشاعر العربي «نديم محمد» يصف المنتسبين الى الاتحاد القومي ايام الوحدة: من هؤلاء؟... من الجنادب والخنافس والقراد.... ابهم بهم... تزهو وتنتصر البلاد.**

زيارة الوحدات والتشكيلات

بعد أنْ أصبحت القيادة العامة للقوات المسلحة في وضع آمن وكذلك القصر الجمهوري ومنـزل السيد الرئيس قرّرتُ أنْ أنطلق بزيارات ميدانية لأنواع وصنوف وتشكيلات قوّاتنا المسلّحة كافة، وكان يرافقني بهذه الزيارات العماد علي أصلان نائب رئيس الأركان. وفي كلمتي التوجيهية العامّة التي كان يحضرها الضباط وصف الضباط والجنود كنت أهاجم بقسوة الهيمنة الاميركية وعملاءَها في المنطقة ودعم اميركا غير المحدود للعدو الصهيوني وتحيّزها المكشوف له ومعاداة كل هدف يخدم مصلحة الأمة العربية. وكنت أنوّه بالمآثر القيادية للرئيس حافظ الأسد ودوره في بناء سورية الحديثة وحرب تشرين (اكتوبر) وحرب الاستنـزاف والحرب التي خضناها ببسالة منذ أقل من عامين للدفاع عن استقلال لبنان ليبقى دائماً عربيّ الوجه واليد واللسان، كما كنت أشيد بالدور الوطني الذي لعبته المقاومة اللبنانية ضد الجيش الاسرائيلي وضد الجيوش الأجنبية التي جاءت لتشدّ من أزرِ اسرائيل ضد أمّتنا العربية، وكانت هذه الكلمات تلاقي صدىً ايجابياً لدى المستمعين كافّة.

وفي اللقاءات الخاصة مع الضباط حتى مستوى قائد كتيبة كنت أضعهم في صورة المؤامرة كاملةً وأسمّي الأسماء على المكشوف بصراحتي المعهودة، وفي نهاية الجولة كان التشكيل الذي أزوره يقدّم لي وثيقة عهد بالدم ولاءً للسيد الرئيس.

وكانت أخبار اللقاءات تصل للسيد الرئيس حافظ الأسد سواء عن طريق القنوات الرسمية أو الخاصة، وكان سعيداً بالنتائج وأنّ الجولات بدأت تعطي ثمارها ميدانياً وقد سحبت البساط من تحت أقدام رفعت ولم يعد أحد في القوات المسلحة ينخدع بأنّه الحارس الأمين لشقيقه سيادة الرئيس، وسألني القائد الأسد فيما اذا كنت أقوم بهذه الجولات يوميّاً، واعترفت للرفيق الأمين العام للحزب بأنّ العماد مصطفى طلاس لم يعد مثل المقدّم طلاس أيام زمان عندما كان يفلح الأرض شرقاً وغرباً في أوائل ثورة الثامن من آذار (مارس) وابّان الحركة التصحيحية وفي أيام الاعداد لحرب تشرين المجيدة!. فقال: اذن كيف تبرمج وتيرة العمل؟.. فأجبت أقوم بزيارة التشكيلات يوماً وأرتاح في العمل المكتبي يوماً آخر، فقال: هذا جيد تابع العمل على الوتيرة نفسها والنّهج ذاته.

وكان موعد السابع عشر من نيسان (ابريل) ١٩٨٤ مكرّساً للقاء مع الفرقة الخامسة في موقع ازرع، وطلبت إلى قائد الفرقة اللواء أحمد عبد النبي أنْ يدعو قيادة الفرع في درعا وأمناء الشعب الحزبية كما يدعو الوجهاء والمثقفين والمخاتير وزعماء العشائر كافة في حوران لأنّ السابع عشر من نيسان (ابريل) هو عيد وطني لشرائح المجتمع كافة ويجب أنْ يعكس الاحتفال هذه الحقيقة، ولبّى المدعوون جميعاً الدعوة وازدان المكان بصور الرئيس حافظ الأسد وأعلام الحزب وأعلام الجمهورية غير أنّ أمين الفرع أحمد زنبوعة، والمحافظ محمد مصطفى ميرو اعتذرا عن الحضور بحجّة أنّ لديهم جولة حزبية في وادي اليرموك، قلت لقائد الفرقة: ألم تقل لهم إنّني قادم إلى المحافظة بتوجيه من السيد رئيس الجمهورية حافظ الأسد وإنّ اللقاء رسمي وليس جولة عسكرية أو حزبية، فقال: والله لقد قلت لهم ذلك ولكنّهما آثرا التملّص لسبب ما أجهله، فقلت له: انّهما من المنافقين المرتبطين مع العميد رفعت الأسد وسوف أجعلهما يدفعان ثمن الهروب مهما طال الزمن*.

علم العميد رفعت الأسد بهذه الزيارات الميدانية فحاول أنْ يستبق الموضوع وبعث إلى سيادة الرئيس عهداً كاذباً بالدم من سرايا الدفاع ولكن الكلام الذي يخرج من القلب يدخل إلى القلب أمّا الكلام الذي يخرج من اللسان فلا يكاد يتجاوز الآذان ومن هذا المنطلق لم يجد (عهد النّفاق بالدم) الذي أرسله العميد رفعت أي صدىً لدى سيادة الرئيس.

وبعد اثنتين وستين جولة ميدانية في المناطق العسكرية كافة وتشكيلات قوّاتنا المسلّحة بأنواعها وصنوفها تمّت صياغة كتاب (عهد بالدم) الذي قدّمته لسيادة الرئيس في عيد ميلادي الثاني والخمسين أي في ١٩٨٤/٥/١١. وكانت المقدّمة التي تصدّرت وثائق العهد بالدم من أروع ما كتبت في النواحي السياسية والقومية. ولذلك رأيت أنْ أذكرها تفصيلاً

---

* قمت برد الجميل لهذين الرفيقين اثناء الانتخابات للمؤتمر القطري الثامن التي جرت في خريف العام ١٩٨٤ وكلفت اللواء عدنان بدر حسن ان يتابع الموضوع، ورشح المذكوران نفسيهما في شعبة الصنمين هروبا من المواجهة في مركز المحافظة (درعا)، ولم يعلما ان ايدينا واصلة لانحاء سورية كافة في الحزب والسلطة، وما هي الا جولة انتخابات واحدة حتى تهاوى الرفيقان ساقطين على الارض مثل المشمش الكلابي وخرج الرفاق المقترعون من الشعبة واصطفوا حلقة دبكة فرح وكأنهم في عرس وطني، اما الرفيقان الساقطان على دروب النضال فقد خرجا وهما مطأطئي الرأسين وعلى محيا كل منهما ترتسم كل معاني الهزيمة والخيبة والاعتراف بالذنب، وقد تأكد لي بعد ذلك ان الرفيق (ميرو) كان ضحية (زنبوعة) الذي اوحى له بان الاخوة لن يتقاتلوا خلينا على الحياد. وبعد عتاب رقيق للاخ ابو مصطفى قلت له: صافي يا لبن خلي كل اوراقك مع الرئيس حافظ الاسد.

في نهاية هذا الفصل ليعيش معي القارئ الأجواء التي كانت تدور فيها لعبة الصراع على السلطة.

يوم الجمعة الحزينة

في الساعة الخامسة بعد الظهر اتصل اللواء علي حيدر من مقرّه في معسكرات القابون وأبلغني بأنّ المعلومات المتوافرة لديه أنّ سرايا الدفاع بدأت بالتحرّك من بين أشجار الزيتون باتجاه دمشق، وبعد لحظات اتصل العميد عدنان الأسد قائد سرايا الصراع ضد الدبابات وقال إن سرايا الدفاع تحرّكت باتجاه دمشق وانّه يراها من معسكر «المعضّميّة» بالعين المجرّدة، كما أعلمت مفارز المخابرات العسكرية المنتشرة على محاور الطرق كافة المتّجهة إلى دمشق بهذا التحرّك، وهتفت إلى الرئيس الأسد وأعلمته بالأمر وبعد أقل من دقيقة هتف الرئيس الأسد وقال لي: لقد اتصلت بالعميد رفعت وأكّد لي أنّ المعلومات التي أعلموك بها كاذبة ولا أساس لها من الصحّة. وقلت للرئيس الأسد انّني على يقين كامل بأنّ العميد رفعت قد أمر عناصره بالتحرّك وهو يريد أنْ يكسب الوقت، وقال لي: سأتّصل من جديد وأعلمك. وبعد خمس دقائق لم يتّصل وانّما اتصل العميد عدنان مخلوف قائد الحرس الجمهوري وقال إن السيد الرئيس قد توجّه بمفرده إلى مقر شقيقه رفعت الأسد (في ضواحي المزّة) وأعطاه التوجيه التالي: اذا لم أعد بعد ساعة من الآن قل للعماد طلاس أنْ ينفّذ الخطّة وعليك في الوقت نفسه أنْ تعطي التعليمات لقادة الفرق ألا ينفّذوا أيّ أمرٍ الاّ اذا كان صادراً عن العماد طلاس.

كانت الساعة التي غاب فيها الأسد عن عرينه تعادل دهراً بكامله (وأنّ يوماً عند ربّك كألف سنة ممّا تعدّون) (سورة الحج الاية ٤٧) كانت القيادة تعيش على أعصابها وكذلك قادة التشكيلات الضاربة لأنّ المعركة ستكون ضارية ولا أحد منّا يريد أنْ يصاب مواطن بريء بأذى، وكان العميد رفعت يطبّق تكتيكات صديقه ياسر عرفات (أبو عمار) لأنّ من عادة المذكور الاختباء بين المدنيين حتى لا تطاله الضربة مباشرةً. وجاءنا الفرج قبل خمس دقائق من الموعد المحدد لتنفيذ الخطّة، فقد تمكّن الأسد بحكمته وشجاعته وحنكته من أنْ ينزع فتيل الأزمة وتمّ سحب الدبابات من المواقع التي وصلت اليها في جنوب وشمال دمشق. وحتى يعيش القارئ في جوّ الأحداث سأروي له ما جرى في تلك الجمعة الحزينة.

اتّفق الرئيس الأسد مع شقيقه رفعت على أنْ ينتظره رفعت في نهاية طريق «أوتستراد المزّة» ومن هذه النقطة توجّها إلى الطريق المحلّق الذي يؤدّي إلى المطار وإلى دوّار «كفر سوسة». وفي دوار «كفر سوسة» ترجل الرئيس وشقيقه وقال له: انظر بعينيك إلى الدبابات التي كنت تزعم أنها لم تتحرك وطلب الرئيس الأسد إلى قائد السرية الملازم أول معين بدران أن يعيد الدبابات إلى مكان تمركزها، ولكن قائد السرية بقي في مكانه متجاهلاً أوامر سيادة الرئيس وكأنه آخذ سيجارة حشيش: وكان رفعت مسروراً من هذا المنظر لكي يوحي إلى السيد الرئيس بأن الأمور خرجت من يده و أنه غير قادر على لجم اندفاع الضباط وحماستهم في مؤازرته للاستيلاء على السلطة، هنا خرج الرئيس الأسد عن هدوئه المعهود وقال لقائد السرية بصوت قصم ظهره: أنا قلت لك أرجع الدبابات يعني أرجع الدبابات إلى أماكنها فوراً، عندها صعد العميد رفعت بحركة مسرحيّة على ظهر الدبابة وصفع الملازم معين كفاً على خدّه قائلاً له نفّذ أوامر الرئيس هل أنت أطرش لا تسمع*. وعادت الدبابات إلى أماكنها وعاد الرئيس الأسد والعميد رفعت كلّ إلى مقر قيادته. وهكذا انزاحت الغيمة السوداء عن صدورنا، وعن صدر الوطن.

خطة القيادة في مجابهة سرايا الدفاع

لم نضع خطّة عمليّاتيّة لمجابهة المشكلة التي نواجهها لسبب بسيط وهو اختلال ميزان القوى وميلانه بشكلٍ راجح إلى جانب الرئيس حافظ الأسد، وكانت سرايا الدفاع تعادل واحدا إلى عشرة بالنسبة لقوّة الجيش البريّة بالاضافة إلى سلاح الطيران وقوات الدفاع الجوي وسلاح المدفعية والصواريخ والاستطلاع والهندسة والتسليح، ووحدات وتشكيلات القيادة العامة كافة هي مع الرئيس الأسد حُكماً واذا كان هناك بعض الخروقات فقد انقلب المنافقون على أعقابهم بمجرّد الاعلان أنّ رفعت الأسد أصبح مناهضاً للنظام وقد سُحِبت عنه مظلّة أخيه الرئيس حافظ الأسد وغدا بمفرده يحيط به بعض أصحاب المصالح مثل محمد حيدر نائب رئيس مجلس الوزراء السابق، والعماد ناجي جميل رئيس مكتب الأمن القومي والقوى الجويّة السابق، وحفنة من المرتزقة تذكّرنا بقول الشاعر سليمان

---

* في الليلة نفسها ارسل العميد رفعت الى قائد السرية المذكور مبلغ عشرين الف ليرة (تعادل خمسة الاف دولار في ذلك الحين) كترضية عن الكف الذي صفعه اياه. ولما مات هذا الضابط بعد سبع سنوات من الحادثة رثاه العميد رفعت بكتاب يدل على عمق ارتباطه به.

العيسى يصف جماهير المنافقين والانبطاحيين والامعات من الاتحاد القومي في حلب الذين هرعوا إلى المطار وتزاحموا مثل الكلاب على الطريدة الميتة ولم يتركوا مجالاً للمثقفين وأصحاب الشأن للقيام بواجبهم.والتفت شاعرنا وقد أضاع «شاروخه» في الزحمة إلى زميله المقدّم مروان السباعي المسؤول الأمني في المنطقة الشمالية وقال له:
«وحولك «رَكَّةٌ» تدعى اتّحاداً فَخُذْ نعلاً ودق بها وآجر».

ومع كل هذه الحقائق والتوضيحات فقد وضعنا تصوّراً لمجابهة التمرّد على الشكل التالي:

لدى تحرّك وحدات سرايا الدفاع لاحتلال الأهداف الرئيسية في مدينة دمشق يقوم سلاح الطيران بتوجيه ضربة كثيفة بالقنابل الارتجاجية والصواريخ المضادة للدبابات مدّتها ثلاثون دقيقة. بعد ذلك تقوم صواريخ أرض ـ أرض بتوجيه ضربة نارية إلى مواقع الخصم وفي الوقت نفسه تقوم طائرات «الغازيل» والـ «مي ٢٥» التي تحمل صواريخ «جو ـ أرض» بالتحليق فوق التشكيلات المناوئة لضرب أي تحرّك!. كما تقوم بالمهمة نفسها وحدات سرايا الصراع ضد الدبابات واللواء «٦٥» (احتياط القيادة العامة المضاد للدبابات).

في اللحظة نفسها ومع بداية الضربة الجوية يكون الرئيس الأسد والعماد رئيس الأركان ونائب رئيس الأركان لشؤون العمليات والتدريب وعدد من الضباط الأمراء والمساعدين من الاختصاصات كافة قد غادروا دمشق إلى موقع قيادة تبادلي في معسكرات الجلاء (الكسوة)، ويبقى اللواء «٩١» دبابات كحراسة مباشرة لمقر القيادة بينما تتوجّه بقية ألوية الفرقة لتشتبك مباشرة مع ما تبقّى من سرايا الدفاع في معسكر «المعضّميّة»، وتكون الفرقة التاسعة نسقاً ثانياً للفرقة الأولى لمتابعة مهمّتها اذا لزم الأمر..

كما تقوم الفرقة الثالثة بالاستيلاء على مقرّات وحدات سرايا الدفاع في موقع «يعفور»، وكان موقع تمركزها الميداني في وادي القرن يساعدها على انجاز المهمة وتكون الفرقة السابعة كاحتياط للفرقة الثالثة اذا لزم الأمر.

وتم الاتفاق على أنْ أظلَّ في مقر القيادة الرئيسي ومعي رئيس هيئة العمليات وقائد القوى الجوية وقائد الدفاع الجوي ورؤساء الهيئات التي لها علاقة بالتأمين القتالي (المادي والفني والطبي).

كان قادة التشكيلات يحثّونني على اقناع الرئيس الأسد بتنفيذ الخطة وكذلك أجهزة القيادة العامة جميعاً، وكان أكثر المتحمّسين العماد حكمت الشهابي والعماد أصلان واللواء علي دوبا وقادة الفرق كافة، وكنت أقول لهم: لقد كلّمت الرئيس ثلاث مرّات حول الموضوع وكان جوابه الوحيد: أبو فراس اتركوا لي هذا الموضوع فأنا أعالجه بحكمة وعلى نارٍ هادئة، يجب أن تظلّوا في حالة الجاهزية الكاملة وعيونكم مفتوحة.. فقلت له: انّ أعصاب الرفاق محروقة. فقال: أعطيهم مهدّئات، وكنت أنقل للرفاق في القيادة والتشكيلات المقاتلة توجيهات السيد الرئيس، ومع ذلك كانوا يلحّون عليّ يومياً ويقولون: متى نبدأ؟، وكنت أجيب ظلّوا هكذا والاصبع على الزناد، على أنّ ضغط ضباط القيادة والتشكيلات كان بكفّة وضغط زوجتي أم فراس كان بكفّة ثانية، فزوجتي بطبعها محروقة ولذلك كل يوم وعبر القناة الهاتفية تطالبني بالحسم وكان جوابي دائماً اتركي لنا هذا الموضوع، ولكنّها لم تيأس فكانت دائماً تلجأ إلى ولديَّ (فراس ومناف) لكي يعزفا على اللحن نفسه ولكن النتيجة كانت واحدة في جميع الحالات. ولم تهدأ الأعصاب وتستقر النفوس الاّ بعد أنْ بدأت المفاوضات الجديّة بين الرئيس الأسد وشقيقه الأصغر لحلِّ الأزمة.

فشل كمين مطعم العندليب

كان قادة الفرق والتشكيلات يتكلّمون مع العميد رفعت الأسد بقصد اخافته وارهابه بأنّ أي تحرّك معاد ضد الرئيس الأسد سوف يجابه بالقوة، وكانوا ينقلون ردود فعله إلى سيادة الرئيس أولاً ثم إلى القيادة العامة ثانياً، وفي احدى المرات، قال له اللواء ابراهيم صافي قائد الفرقة المدرعة الأولى : أخي أبو دريد شو رأيك بأنْ أدعوك إلى الغداء في مطعم العندليب وهناك تلتقي مع قادة الفرق وتحدّثهم بنفسك عن أسباب الأزمة الناشبة بينك وبين سيادة الرئيس دون مراسلين؟، وكان جواب العميد رفعت بالموافقة وتم تحديد التوقيت الساعة الثانية بعد الظهر.

أعلمني اللواء ابراهيم صافي بذلك وقال لي لقد وضعت الرئيس الأسد بالصورة وكذلك العماد حكمت واللواء علي دوبا. والشباب محضّرون وجاهزون لاعتقاله مع مرافقته.

اتّصلت بالرئيس الأسد وقلت له: اذا رفض العميد رفعت الاستسلام وأصرّ على المقاومة، ماذا نفعل؟. فأجاب: انّها شريعة الحرب امّا غالب وامّا مغلوب وأنا لا أريدك الاّ غالباً.

جاء نهار الغد ونحن ننتظر ساعة الصفر، ولكن العميد رفعت كان حذراً مثل القاق الأسود* فلم يحضر إلى المكان المذكور وأرسل بدلاً منه ست عربات (G.M.C) بيك آب مزوّدة بزجاج دخاني تسمح لمن بداخلها فقط بأنْ يرى ولا يُرى، وهي مملوءة بالعناصر المرقطة والمبرقعة.

وبدلاً من أنْ تتوقف أخذت تمرّ من أمام المطعم لتقول نحن جئنا حسب الموعد، فماذا تنتظرون؟، وسألني اللواء صافي ماذا نفعل؟. فأجبته: اتركهم وشأنهم وسيعودون إلى وكرهم اذا أبديتم عدم اهتمامكم. وأعلمت الرئيس الأسد بالأمر، فقال: حسناً تصرّفت.

مآثر لا تُنسى

وقبل أنْ أنهي هذا الحديث لابدّ لي أنْ أتكلّم عن بعض المآثر التي نفّذها ضباط وصف ضباط وجنود من رجال جيشنا ومواطنون أثناء الأزمة ليكون ذلك عبرةً للأجيال القادمة.

ـ عندما جدّ الجد وتبيّن للعالم كلّه أنّ العميد رفعت الأسد ليس الحامي لشقيقه الأكبر وانّما الطامع في السلطة دونما وجه حق، هرب عدد من ضباط سرايا الدفاع وانضمّوا إلى قواتنا وكان في مقدمهم العقيد علي ديب، حيث التحق بالفرقة الثالثة المدرّعة (وذلك لقرابة بينه وبين قائد الفرقة اللواء شفيق فياض) كما التحق عدد من من ابناء بلدتي «الرستن» بمكتبي وأبقيتهم في مفرزة الحراسة حتى نهاية الأزمة.

ـ ورغم حرص الأم على أولادها فانّ زوجتي لم تمنع ولدينا (فراس ومناف) من حمل السلاح الفردي والمبيت في مبنى القيادة العامة كحرس مباشر لأمني القريب مع أنّني أكثر الناس ايماناً بالقضاء والقدر وأنّ صاحب العمر الطويل لا تقتله المصائب، ومع ذلك عندما أتذكّر هذه المآثرة تعود بي الذاكرة إلى أيام العرب الأولى كيف كانت القبيلة طرفاً واحداً كالبنيان المرصوص يشدُّ بعضه بعضاً.

*** يرى العماد حكمت الشهابي ان اللواء شفيق فياض قائد الفرقة الثالثة نصح العميد رفعت بعدم تلبية الدعوة حقنا للدماء ولاعتقاده الجازم بان رفعت سوف يستسلم من تلقاء نفسه فلماذا العجلة لاسيما وكانت هناك اخبار مصاهرة بين علاء فياض ابن اللواء شفيق وابنة العميد رفعت «تماضر الاسد».**

- قام عدد من صف الضباط في سرايا الدفاع بنزع ابر مدافع دباباتهم من كتلة المغلاق ووضعوها في سلّة وقدموها هدية شخصية لسيادة الرئيس، وهذا ما أعطانا الاطمئنان بأنّ جاهزيّة الدبابات في سرايا الدفاع قد هبطت إلى النصف بعد هذه العملية الجريئة والمفاجئة والتي تستحقُّ كلَّ تكريم.

- كان التفاف المواطنين بفئاتهم كافة حول القائد الأسد ذا معنى كبير جعل معسكر الخصوم في (حيص بيص) لا يدرون ماذا يفعلون وكان كلّ يوم يمضي تزداد قوّتنا وتتضاءل قواهم حتى وصلوا إلى حد القناعة المطلقة بأنّ أي صِدام بين الطرفين سيكون وبالاً عليهم لا محالة.

حقّاً انّ شعبنا العربي السوري من أفضل شعوب الأرض قاطبةً والشعوب والأمم لا تُعرفُ الاّ عند الشدائد، وقد أثبت شعبنا جدارته بالحياة والمجد حين تعلّق بالرئيس الأسد وترك المغريات الأخرى كافة التي طرحها الطرف الآخر ومن جملتها الانفتاح الاقتصادي.

أجل لقد جاء الانفتاح الاقتصادي ولكن في عهد الرئيس الأسد جاء لمصلحة الشعب كلّه، ولو تمّ في عهد سواه لكان نصيب القطط السمان هو نصيب الأسد ونصيب الشعب كلّ الفُتات الذي لا يُسمن ولا يُغني عن جوع.

الحلقة الخامسة: رفعت الأسد قال لأخيه حافظ في جلسة المصالحة: أقسم بالله لولا مصطفى طلاس كل جماعتك في الأركان لا يساوون فرنك

لعب الرفيق محمد حيدر دوراً قذراً في هذه الأزمة على الرغم من دماثته الشخصية وخفّة دمه الظاهرة، وكان موعوداً أنْ يعود كنائب لرئيس الوزراء للشؤون الاقتصادية مع تشغيل الشفّاطة (هوفر) إلى الحد الأقصى وبعد ذلك تتم المقاسمة حيث يأخذ أبو اياد ٥ في المئة وأبو دريد ٩٥ في المئة ولذلك فقد التصق بالعميد رفعت منذ بداية الأزمة وكان يغريه بالاقدام على تسلّم السلطة لقناعته الذاتية بأنّه في حال فشل رفعت فانّ الرئيس الأسد لا يمكن أنْ يبطش بأخيه، ومن هذا المنطلق وهذه القناعة الراسخة تمادى المذكور في غيّه وغَدَا ينفخ في نار الفتنة. وما كان يدري أنّ نظريته خطأ من أساسها وأنّ النار التي حاول اشعالها كانت ستكوي جلده وجلود من حوله.

وبالاضافة إلى الرفيق محمد حيدر فانّ الرفيق ناجي جميل قد دخل أيضاً على الخط وأصبح من مريدي العميد رفعت ومن المطبّلين والمزمّرين له مع أنّه أسقطه في انتخابات العام ١٩٧٦ مع الرفيق محمود الأيوبي.. وحتى يحفظ العماد ناجي خط الرجعة فقد كان يتّصل من حين إلى آخر بالرئيس الأسد ليوحي له بأنّه يلعب دور حمامة السلام بين الأخوين ولم يَدُرْ في خلده أنّ شياطين الأرض و السماء لا تستطيع أنْ تضحك على الرئيس الأسد.. وفهم الرئيس غايته وكان يستمع اليه ويوحي له بآنٍ معاً أنه يقدّر هذا الدور الذي يقوم به. ووعد العميد رفعت في بداية الازمة العماد ناجي جميل بتسليمه رئاسة مجلس الوزراء، ومن هذه الزاوية كانت حماية «أبوعامر» شديدة للغاية لأن تسلمه للمنصب الكبير يعيد اليه اعتباره الذي فقد عندما أقاله الرئيس الأسد من قيادة القوى الجوية ومكتب الأمن القومي في وقت سابق.

وفي ١٩٨٤/٨/١ شرب الرفيق عبد الله الأحمر حليب السباع وقرّر أنْ يمسح الأرض بمحمد حيدر وناجي جميل وسهيل السهيل (من القطر العراقي) فدعا إلى اجتماع طارئ للقيادة القومية وطلب من الرفاق المجتمعين اتخاذ القرار بوقف ممارستهم العمل السياسي والحزبي حتى يُشعر المتمرّدين على شرعية الحزب بأنّ العصا طويلة ومرنة. وشعر المجتمعون بأنّ هناك ضوءاً أخضر لعبد الله الأحمر، فاتّخذ القرار

بالاجماع و كان هذا مؤشرا بارزا للحزب وللرأي العام في سورية أنّ مَنْ يلعب بذيله من الرفاق فانّ القيادة ستكون له بالمرصاد.

بالاضافة إلى ما ذكر سابقاً، كان هناك رفيق ثالث لعب دوراً ايجابياً لصالح الرئيس الأسد هو العميد عزّ الدين ادريس فقد كان هذا الرجل يؤمن ايماناً راسخاً بأحقيّة الرئيس الأسد بالسلطة وأنّ شقيقه رفعت لا يستحقّها ولذلك فقد لعب دور المنظّر والمحاور والفيلسوف والناصح وأخذ يلعب بأفكار رفعت ويخيفه من مغبّة استمراره في الطريق الخطأ، وكان يتلقى التوجيهات بين الحين والآخر من السيد الرئيس لكي يتقن دوره في اللعبة، ونجح هذا الضابط في أداء مهمّته على الوجه الأكمل ويجب أنْ نعترف له بأنّه جنّب دمشق كارثة لا حدود لها كما جنّب رفعت وسرايا الدفاع من التدمير الشامل والفناء الكامل. ووجه الرئيس حافظ الأسد ادارة شؤون الضباط بترقية هذا الضابط إلى رتبة لواء في نشرة ١٩٨٤/٧/١ بغض النظر عن المنصب الذي يشغله.

بداية المفاوضات الطويلة

في أواخر نيسان (ابريل) من العام ١٩٨٤ بدأ العميد رفعت يشعر بأنّ ميزان القوى قد مال لصالح شقيقه الرئيس الأسد لدرجة لم تعد تسمح له بالحركة اطلاقاً فاتصل بشقيقه جميل الأسد ليمهّد له المصالحة مع أخيه وأنّه جاهز لأي عمل يرتأيه.. وكان الرئيس الأسد ينتظر بفارغ الصبر انهيار رفعت ورضوخه إلى السلطة، ونجح الرئيس في لعبة عضّ الأصابع. ومن هذا المنطلق أعلم شقيقه جميل بالموافقة على طلب قائد سرايا الدفاع، وبدأت المفاوضات الصعبة. ومع أنّ الرئيس الأسد مقيّم دوليّاً وعربياً أنّه سيّد مَنْ أتقن فنَّ هذه اللعبة، ولكن في الطرف الآخر هناك أيضاً سيّد مَنْ ابتزّ أخيه وغير أخيه وبعد أنْ وافق على الخروج من سورية ثم العودة عندما تهدأ الأمور بدأ يساوم على المبلغ الذي يحتاج اليه للاقامة شهور عدة خارج البلاد حتى تهدأ العاصفة. فقد طلب مبلغاً كبيراً من المال بالقطع النادر لم يكن متوافراً في المصرف المركزي لأنّ الدنيا كما يقول المثل السائد وجوه وأعتاب ونواصٍ كان العرب يقولون: اطلبوا الخير من صباح الوجوه. كما كانوا يتفاءلون أو يتشاءمون من الزوجة والمنزل ونواصي الخيل. فمنذ أنْ تسلّم الدكتور عبد الرؤوف الكسم رئاسة الوزارة فقد خيّمت غمامة من الشؤم على سورية لا مثيل لها.. فمرض الرئيس حافظ الأسد مع أنّ بنيانه الجسمي متماسك لدرجة تقترب من حدّ الأسطورة، ومات خمسة وزراء في عهده، وأصبح المصرف المركزي

خاوياً حتى من الفئران كي لا أقول من الدولارات.. وسُدّتْ منافذ الرزق في وجوه المؤسّسات والأفراد وسائر العباد وبدأ الناس في سورية يتساءلون متى ينزاح ظلّ هذا الغراب عن الرقاب.. المهم فكّر الرئيس الأسد من أين يأتي بالمال اللازم لاشباع فم أخيه رفعت.. وارتأى أنّ الرئيس معمّر القذّافي يمكن أنْ يكون الشخص الذي يحلُّ هذه المشكلة فأرسل كتاباً خاصّاً إلى قائد ثورة الفاتح من أيلول (سبتمبر) مع اللواء محمد الخولي رئيس ادارة المخابرات الجوية، وعندما وصل إلى طرابلس الغرب كان القذّافي والحمد لله بمزاج حَسَن وتذكّر مواقف الأسد القومية في دعم ومؤازرة الثورة الليبية وردّ على رسالة الأسد ردّاً جميلاً وتمّ تحويل المبلغ بكامله إلى المصرف المركزي وأعطى الرئيس الأسد شقيقه جزءاً منه وبقي الجزء الأكبر احتياطاً للطوارئ الاقتصادية التي كانت تعصف بنا وما كان أكثرها.

وتمّ الاتفاق على أنْ تعود سرايا الدفاع لتوضع بتصرّف هيئة العمليات في القوات المسلّحة، وتمّ تشذيبها بحيث بقيت في حدود ملاك الفرقة المدرّعة زائد كتيبة دبابات مستقلّة. كما تمّ الاتفاق على أنْ يبقى الفوج ٥٥٥ بتصرّف العميد رفعت كنائب لرئيس الجمهورية مسؤولاً (نظريّاً) عن شؤون الأمن لم يكن رفعت الأسد موفقا في إلحاحه على شقيقه أن يكون نائبا له لشؤون الأمن وهو يعلم علم اليقين ان الرئيس الأسد لو كان يثق به لوافقه على طلبه في ان يكون نائبا للقائد العام ووزيرا للدفاع والذي من أجله اصطنع الأزمة وكان جواب الأسد لشقيقه: أنا مرتاح للصيغة القائمة حاليا والعماد مصطفى طلاس يستوعب بحكمته الضباط كافة ولكن قل لي انت بعد وزارة الدفاع ماهي طلباتك التي لا تنتهي.. لأنّ الرئيس الأسد أحرص من أنْ يسلّم أمنه الشخصي وأمن البلاد لرجل لا يتّقي الله لا بوطنه ولا بأهله..

كما تمّ الاتفاق على أنْ يسافر معه إلى موسكو اثنان من الضباط الأمراء طلبهما العميد رفعت شخصياً وهما اللواء شفيق فياض واللواء علي حيدر كما سافر معهم اللواء محمد الخولي وكان ذلك بطلب خاص من العميد رفعت حتى يطمئنّ إلى أنّ الطائرة لن تنفجر بعد اقلاعها بالجو. وصدر أمر الايفاد بتاريخ ١٩٨٤/٥/٢٨ وسافر العماد ناجي جميل مع حاشية العميد رفعت.

وظلّ الرفاق قرابة شهر في موسكو. وكان العميد رفعت ومجموعته قد ودّعوا موسكو بعد سلسلة من المقابلات البروتوكولية الشكلية مع

المسؤولين السوفيات، وبهذه المناسبة لابدّ من شهادة حق للتاريخ فقد كان موقف أصدقائنا في موسكو مع الرئيس الأسد قولاً واحداً وكلفوا رسميّاً مستشار قائد الوحدة /٥٦٩/ (سرايا الدفاع) بأنْ ينقل اليّ عن طريق كبير المستشارين الجنرال «غوردينكو» معلومات عن الحالة النفسية للعميد رفعت وضبّاطه، وكنت أنقل هذه المعلومات لسيادة الرئيس كما كنت أضع الرفاق في القيادة العامة بالصورة وكانت هذه المعلومات مفيدة للغاية بالنسبة لنا لأنّه أمر أساس لتقدير الموقف أنْ تعرف حالة الخصم النفسية.

وضاق اللواء شفيق واللواء علي حيدر ذرعاً بالاقامة في موسكو وخشيا أنّ زحمة أعمال الرئيس الأسد قد تؤخّر صدور الأمر الخاص بعودتها إلى أرض الوطن وأرسل اليّ اللواء شفيق رسالة مؤثّرة واتّصلت هاتفياً بهما إلى موسكو وطمأنتهما بأنّ الرئيس لن ينسى أبداً أبناءه، وعندما أعلمت الرئيس بالموضوع استغرب وقال لي: هل أمضيا شهراً في موسكو؟، وعندما أجبته: نعم.. قال: أَصْدِرْ نيابةً عنّي الأوامر بعودتهما إلى أرض الوطن..

وهكذا عاد أبو علاء وأبو ياسر من بلاد الغربة، مع أنّ الاقامة في موسكو ذلك الحين كانت تعتبر مثل الاقامة في باريس باستثناء أنّ الاقامة في موسكو كانت تكلّف أقل بخمس مرّات. ولكن شعور المرء بأنّه يعيش الغربة وأنّه ليس ذاهباً باجازة أو نزهة تجعل الحياة صعبة لا تطاق.

وهكذا أسقط الأسد جميع الرّهانات المعادية المحلية والعربية والأجنبية التي كانت ترى بوصول العميد رفعت الأسد إلى السلطة هو انضواء سورية تحت المظلّة الأميركية ونهاية لوقفة العز والشموخ التي اتّسمت بها المسيرة التي قادها أمين هذه الأمة.

والحق ما شهدت به الأعداء

بعد جلسة المصالحة التي تمّت بين الرئيس الأسد وشقيقه رفعت قال رفعت للسيد الرئيس: أريد أنْ أقول لك شيئاً حقيقة لا يعرفها أحد ولا يجوز أنْ تظلّ في عالم الغيب.. وأقسم لك بالله أنّه لولا العماد مصطفى طلاس كل جماعتك في الأركان لا يساوون (فرنك*). وقد حاولت عدّة

* الفرنك: أصل الكلمة (Franc) وهي عملة كانت تعادل خمسة قروش سورية زمن الانتداب الفرنسي ١٩٢٠-١٩٤٥.

مرات الدخول إلى مبنى القيادة العامة ومعي ست سيارات مرافقـة بهدف السيطرة على المبنى وكنت أفاجأ دائماً بوجود العماد طلاس في مكتبه.. وهذا ما كان يضعني في موقف صعب.. وكان الوحيد المستعد للقتال حتى الموت دفاعاً عن النظام وكنت أخشى اذا تمكنت من التغلّب عليه أنّني لن أفلت من غضبك إلى يوم القيامة.. كما كنت أخشى أنّه لو تغلّب عليَّ بواسطة حرس الأركان المدعمة بالقوات الخاصة وسرايا الصراع سوف أسقط من عيون الناس إلى الأبد.. فأجابه الرئيس الأسد: انّ العماد طلاس من أشجع ضباطنا و أثناء مشاركته في حركة الضباط الأحرار بحلب ((نيسان (ابريل) ١٩٦٢) بقي في مركزه كمدير لشعبة الأمن السياسي مدّة سبع ساعات بعد هروب رفاقنا كافة إلى ادلب وحمص وحماة واللاذقية، وكان اللواء الخامس المدرّع يحاصر المدينة ويضرب حولها طوقاً من الدبابات والمشاة المحمولة.. علماً بأنّ المنصب الذي كان يشغله لم يكن بشكل رسمي ونظامي لأنّه كان مفتّشاً في وزارة التموين. فكيف تريد منه أنْ يترك مكانه في القيادة العامة وهو يشغل وظيفة نائب القائد العام ووزيراً للدفاع بمرسوم جمهوري. انّه بالتأكيد سوف يقاتل من أجل النظام حتى آخر طلقة وآخر رجل.

عهد بالدم. يا ليت.. هناك أغلى!

«عهد بالدم؟!.. يا ليت.. هناك أغلى!.. عهد بالدم يقطعه له، رفاقه في السلاح والعقيدة.. فبماذا يجب أنْ يكون عهد رفيقه في الموطن الخشن؟».

ليتها تتكرّر لعبة التاريخ، لأريك كيف أنام على فراشك يا حافظ.

أجل، فبعد هذا العمى الذي ضرب زعماء هذه الأمة، وبعد هذا التيه الذي يتخبّطون فيه.. ويستدرجون اليه الآخرين.. لم يبق أمام هذه الأجيال المعاصرة والمحاصرة، سوى الالتفاف حول هذه الراية العربية السورية، المُمْسكة بها قبضته الفولاذية، والرافعة لها منارة تقول للناس كافة، تعالوا اليَّ.. تعالوا، والحقوا بي، فأنا أقودكم إلى طريق الخلاص.. لأنّ الرائد لا يكذب أهله.

وبعد، فهذا الكتاب، ليس مهرجان أضواء، ليدخل في أبواب الدعاية المبهرة.

ولا هو من وسائل الاعلام، ليدخل في حلقة تلفزيونية ملوّنة..

وغنيٌّ عن البيان والايضاح، أنّه ليس من كتب التبشير الحزبي، وانْ كان بمثله يتعمّد خط الحزب ويقوى.

هذا الكتاب، يلوح لي وقد دخل أبواب التاريخ... بل فُتِحَت له أبواب التاريخ، والمعلّمون الكبار هناك يتساءلون:

أصحيح أنّ التاريخ يصنع الرجال؟..

أم أنّ الرجال، هم الذين يصنعون التاريخ؟..

وربّما جاء السؤال، في أجواء معادلة أخرى: هل الفرد هو صانع الجماهير، أم الجماعة هي التي تصنع الفرد؟.

وسلفاً أعتذر للقارئ، فلن أُدخِلَهُ أو أدْخُل معه في المماحكة التاريخية ولا في جدليّتها المادية، ولن أطوّح به في أبعادها الضاربة حدود الفكر والمادة، ولن أتساءل أي منها هو الأساس، وأي منهما، هو الانعكاس، بل سأبقى مع القارئ، في المناطق الآهلة كي لا يُصاب أحد بخوف من عدم الفهم، أو حرج وحتى نبقى جميعاً على الخط.. «عهد بالدم»؟.

ستٌّ وخمسون وثيقة، حبّرها القادرون على الوفاء بها، ووقعوها بدمائهم، عاهدوا بها القائد على ولائهم الأبدي له..

والمعاهدون بالدم هم حملة البنادق، والأقلام، والمحاريث والمطارق وسائر وسائل وأدوات الانتاج للمجتمعات الجديدة القوية..

وبعد.. فماذا سيقول الناس عنها، وعنهم في غد؟.

ماذا ستقول الأمم؟.

ماذا ستقول عنها فرنسا بالذات؟.

بل لماذا خصّصت فرنسا بالذات؟. وسمّيتها دون غيرها من أمم الأرض؟.

انّ لهذا التخصيص سبباً أنا ذاكره فوراً:

في فرنسا برنامج تلفزيوني اسمه (٧ على ٧)، وهو يقدّم للمشاهد الأمور والأحداث الخارقة ليتصيّدها له من سائر أنحاء العالم، وكأنّه يقول له: خذْ وانظر.. ثم صدّق، أو لا تصدّق.

وفي أحد الأيام، عرض البرنامج هذا، صورة من دمشق وفيها ظهرت سيارة الرئيس، وهو فيها، مرفوعة على الراحات والأكتاف.

جميعنا يعرف هذا.. وقد رآه، ومنّا مَنْ ساهم فيه، ومنّا مَنْ تمنّى لو كان. ليساهم.. لكنّ فرنسا وجدته غريباً، فأفردت له مكاناً في برنامجها الغريب!.

وغداً ماذا سيقول البرنامج عن ست وخمسين وثيقة، كلّها بالأحمر القاني؟.

وليس غرضنا هنا أنْ نردَّ، أو نعلّل، أو نفسّر أسباب هذا الاستغراب، فمن الطبيعي أنْ يندهش الغرب لسيارةٍ محمولة على الأعناق، بعد أنْ كانوا أشبعوا شعوبهم كذباً وحشوهم تضليلاً، عن الوضع المتردّي، والنقمة العارمة، وخصوصاً عن المرض.. الذي زعموا أنّه خطير..

ونعود لطرح السؤال من جديد:

لماذا «عهدٌ بالدّم»؟.

ويأتي الجواب هذه المرّة أيضاً.. من فرنسا.

يقول [أوْلاد (Olad)] أستاذ التاريخ الكبير في جامعة السوربون، وهو يتحدّث عن الثورة عموماً: [ليس الظلم هو الذي يولد الثورة، وانّما الشّعور به]

وعهد بالدم هو ثورة بين العهود..

فالمعروف أنّ العهد يعطى باللسان، أو تشد به قبضة على كف، أو ينطلق من خطبة منبر، ويشهد عليه جماعة، أو يشترك به لفيف متجانس، في قسم مشترك.. أو يوثق بكتاب. الاّ في سورية، ومع حافظ الأسد.

أجل فسورية، بالدم عهدها كان.. وببذله سيكون.. والسبب، شعور الجماهير الحاد، وأنّ القائد هو أملها، وأنّ القائد هو كرامتها، وأنّ القائد هو خبزها اليومي الشريف، فالقائد اذنْ هو المنارة التي تهدي سواء السبيل، وأيّ علامة استفهام ترسم حول هذا الموضوع، فستمحوها الجماهير بالدماء..

ولماذا كل هذا الانفعال؟..

للسبب ذاته.. الشّعور الحادّ.

أجل!.. فعندما تطلّعت سورية، فوجدت نفسها داخلة في حدود المعادلة المتعلّقة بحساب القوى، وهي تعرف جيّداً، أنّها لم تكن قبلاً كذلك.. لأنّها كانت فعلاً خارجها.. لابدّ أنها تساءلت:

كيف حدث هذا؟ ومتى؟..وبفعل مَنْ، دخلت سورية في الحساب؟..

وقال التاريخ:

لا شكَّ أنّ ثورة الثامن من آذار (مارس) في العام ١٩٦٣، وضعت سورية على الطريق.. وقد كان تسلّم حزب البعث العربي الاشتراكي الحكم، وثبة نوعيّة مهمة في هذا المجال.

ولكن مَن الذي أرسى قواعد هذه الوثبة؟.

بل مَنْ هو الذي صحّح مسارها؟..

بل مَنْ الذي جعلها شيئاً فشيئاً أمل الجماهير؟. ثم كيف أدركت الجماهير قداستها، وسحرها، فأنزلتها في ضميرها، ثم قام الشعب معلناً أنّ بقاءه ببقائها، وأنّه مستعد لأنْ يفديها بالروح؟.

وفي الجواب على ذلك، لابدّ من استعراض الأحداث والمواقف، والأفعال وردود الفعل عليها، والردود على الردود..

ومن خلال هذا الاستقراء، لزمان الوثبة، واعادة القراءة لكلِّ حدود السلسلة، نعرف سرّ هذه الثورة العارمة في التأييد، ولماذا ارتفعت إلى مستوى الفداء.. الذي لا حدود له، لولا الشّعور المتكامل بكبر الأحداث التي مرّت بالقطر والوطن والعصر، وعظمة الردِّ عليها، أي ردِّ حافظ الأسد بالذات.

ولنفتح قليلاً الستارة..فبين نكسة حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧، وبين ردِّ الاعتبار في السادس من تشرين أول (اكتوبر) ١٩٧٣، لم يكن في كلِّ هذا الوطن مِنْ خليجه إلى محيطه، رجل في ضميره الخوف على سقوط الأمة، واضمحلال هذا العنصر العربي سوى حافظ الأسد.

صحيح أنّ الشعار الذي أطلقه عبد الناصر بعد رجوعه عن الاستقالة عشيّة الهزيمة، تحت وطأة الرفض الشعبي العارم لهذه الاستقالة، وهو شعار ازالة آثار العدوان بقي هاجس الشعب والجيش، في مصر، حتى عبور سيناء وغسل عار حزيران (يونيو). لكنّ الذي ثبت فيما بعد أنّ الذي ينفع الأمّة يمكث في الأرض، وتبيّن أنّ الجيش العقائدي الذي بناه حافظ الأسد، كان مستعدّاً أنْ يقاتل إلى الأبد هنا وهناك، وأنّ قائده هو وحده صاحب النَّفَس الطويل، والنظرة الثاقبة التي ترى ما وراء الأفق.

ومنذ الزلزال الذي عصف بالوطن العربي وبجبهته الغربية بعد الزيارة الفضيحة إلى القدس، ظنّت الامبريالية أنّ ظهر الصمود انقصم، وانقصم أيضاً ظهر الجبهة الشرقية، وظنّ عرب أميركا، وعرب النّفاق والتربّص، وعرب اللعب على الحبال، أنّ كلّ شيء انتهى وأنّ شبح الوعي الشعبي المرعب لن يرعبهم بعد اليوم وأنّ التقدّمية أخذت طريقها إلى الخلف، وأنّ تكافؤ الفرص، والعدالة الاجتماعية والاشتراكية هي كلمات تصلح للمعاجم اللغوية الاّ حافظ الأسد، به ضُربَ المثل في الأناة والصبر والحكمة والفلسفة، وحتى لكأنّه هادي السفن في أعالي البحار.

وقد صار جاورجيوس القدّيس النازل إلى مبارزة تنّين الامبريالية، ذي الرؤوس السبعة، يسدّد لها الطعنات النجلاء حتى كاد يزهق الرمح، ولم يزهق الزند. ونقرأ في احدى صفحات التاريخ:

وحده حافظ الأسد زربهم في كامب ديفيد، وأغلق عليهم باب الخان فما عاد يجرؤ على الدخول اليه خارج بل صار يفكّر بالخروج منه داخل، وهال القوى الامبريالية، والصهيونية العالمية، والرجعية العربية، انقلاب حساباتها، فعمدت إلى ثعبان الطائفية النائم، فأيقظته.. وحقنته بسمومها الخاصة، وأطلقته في الأرض اللبنانية، حيّةً تسعى.. وكانت حرباً سُمّيَتْ بحرب السنتين، لم يعرف التاريخ ما هو أقدر منها في كل ما عُرفَ من حروب!.

وواجه حافظ الأسد، الزلزال الجديد بمفرده واتّخذ القرار التاريخي بدخول لبنان، فأوقف النّزيف وأحبط المؤامرة، وأسقط التقسيم وقلب التاريخ فصلاً، وكتب عنواناً جديداً.

الحلقة السادسة: القشة التي قصمت ظهر البعير صدام حسين كانت الفقرة الأولى من بيان الوحدة السورية ـــ العراقية التي قالت بتولي البكر رئاسة الجمهورية

بتاريخ ١٩٧٩/٦/١٦ توجهنا بصحبة الرئيس الأسد إلى بغداد لإجراء مباحثات تدفع القطرين الشقيقين إلى مزيد من التقارب حتى يتمّ تفادي الانهيار الكبير في الموقف العربي بعد أن خرجت مصر من جبهة المواجهة مع إسرائيل إثر اتفاق «كامب ديفيد».

وجاء هذا الاجتماع في إطار الدورة الثالثة للهيئة السياسية العليا المشتركة للقطرين السوري والعراقي، وكان الوفد يضم الرفيق عبد الحليم خدام وزير الخارجية، والرفيق فهمي اليوسفي نائب رئيس الوزراء لشؤون الخدمات. وفي الساعة السادسة مساءً عُقد الاجتماع وكان الطرف العراقي يتألف من الرئيس أحمد حسن البكر رئيس الجمهورية، ونائبه صدام حسين، ووزير الخارجية طارق عزيز، وعندما قدّم النادل كأس الشاي للرئيس الأسد نهره صدام حسين وقال له: «اذهب واغسل الإبريق جيداً ثم اعمل لنا طبخة شاي جديدة، وبعد ذلك اسكب عشرين كأساً وقدّم الصينية للرئيس الأسد ليختار منها الذي يرغب*».

بعد تناول الشاي وبدء المحادثات لاحظت أنّ الرئيس أحمد حسن البكر متحمس لوحدة القطرين بعكس نائبه صدام، وكان وجه البكر يتهلل بالفرح والسرور كلما جرى بحث موضوع الوحدة بينما كان صدام يكفهر وجهه. وأخيراً تمّ الاتفاق على صيغة مقبولة وإن كانت أقل مما يطمح إليه الرئيسان الأسد والبكر، ولكن القشة التي قصمت ظهر البعير (وكان البعير صدام) كانت الفقرة الأولى من البيان: يتولى أحمد حسن البكر رئاسة الجمهورية ويكون الرئيس حافظ الأسد نائباً له، وبهذه الصيغة يكون صدام حسين قد خرج من المولد دون حبة ملبس. وكظم غيظه وقرر أن يُنهي هذا الموضوع وإلى الأبد.

---

* هناك مثل شعبي يقول: «اللي برقبتو مسلة بتنخرو» وهكذا كان صدام مهووسا بالسموم وكان سم (الثاليوم) هو المفضل لديه وقد ابتكره له مخبر سموم من المانيا الديموقراطية ويحوي هذا السم المركب على سبعة انواع من السموم وكلما تمكن الجسم من افراز مادة مضادة لهذا السم تحرك السم الثاني للعمل، وهكذا حتى يرهق الجسم وتتلاشى المقاومة.

ولأن البكر كان أحد أهم المتحمسين لإقامة الاتحاد لأنه سينهي حياته السياسية كرئيس لدولة عربية تضم سورية والعراق، خصوصا وأنّ حزب البعث العربي الاشتراكي في القطرين كان القاسم المشترك لتحقيق هذا الإنجاز التاريخي، قرر صدام حسين أن يفجعه بابنه الأوسط محمد الذي كان يردّد دائماً وبحضور صدام حسين: والله سيكون مقتلك على يدي إذا لم تعد إلى جادة الصواب وتقلع عن هذا السلوك الأهوج الذي لا يخدم أبداً مصلحة الحزب. وبينما كان محمد حسن البكر يقود سيّارته على طريق بغداد ـ البصرة وإذا بسيارة قلاب تخرج عليه من طريق جانبي وتسببت بتدهور السيارة ومقتل كل من فيها من الركاب.

ولابدَّ من أن أضع القارئ في صورة الحدث حتى يكون لديه رؤية شاملة للموضوع، فبعد إعلان بيان الاتحاد العراقي ــ السوري عبرت الحدود ستة عشر ألف سيارة عراقية باتجاه سورية، وعرف صدام حسين أنّ هذا التقارب بين القطرين وهذا التيار الوحدوي الجارف سوف يقضي على كل أحلامه باستلام السلطة. وعاد إلى التلفزيون من جديد وأخذ يتأمل بالرفاق العراقيين الذين سلموا على الرئيس الأسد بحرارة ومحبة ظاهرة فقرر أن يقتلهم جميعاً بلا شفقة ولا رحمة.

بعد أن انتهت المباحثات السياسية وتوصلنا إلى الصيغة النهائية للبيان، استأذنت الرئيس الأسد بأن أزور أقاربي في بغداد، وكان الأسد يعلم أنّ لي عديلاً من العراق هو المهندس عبادي أركان العبادي الذي درس الهندسة في جامعة حلب، وتعرف هنالك على المهندسة سعدية الجابري، وحصل التعارف والتحابب والزواج، اتصلت بالدكتورة ندى العبادي الأستاذة في كلية الطب بجامعة بغداد وسألتها إذا كان بالإمكان أن نشرب قهوة سويّة في أي مكان تريده: «فأنا لا أعرف بغداد كما تعرفينها أنتِ». فقالت: «إذاً نلتقي الساعة التاسعة في نادي الصيد والضابط المرافق لكم بالتأكيد سوف يعرفه» قلت لها: «إنّ معي زملائي الوزراء»، فقالت: «ولا يهمك وأنا معي زوجي». كانت ندى في منتهى الذوق باستقبالي مع رفاقي، وطلبت لنا القهوة التي أُحبها (مغلية جيداً... وسكر زيادة)، وبعد أن نقلت إليها محبة أُم فراس ودعوتها لزيارة دمشق لاجتماع شمل المحبين، ووعدت بتلبية الزيارة في أول مناسبة. وبينما كنا مسحورين بهذا الجو الرومانسي إذ سمعنا دربكة من حولنا وسألتُ النادل فأجابني أنّ وزير الدفاع اللواء عدنان خير الله، ووزير الداخلية، ورئيس المخابرات العامة، قادمون إلى هنا من أجل دعوتكم لتناول طعام العشاء، وما هي إلا دقائق إلا والطاولة المجاورة إلينا قد اكتملت بالمدعوين كافة. قال اللواء

عدنان: «تفضل أنت وضيوفك». وسألتُ الدكتورة ندى إذا كانت توافق على تلبية الدعوة فأجابت: «اذهب أنتَ مع رفاقك السوريين فأنتم بعثيون بعضكم مع بعض ونحن نرى أنّ هؤلاء (...) بغداد ونحن لا نعترف بهم أبداً، وسوف نكمل قهوتنا ونمضي إلى بيتنا».

كان اللواء عدنان خير الله قد عرف مكان وجودي بعد أن التقطت أجهزة التنصت مخابرتي الهاتفية من فندق الرشيد إلى جامعة بغداد، ودّعتُ الدكتورة ندى وزوجها الذي نسيت اسمه وهذه عادة سيئة لديّ مازالت مستمرة حتى الآن وتوجهت إلى طاولة مضيفي وزير الدفاع العراقي ومعي رفاقي الوزراء السوريون وما أن جلسنا إلى الطاولة حتى بدأ المطربون يغنون الأغاني الخاصة بتمجيد الرئيسين حافظ الأسد وأحمد حسن البكر، ودبت النشوة في رأس الزميل عدنان وتناول مسدسه وأطلق عدة عيارات نارية في الهواء ابتهاجاً، وناوله الضابط المرافق بندقية كلاشينكوف أخمص طي ملقَّمة، وقام بتفريغ المخزن بضغطة واحدة على الزناد، الأمر الذي جعل رواد النادي يهربون بجلودهم وحمدنا الله لعدم وقوع ضحايا بين المواطنين الأبرياء*.

بعد أن اطمأن اللواء عدنان بعدم وقوع خسائر أخذ يُطلق النار من مسدسه وكانت الرصاصات تمر من فوق رأس الرفيق فهمي اليوسفي، الذي قرّر تغيير مكانه بعيداً عن هذا العبث الناري، وهنا لم يبق في الميدان سواي وبدأ اللواء عدنان بإطلاق الرصاص من فوق رأسي مباشرة وقد أمّن له المرافق خمسة مسدسات مشط وبكرة، وكان كلما يفرغ مسدس يناوله واحداً آخر... قلت في نفسي إذا غيّرت مكاني على الطاولة سوف يُصبح الموضوع قصة يتندَّر بها المسؤولون العراقيون في مجالسهم، ومن هذا المنطلق قررت أن أُخرّب هذه اللعبة وسأبقى في مكاني حتى تفرغ آخر رصاصة في مخزون الجيش العراقي.

كان الرصاص يمر من فوق رأسي وكنت أشعر بلهيب البارود الساخن عندما يتم الإطلاق بالمسدس البكرة، وبعد أن أطلق اللواء عدنان نحو مئة وخمسين طلقة توقف عن اللعبة وقال «نحن جئنا إلى هنا لتبادل الحديث وليس لإطلاق الرصاص». فأجبته: «كما تريدون ونحن لا نحمل

---

* قال اللواء عدنان لمرافقيه: اذا كان هناك جرحى خذوهم الى المستشفى العسكري... واذا كان هناك قتلى ضعوهم في البراد وعندما تتعرفون على اسمائهم تسلمون الجثث لذويهم لدفنهم.

مسدسات لمشاركتكم بهذا الابتهاج» انضم إلى الطاولة طبيب لم أعد أذكر اسمه ولكنه قال لي: «إنه نديم الرئيس البكر ونائبه صدام». فقلت له: «يعني هام طبيب وهام؟»(...) فأجابني: «منك مقبولة كنكتة... ولكن أنا بالفعل طبيب ونديم».

قلت له معنى نديم في عرفنا أنه رجل يحبُّ الشعر والتاريخ وأخبار الملوك والسلاطين، فقال لي: «وأنا كما ذكرت» قلت له: «إسمع أنا صديق الشعراء والأدباء منذ طفولتي والشعر ليس عصيّاً عليَّ إذا شمَّرتُ عن ساعدي... ولكن هناك موّال بغدادي سمعته من شاعر حمصي كان يشرب العرق الزحلاوي في مقصف ديك الجن على ضفاف العاصي لم يعلق بذاكرتي منه سوى مقطعين وأنا أرغب إليكم بإكمالها إلى سبعة». فأجابني: «سوف أنجز المهمة اليوم ونحن على الطاولة.. قلت له: طوّل بالك المهمة ليست سهلة» فأجابني: «سوف تأتيك الإجابة إلى فندق الرشيد قبل سفرك إلى دمشق وإلا سوف تأتيك بالبريد المضمون إلى مبنى القيادة العامة في ساحة الأمويين». قلت له حباً وكرامة وإليك المقطع الأول:

من يوم فرقاك عَبِّينا العَسَل بتناك

قلت له: «بتناك يعني التنك» قال: أفتهم..

وتابعت: وعهدي فيك يا رفيق الصّبا (...)»!..

وضحك الجميع وحتى اليوم لم يصلني الرد.

صدام حسين ينفذ المجزرة

يظل الكثير من أسرار تسلُّم صدام حسين، الموقع الأول في الدولة والحزب الحاكم، منتصف تموز (يوليو) ١٩٧٩ في العراق طي الكتمان، لاعتبارات وأسباب عدة، أبرزها أنّ الرجل الذي أُزيح، وهو الرئيس السابق أحمد حسن البكر، عاش وحيداً منبوذاً منذ عزله إلى أن غاب أو غُيِّب عن الحياة، بعد ثلاث سنوات من إقصائه، وكذلك قتل وتصفية الشهود الذين عايشوا الأيام الثلاثة الصاخبة، من ١٤ تموز (يوليو) إلى ١٧ منه، وفيه تمّ كل شيء، وفق مخطط مرسوم بدقة وعناية، ولقي وزراءٌ وقوادٌ ومسؤولون كبار مصرعهم بعد أن استُدرجوا إلى الفخ،

وعاش آخرون في خرس، لا يقوون على قول الحقيقة وما جرى في تلك الساعات العاصفة.

أسئلة كثيرة، وتساؤلات أكثر عمّا حدث في تلك المجزرة التي اصطُلح على تسميتها بـ (القطرية) وراح ضحيتها نحو ثلاثين قيادياً بعثياً ووزيراً وضابطاً وكادراً حزبياً بين معدوم ومشنوق ومخنوق قُتِلوا بأيدي رفاقهم في الحزب، تنفيذاً لقرار أصدره الرئيس الجديد صدام حسين، وشكل سابقةً من نوعها وفي طريقتها، عندما استُدعي مندوبون عن منظمات الحزب كافة، ليطلقوا الرصاص على رفاقهم وأساتذتهم ومسؤوليهم، ليضيع دم المقتولين ويتوزع على المئات من (الرفاق) الذين حُشِروا في حدائق القصر الجمهوري، وهم ينتكبون البنادق والرشاشات لتنفيذ مذبحة دموية، القتلة والقتلى فيها من البعثيين، في مفارقة تاريخية وسياسية، وتركت آثاراً ونتائج ظلّت تتفاعل، واتخذت مسارات خطيرة لاحقاً.

لقد ملّ صدام حسين نائب الرئيس الانتظار، وهو الذي كان يأمل أن يتنحى أحمد حسن البكر، قبل عام مضى، خلال الاحتفال بالذكرى العاشرة لحركة ٣٠-١٧ تموز (يوليو) ١٩٧٨، وسط طفرة من الموارد والثروات ونوع من الاستقرار، لم يخدشه غير الصِّدام المفتعل مع الحزب الشيوعي الحليف* مع الحزب الحاكم في الجبهة الوطنية والقومية، وكان صدّام يتطلع إلى الجلوس على «كرسي الرئاسة وزعامة الحزب بعد مرور عشرة أعوام على الثورة بعد أن سئم من صيغة المناصفة في السلطة، التي أضفت على أجهزة الدولة والحزب آثاراً سلبية، وقسّمتها إلى جناحين يتعايشان ظاهرياً بودٍ وسلام، فيما يخوضان صراعاً وتنافساً في الخفاء. وحينما أقبل شهر تموز (يوليو) من عام ١٩٧٩، وهو العام الذي عزم صدّام حسين على حسمه لصالحه، برزت أحداث وتطورات، أقلقته تماماً، ولاح له أنّ الحُلم الذي رافقه طيلة عشرة أعوام مضت، في طريقه إلى التلاشي، خصوصاً بعد أن صدرت تلميحات في بعض الأحيان، وتصريحات في أحيان أخرى، تشير إلى أن الرئيس البكر، لن يغادر موقعه في قيادة الدولة والحزب الحاكم، إلا بعد ولادة دولة الوحدة بين العراق وسورية التي يحكمها جناحان من حزب البعث خصوصاً وإنّ

---

* **قام صدام حسين باعدام الفي مناضل شيوعي، ووضعهم في خوابي فخارية، ورماهم في نهر دجلة (هذه المعلومة من احد الزعماء العرب شخصيا) وقد همس بها صدام له عندما كان يزمع السفر الى الولايات المتحدة الاميركية وتابع صدام: قول للجماعة... ان من يقتل الفي شيوعي ويرميهم في النهر لا يمكن ان يكون اشتراكيا او ماركسيا.**

خطوات باتجاه التوحيد بدأت بين البلدين، إثر توقيع ميثاق العمل القومي وتحسين العلاقات بينهما منذ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٨. وقد اعتقد صدام حسين، أو خُيل له، أن البكر في لجوئه إلى الوحدة مع سورية، التي تحظى بقبول وتأييد الأكثرية من قيادات وأعضاء حزب البعث، إنما يحاول استبعاده عن طريق الحلم والأمل، اللذين كرس لهما حياته لتولي رئاسة الحكم، في أعقاب تلويح الرئيس البكر بأنّ نظيره السوري حافظ الأسد، الأكفأ لقيادة دولة الوحدة، وتصريحه لتلفزيون بغداد في مطلع حزيران (يونيو) ١٩٧٩:

(بأنني واثق من قدرات أخي الرئيس الأسد، وما يتمتع به من حيوية وبُعد نظر في العمل على تدعيم وحدة القطرين «العراق وسورية» بما يخدم الأمة العربية وحلمها المنشود في لمّ شملها ورصّ صفوفها).

وسواءً أكان البكر، صادقاً في دعواته الوحدوية، أم أنه عمد إلى هز نائبه واستفزازه عبر التلويح بالورقة السورية، إلا أنه لم يمض طويلاً في خطته التي لو أحكم خيوطها بدقة، لنجح فعلاً في إدارتها إلى نتيجتها المرجوه، ويبدو أن المرض (الاكتئاب الحاد) الذي أُصيب به بعد وفاة زوجته، ومصرع نجله الأوسط محمد وقبلهما مقتل زوج ابنته، مظهر المطلق، تفاقم في تلك الفترة إلى جانب معاكسات كبير مرافقيه العميد طارق حمد العبد الله، الذي يعرف بأنه (عين) صدام في القصر الجمهوري، كل هذه الحوادث أثرت على قدراته في صياغة أفكاره وبلورة خطواته بهذا الاتجاه.

فقد عُرف ومنذ نهاية عام ١٩٧٧، أنّ صراعاً خفيّاً بدأ يبرز بين الرئيس أحمد حسن البكر ونائبه صدام حسين، على بسط النفوذ والقوة، الذي اتخذ شكلاً مستتراً بادئ الأمر، ثم تحوّل إلى العلن وظهر واضحاً في النجاح الذي أحرزه صدام في الضغط على البكر للتخلي عن الدكتور عزة مصطفى عضو مجلس قيادة الثورة، الذي كان من أقوى المحسوبين على جناح الرئيس، والرجل الثالث في تسلسل القيادة الحاكمة بعد البكر وصدام، وإقالته من مناصبه الرسمية والحزبية، بحجة تخاذله في إصدار عقوبات ضدّ متظاهرين شيعة في كربلاء والنجف احتفلوا بمناسبة دينية، ورغم أن البكر كان حتى مطلع عام ١٩٧٩ يحظى بتأييد القيادات العسكرية (قادة الفيالق والفرق) ولم يجرؤ (ابن خال) صدام الفريق عدنان خير الله، على تصفية الوحدات الضاربة من آمريها المعروفين بولائهم وعلاقاتهم الوطيدة معه رغم تحريضات صدام حسين، إلا أنّ الرئيس بدأ

يفقد القياديين في الحزب واحداً بعد الآخر، ولم يبق في صفه لغاية ذلك الوقت غير طه ياسين رمضان، وجعفر قاسم حمودي، من أعضاء القيادة القطرية للحزب، فيما كان ستة من أعضاء مجلس قيادة الثورة والقيادة القطرية يتأرجحون في ولاءاتهم بين الرئيس ونائبه، لاعتبارات خاصة بهم وهم عزة الدوري ونعيم حداد، وعبد الفتاح الياسين، ومحيي الشمري، ومحمد محجوب، ومحمد عايش، في الوقت الذي حسم فيه الآخرون وهم الأغلبية موقفهم، وعُرفوا بتأييدهم للنائب صدام حسين ودعمهم له وفي المقدمة منهم: عدنان الحمداني، وطارق عزيز، وغانم عبد الجليل، وتايه عبد الكريم، وسعدون شاكر، وحسن العامري، وعدنان خير الله.

وعندما أقبل شهر تموز (يوليو) ١٩٧٩، كانت الأجواء في العراق متوترة تماماً ولاحظ المعنيون والمراقبون للأوضاع العامة في البلاد، تناقضات في الشعارات السياسية التي طُرحت للاحتفال في الذكرى الحادية عشرة للثورة، ورُفعت لافتات استُبعد اسم البكر منها للمرة الاولى، فيما رفعت لافتات عُلّقت في بعض شوارع العاصمة الرئيسية، تشير إلى دور القيادة الشابة في الحزب والثورة، دون تحديد أو تنويه باسم محدد، وبدا واضحاً أنّ صدام حسين بدأ يلعب لعبته بذكاء دون أن ينتبه البكر إلى ذلك.

البكر في عيني صدام

ويعترف صدام حسين لكاتب سيرته الصحافي اللبناني فؤاد مطر (لم يكن أحمد حسن البكر في وضع صحي ميئوس منه، ولكنه كان لا يحتمل أن يأتي يوم يقرأ في أعين العراقيين وغيرهم تساؤلات عن وضعه.. من نوع، ماذا ينتظر لكي يرتاح؟ وهل إنه يريد أن يكون مثل الجنرال فرانكو الذي اختار من يخلفه، لكنه رفض حتى لحظة رحيله أن يتخلى عن الحكم) (كتاب: صدام حسين. السيرة الذاتية والحزبية ص(٦٩ - ٧٠).

كان صدام حسين، يدرك أن البكر ليس من النوع الذي يتخلى عن وجاهة الحكم والسلطة بسهولة، لكنه كان واثقاً من إجباره على الاعتزال بالقوة من خلال انقلاب داخلي يعتمد على جهاز المخابرات الذي أصبح في ذلك الوقت، دولة داخل دولة، وهو مضمون الولاء له بكامله، قادة ومسؤولين وفي مقدمتهم رئيسه سعدون شاكر صديقه الحميم، ومعاونه الأخ غير الشقيق لصدام برزان إبراهيم التكريتي، غير أنه لم يكن مطمئناً لتعلق عدد من قيادات الحزب والجيش بالبكر، وحبهم له لاعتبارات عاطفية وتاريخية، كما أنه عرف منذ زمن، أن الأمين العام المساعد لحزب

البعث، الدكتور منيف الرزاز الأردني الجنسية، الذي كان يقود القيادة القومية للحزب بعد تواري السوريين ميشيل عفلق، وشبلي العيسمي، وأمين الحافظ، عن الأنظار منذ توقيع ميثاق العمل القومي بين العراق وسورية، يقف بقوة إلى جانب البكر ويشجعه على إتمام إجراءات الوحدة أو الاتحاد بين بغداد ودمشق، ولم يكن أمام صدام إزاء هذه التحديات إلا العمل بسرعة وحرق المراحل، خصوصاً وأنّ خلافاً نشأ بين الرئيس وصدام وقتئذ حول تشريع أمر البكر بإعداده لإعلانه في احتفالات ١٧ تموز (يوليو)، يقضي بزيادة رواتب الضباط والجنود والمعلمين وموظفي الدولة، كان يرى صدام إرجاء صدوره إلى موعد آخر لحسابات خاصة به وخشية التفاف عسكري وشعبي حول الرئيس.

الحلقة السابعة: عندما علم صدام حسين باعتزال البكر ابتكر مسرحية الاستقالة ودعا القيادة إلى اجتماع واعتقل بعضها وتآمر مع الدوري ورمضان للاستيلاء على الحكم

ينقل عن مرافق البكر، المقدم إبراهيم الدليمي (اغتيل فيما بعد) أنّ البكر، غضب من اعتراضات نائبه على إصدار قانون زيادة الرواتب، وذهب إلى منزله مساء التاسع من تموز (يوليو) معتزلاً مكتبه في القصر الجمهوري موصياً حراسه ومرافقيه بعدم السماح لأحد بزيارته، وامتنع عن التحدث عبر الهاتف مع النداءات التي كانت تصل إليه، وسرت شائعات في الأوساط العسكرية بأنّ قطعات الجيش العراقي دخلت درجة الإنذار بعد أن نجح في إيصال برقية إلى قائد الفيلق الأول اللواء الركن وليد محمود سيرت في كركوك (أعدم فيما بعد) بأن يضع قواته، على أهبة الاستعداد والتحرك عند وصول إشعار إليه من البكر شخصياً.

وأسقط في يد صدام وشعر أنّ البكر وهو في اعتزاله المفاجئ يوحي إليه بأنه لا يريده إلى جانبه، بل فهم الأمر بأنه رسالة تدعوه للاستقالة والابتعاد عن مناصبه كرجلٍ ثانٍ في الدولة والحزب، وهي مسألة من الصعب بل المستحيل على شخص مثل صدام أن يهضمها ويتقبلها في أي ظرفٍ من الظروف. واستغل صدام غياب البكر عن القصر الجمهوري، واعتزاله في بيته، فاستدعى صباح العاشر من تموز (يوليو) ١٩٧٩ الأمين العام المساعد منيف الرزاز وأبلغه: أنّ الرئيس البكر (زعلان) في منزله وأنّ المعلومات التي تسرّبت من أوساطه والحلقات المحيطة به، تُفيد بأنه قرر الاستقالة، وينتظر حلول ذكرى الثورة لإعلان ذلك، وأنه (أي صدام) لا يستطيع ملء الفراغ الذي ستخلفه تلك الاستقالة في حال انتخابه رئيساً للجمهورية وزعيماً للحزب، لذلك فقد اتخذ قراره هو الآخر بالاستقالة أيضاً وعلى قيادة الحزب أن تختار من تراه مناسباً للمنصبين. ويبدو أن الرزاز الشخصية الرصينة وصاحب (التجربة المرّة) مع الرفاق السوريين خلال منتصف الستينات، صدّق كلام صدام، خصوصا وأنّ الاتصالات مع البكر مقطوعة، فأجرى اتصالاً مع غانم عبد الجليل وطلب منه أن يدعو إلى اجتماع لأعضاء القيادة في منزله ذلك اليوم، وفعلاً عُقد اجتماع ترأسه الرزاز، وضمّ كلاً من عزة الدوري، وعدنان الحمداني، وطه ياسين رمضان، ومحمد عايش، ومحيي الشمري (كان قد غادر المستشفى في نقاهة من مرض عصبي ألم به)، وطارق عزيز، وحسن العامري، وجعفر قاسم حمودي، ونعيم حداد، ولم يتيسر للأعضاء

الآخرين الحضور وهم: عدنان خير الله، وسعدون شاكر، وعبد الفتاح الياسين، فيما كان محمد محجوب في زيارة إلى دمشق في ذلك الوقت. وفي الاجتماع طرح الرزاز حديث صدام حسين، وطلب منهم تدارك الأمر والبحث في صيغة تكفل استمرار وحدة القيادة وعدم تعرضها إلى شرخ في هذه المرحلة، وانقسم أعضاء القيادة إلى فريقين، الأول برز فيه محمد عايش ويطالب بعقد اجتماع لمجلس قيادة الثورة والقيادة القطرية للحزب، يحضره البكر وصدام وجميع الأعضاء وتُناقش المشكلة من جميع جوانبها، بغية الوصول إلى حل لها.

فيما طالب الفريق الثاني، والمفارقة أنّ أغلب أعضائه من مناصري البكر وفي مقدمهم طه ياسين رمضان، وعزة الدوري بأنه مادام الرئيس مصراً على الاستقالة فيجب العمل على إقناع نائبه صدام حسين، بتولي الرئاسة موقتاً لحين الانتهاء من الاحتفالات بذكرى الثورة والدعوة إلى عقد مؤتمر قطري باعتباره أعلى هيئة في العراق لحسم هذه المشكلة.

وعلم صدام بما تمّ خلال الاجتماع الحزبي، وعرف من هم أصحاب الرأي الأول (محمد عايش، ومحيي الشمري، وغانم عبد الجليل)، وأدرك الغرض الذي يضمرونه في أنفسهم، وارتاح لطروحات الفريق الثاني، التي جاءت منسجمة مع رغبته، فلجأ إلى طارق عزيز، وحسن العامري اللذين أوفدهما للاجتماع مع عايش، والشمري، وغانم عبد الجليل، بغية إقناعهم بتأييد اقتراح طه ياسين رمضان، وعزة الدوري، غير أن الثلاثة أصروا على موقفهم وفشلت جميع الجهود التي بُذلت معهم على تغيير آرائهم.

الاجتماع الحاسم

دعا صدام إلى اجتماع لمجلس قيادة الثورة والقيادة القطرية للحزب، صباح ١٤ تموز (يوليو) في مبنى المجلس الوطني الذي يتخذ منه مقراً رسمياً له، حضره جميع الأعضاء باستثناء محمد محجوب الذي كان لايزال غائباً عن بغداد وشارك في الاجتماع منيف الرزاز للتوفيق بين أعضاء القيادة المختلفين. وجرت في هذا الاجتماع الذي لم يحضره البكر، معاتبات في بادئ الأمر حسب ما تذكره الروايات التي روَّجتها أوساط صدام فيما بعد تلتها مشادات كلامية بين صدام من جهة، وكل من عايش، والشمري، وعبد الجليل، وفي هذا الاجتماع عرض الرزاز وهو يشاهد الخلاف قد اشتد بين أعضاء القيادة، الإسراع بعقد مؤتمر قطري على

وجه السرعة وخلال اليومين المقبلين، بحيث عندما يُطل يوم السابع عشر من تموز (يوليو) (ذكرى الثورة) تكون المشكلة قد حُلت (شرعياً) دون ظهور تعقيدات أو أزمات.

وهنا ضرب صدام على الحديد وهو ساخن، فلم يُجب بلا أو نعم على مقترح الرزاز، وانفضَّ الاجتماع دون اتخاذ قرار محدد، غير أنّ الذي حدث أنّ حراساً ومرافقين لصدام، منعوا محمد عايش، ومحيي الدين الشمري، من مغادرة مبنى المجلس الوطني، واقتيدا إلى قاعة جانبية، وتدخل غانم عبد الجليل مستفهماً عن هذا الإجراء، فدفعه الحراس إلى القاعة نفسها وحاول الرزاز العودة إلى مكتب صدام لمقابلته والشكوى إليه، فمُنِعَ بشدة وطُلبَ منه التوجه إلى منزله وعدم مغادرته، فخرج من المجلس الوطني وهو يسحب رجليه بعناء بعد أن هاجت عليه آلام الروماتيزم، وخرج الأعضاء الآخرون على أثره، باستثناء عدنان الحمداني، وطارق عزيز، وعزة الدوري، وطه ياسين رمضان، الذين استُبْقوا في المجلس، واتضح فيما بعد أنهم عقدوا اجتماعاً مع صدام وضعت فيه خطة عزل البكر والإجراءات المتخذة بهذا الشأن، وكانت حجة صدام في اعتقال عايش، والشمري أنهما تبادلا خلال الاجتماع قصاصات ورقية صغيرة، تضمنت تبادلاً للآراء وتنسيقاً فيما بينهما، بشأن إعاقة وصول (السيد النائب) إلى سدة الحكم والسلطة.

وفي عصر السادس عشر من تموز (يوليو) اقتحمت منزل البكر الواقع في منطقة (أم العظام) المطلة على نهر دجلة، بجانب الجسر المعلّق وحدات عسكرية من قوات المغاوير، قادها برزان التكريتي، والعميد الركن طارق حمد العبد الله (اغتيل فيما بعد) المرافق الأقدم للرئيس وأُجبر البكر على ارتداء ملابسه واقتيد إلى المجلس الوطني.

ونُقل عن مرافق البكر، المقدم إبراهيم الدليمي، أنّ القوات التي هاجمت قصر الرئيس، تدفقت عليه من الباب الرئيسي القريب من بوابة القصر الجمهوري، وأبواب الحديقة المطلّة على النهر، ولم يكن بالإمكان مقاومتها لكثرة المهاجمين، ويبدو أنّ البكر، أحس في تلك اللحظات أنه قد هُزم، ولا قدرة له وأتباعه، على المقاومة، ورضخ للأمر الواقع، واقتيد إلى المجلس الوطني ومن ثم اصطحبه صدام إلى دار الإذاعة والتلفزيون في منطقة الصالحية، وألقى خطاب التنحي.

نهاية عهد... وبداية آخر

ويتذكر الذين شاهدوا البكر وهو يلقي خطابه، أنه كان زائغ النظرات، يتلفت يمنة ويسرة، ويحاول السيطرة على أعصابه، وكثيراً ما توقف أو تلعثم في الخطاب، مما يعزز الاعتقاد بأنه يتدرب جيداً على حفظ مفرداته كما كان يحرص في خطبه السابقة، وقد ظهرت صورة الرئيس على شاشة التلفزيون، وقد تغيرت ملامح وجهه، واضطر أكثر من مرة، إلى بلع ريقه وهو يردد بلسان مرتبك تلك الكلمات التي جاء فيها: «ومنذ فترة ليست بالقصيرة كنت أُحدث رفاقي في القيادة وبخاصة الرفيق العزيز حسين عن حالتي الصحية التي لم تعد تسمح لي بتحمل المسؤوليات»، إلى أن ينتهي بقوله: «وإنني أهنئ الأخ والرفيق صدام على تحمله شرف المسؤولية في قيادة الحزب والثورة»، وغادر البكر مبنى التلفزيون وقد لصق به الرئيس الجديد صدام حسين من جانبه الأيمن، فيما كان برزان التكريتي في ناحيته اليسرى، ومضى إلى بيته وهو يحمل غصة في قلبه من غدر نائبه. وبدأت مجزرة دموية راح ضحيتها ٣٠ قائداً بعثياً وعسكرياً ووزيراً ومسؤولاً كبيراً، ومن المفارقات أن يكون ضمن الضحايا عدنان الحمداني الذي كان يوصف بأنه (مدلل صدام) وقد عُين في العهد الجديد نائباً لرئيس الوزراء ورئيساً لديوان الرئاسة وقد اعتقل بعد عودته من دمشق في ٢٢ تموز (يوليو)، بعد أن أوفده صدام إلى القيادة السورية لوضعها في صورة الأحداث الأخيرة، ونقل المعلومات التي ذكر أنها تتعلق بتآمر القيادة السورية مع عايش ومجموعته. ومما يُذكر بهذا الصدد أنّ الرئيس حافظ الأسد* وبعد أن استمع إلى مضمون رسالة صدام إليه التي نقلها الحمداني، سأل الأخير، هل أنت مقتنع بأننا في دمشق شاركنا في المؤامرة المزعومة؟ فرد الحمداني: «لا أدري.. أنا حامل رسالة وعليَّ توصيلها»، فصمت الرئيس الأسد قليلاً، وقال: «إنني أخشى عليك يا رفيق عدنان.. ابق بضعة أيام في دمشق وسترى العجب في العراق»، فضحك الحمداني ساخراً من كلام الرئيس الأسد، قائلاً: «إنّ مهمات كثيرة تنتظرني في بغداد، أنا عائد اليوم.. لأنّ وظيفتي الحقيقية يا سيادة الرئيس هي رئيس وزراء».

---

* كان الرئيس حافظ الاسد اكثر المستائين من تصرفات صدام حسين الذي ينتهج منهجا قطريا بناء على نصيحة وزير خارجية بريطانيا الاسبق جون براون ومع ذلك اوفد الرفيق عبد الحليم خدام والعماد حكمت الشهابي الى بغداد ليؤكد لصدام براءة سورية من المؤامرة المزعومة، وكان رد صدام غير ايجابي بل يمثل وقاحة ديبلوماسية لا تحتمل ولا يمكن باي حال اعتباره من الرفاق المناضلين.

وتبين بعد ذلك أنّ سبب اعتقاله ومن ثمّ إعدامه، أنه كان الوحيد الذي يعرف تفاصيل أرصدة صدام وحساباته في المصارف الأجنبية باعتباره المسؤول عن الاتفاقيات التجارية وصفقات النفط، وأعدم أيضاً محمد محجوب الذي كان طيلة فترة الخلافات خارج العراق وقيل أنه احتج على اعتقال عايش، والشمري، وغانم عبد الجليل، وطالب بمحاكمة حزبية لهم، كما ينص النظام الداخلي لحزب البعث، ويبدو أن هذا الاحتجاج قاده إلى حتفه، مع صهره العقيد رياض القدو عضو المكتب العسكري للحزب، وأعدم أيضاً اللواء وليد سيرت بعد أن ضبطت الأجهزة ما عُرف بأنها اتصالات بينه وبين البكر.

وطويت صفحة، وبدأت صفحة، في تاريخ صدام حسين، الذي استهل عهده الجديد بقتل رفاقه ومساعديه في مجزرة تستحق أن يُطلق عليها بامتياز (مجزرة القوميين في بغداد).

الحلقة الثامنة: حافظ الاسد قال لجورج شولتز عن تسليح «الاخوان المسلمين» في سورية: لو كانت المسدسات واجهزة اللاسلكي تحمل ارقاما مختلفة لعذرناكم ولكنها من معدات الجيش الاميركي

لقد أخذت وتائر النشاط الإمبريالي للهيمنة على المنطقة العربية منحى تصاعدياً، بعد حرب تشرين أول (اكتوبر) التحريرية ١٩٧٣ التي أحدثت زلزالاً مدمراً في الكيان الصهيوني في فلسطين المحتلة، ووضعت العرب على الطريق الصحيح لتحرير الأراضي العربية المحتلة، واسترجاع الحقوق المغتصبة.

وكانت سورية بقيادة الرئيس المناضل حافظ الأسد، تقود النضال العربي التحرري، ضدّ التحديات التي تواجهها الجماهير العربية ومحاولات الهيمنة على المنطقة العربية، وتتصدى للمخططات التآمرية التي تحوكها الإدارة الاميركية والصهيونية العنصرية ضدّ الأمة العربية. فأصبحت سورية الأسد قلعة الصمود والتصدي وكعبة الأحرار العرب في زمن التخاذل العربي، وخندق المواجهة الذي يدافع عن شرف الأمة العربية وعزتها وكرامتها وكبريائها، وقبلة المناضلين العرب كافة.

فقد أدخلت سورية الأسد اتفاقيات كامب ديفيد الخيانية، التي وقعها أنور السادات مع العدو الصهيوني، في طريق مسدود في الوقت الذي كان يسعى فيه الاميركيون والصهاينة لتعميم هذه الاتفاقيات على المنطقة العربية بأسرها.

كما أسقطت سورية مشروع الإدارة الاميركية المسمى بمشروع ريغان وقطعت الطريق على اللاهثين وراءه من دعاة الحلول الاستسلامية والمشاريع التصفوية.

إنّ جملة هذه المواقف المبدئية الثابتة التي تقفها سورية بقيادة الرئيس المناضل حافظ الأسد جعلت الإدارة الاميركية والصهيونية العنصرية تقدران الخطر الكبير الذي تشكله سورية على مشاريعهما التصفوية ومخططاتهما التآمرية. وأدركتا بأنّ سورية بمواقفها هذه تشكل عقبة كأداء تحول دون تنفيذ مخططاتهما وتحقيق نواياهما المبيتة ضدّ المنطقة.

وكان القرار الاميركي - الصهيوني بإزالة هذه العقبة من الطريق في إطار السعي للهيمنة على المنطقة العربية وفرض الحلول الاستسلامية عليها.

فكانت المخططات التآمرية الخارجية التي كانت أحداث لبنان منذ نيسان (ابريل) عام ١٩٧٥ إحدى أهم مظاهرها، وكانت المبادرة الأخوية من سورية تجاه لبنان حقناً للدماء التي كانت تراق من منطلقات طائفية، ومحافظة على وحدة لبنان أرضاً وشعباً، بعد أن كانت مخططات تقسيم لبنان إلى كيانات طائفية هزيلة قد أعدت بشكل مسبق، كما حافظت المبادرة السورية على وجود المقاومة الفلسطينية لأنّ تصفيتها كانت من بين أهداف المخطط التآمري تمهيداً لتصفية قضية فلسطين من جذورها.

وفي أوائل حزيران (يونيو) عام ١٩٨٢ تصدّت سورية للمعتدين الصهاينة عندما تعرض لبنان الشقيق للغزو الصهيوني ووقفت وحدها من بين كل العرب تدافع عن لبنان وعن الأمة العربية وشرفها وعزتها وكرامتها، وضرب رجال قواتنا المسلحة البواسل أروع الأمثلة في البطولات والتضحية والفداء براً وجواً، وضمَّخ شهداؤنا البررة بدمائهم الزكيّة ثرى لبنان الطاهر دفاعاً عن الأمة العربية والحق العربي. وحينما أراد الأعداء، من اميركيين وصهاينة، استثمار نتائج الحرب بفرض اتفاق الإذعان على لبنان، وقفت سورية بقيادة الرئيس المناضل حافظ الأسد بقوة وحزم ضدّ هذا الاتفاق، وقالت - لا - لاتفاق الذُّل الذي يُحيل لبنان إلى محمية إسرائيلية لا أكثر ولا أقل ويقطع أواصر لبنان بمحيطه وبأُمته العربية.

وانتصرت إرادة الحق، إرادة الجماهير والقوى الوطنية التقدمية على الساحة اللبنانية وكان نصراً تاريخياً مؤزراً لسورية في أوائل عام ١٩٨٤ بإسقاطها اتفاق الإذعان - اتفاق ١٧ أيار (مايو) الاميركي - الإسرائيلي - الكتائبي. الذي أُريد فرضه على لبنان. ثمّ واصلت سورية بذل جهودها الأخوية لتحقيق الوفاق الوطني على الساحة اللبنانية عبر الحوار الوطني بين مختلف الأطراف في لبنان على الرغم من محاولات الأعداء قطع الحوار وعرقلة الوفاق.

وكانت المخططات التآمرية الداخلية في مسعى من الأعداء الاميركيين والصهاينة العنصريين لأخذ سورية الأسد من الداخل، ظناً منهم بأنّ سورية سهلة المنال. وراحوا يفتشون عن احتياطييهم من الخونة والعملاء

لتنفيذ مؤامرتهم القذرة، فوجدوا في تنظيم عصابة «الإخوان المسلمين» ذات التاريخ العريق في العمالة ضالتهم المنشودة. فالإخوان المسلمون عصابة عميلة مجرمة، لا علاقة لها بالدين، وهي بعيدة عن الإسلام وتعاليم الإسلام، بُعد السماء عن الأرض، وعندما يحاولون التستر بالدين فذلك ليتخذوا منه غطاءً يخفي حقيقتهم الإجرامية الحاقدة، فالأديان كافة تحمل قيماً ومعاني سامية للشعب وللوطن فيها الإخاء والمحبّة والتسامح والتضحية، أما هُم فقد تنكّروا لكل قيم وأخلاق الشعب والوطن، بل ارتكبوا أفظع الجرائم.

وهكذا قام الأعداء* الأميركيون والصهاينة العنصريون بتدريب عناصر مجرمة من عصابة «الإخوان المسلمون» على أعمال القتل والاغتيال وتخريب المؤسسات في معسكرات أُقيمت لهم خصيصاً في الأردن والعراق وغيرهما، وأمدوهم بكميات كبيرة من الأسلحة من مختلف الأنواع، ومتفجرات ووسائل اتصال متطورة، وغير ذلك مما يحتاجه النشاط الإجرامي التآمري التخريبي على صعيد القطر، ووضعوا بتصرفهم مبالغ طائلة• ، وأمنوا لهم الأوكار لتكون مستقراً لهم ومنطلقاً لتنفيذ جرائمهم ثمّ أطلقوهم ليعبثوا بأمن الوطن والمواطنين، فيقتلون الطفل و المرأة، الشيخ والعامل والفلاح، الطبيب والضابط، المحامي والموظف والعامل ورجل الدين وغيرهم من فئات المواطنين. وامتدت جرائمهم لتتناول المؤسسات الاقتصادية، تلك المؤسسات التي بنتها جماهيرنا الشعبية الكادحة بجدها وعرقها، كلّ ذلك خدمة للمخطط التآمري الذي حاكه أسيادهم الصهاينة العنصريون.

كما ارتكب هؤلاء المجرمون مجازر جماعية فاقت في بشاعتها ووحشيتها ما ارتكبته النازية الهتلرية أو الصهيونية العنصرية من مجازر ستبقى أبداً علامة سوداء ووصمة عارٍ على جباههم ترمز إلى كفرهم وإلحادهم وكراهيتهم وحقدهم على العروبة والإسلام. من هذه المجازر نذكر مجزرة الأزبكية في دمشق، ومجازرهم في حماة، ومجزرة مدرسة المدفعية في حلب التي سنأتي على ذكرها بالتفصيل.

---

* **قال الرئيس حافظ الاسد لوزير الخارجية الاميركي جورج شولتز: لو كانت المسدسات وهواتف اللاسلكي تحمل ارقاما مختلفة لعذرناكم ولكنها مع الاسف تحمل أرقاما متسلسلة ومن معدات الجيش الاميركي.**

• **قال لهم نائب الرئيس العراقي طه ياسين رمضان: نحن مستعدون لان نزودكم بأنواع الأسلحة كافة التي تريدونها باستثناء الطائرة والدبابة.**

وقائـع حــادث الإجــرام فـي «مدرسة المدفعية»

قـام بتنفيذ هذه الجريمـة النكـراء المجـرم السفاح النقيـب إبـراهيم اليوسـف بالاشتراك مع عددٍ من القتلة ممن باعوا أنفسهم وضمائرهم لأعداء الوطن والإسلام.

حيث استغل المجرم الخـائن إبراهيم اليوسـف وجـوده فـي المدرسـة بمهمـة ضابط مناوب فمارس صلاحياته بدناءة وخسّة ممهداً لتنفيذ جريمـة ينـدى لها جبين الإنسانية بحق طـلاب المدرسـة الـذين مـن المفتـرض أن يعـاملهم كأخوة وأبناء، ورفاق سلاح، ولكنه خان الأمانة وداس الشرف ونسي قسَم الولاء للشعب والوطن، منفذاً أوامر أسياده الأميركيين وإخـوان الـشياطين ومقدِّماً خدمة لا تقدر بثمن للعدو الـصهيوني، المعروف بحقده علـى سـلاح المدفعيـة الـسورية، الـذي أنهكـه وأقضّ مـضاجعه فـي حـرب تـشرين أول (أكتوبر) التحريرية. وهكذا قـام المجـرم إبـراهيم اليوسـف وأفـراد عـصابته بحصد طلاب المدرسة العُزّل من السلاح برشاشاتهم وقنـابلهم، وهـم الـذين كـان يعدّهم الـوطن لخـوض معـارك الـشرف والبطولـة والفداء ضـدّ العدو الـصهيونـي، محققين بـذلك أهداف عدونـا الغاشـم لقـاء أمـوالٍ بخسة قـادتهم إلـى حتفهم.

كيف دخل المجرمون إلى مدرسة المدفعية؟

قرابة الساعة السادسة والنصف من مساء يوم السبت ١٦ حزيران (يونيو) ١٩٧٩ تحـرّك النقيـب المجـرم إبـراهيم اليوسـف بـسيارة «زيـل» عـسكرية يقودها العريف المجرم عبد الراشد الحسين الـذي تـمّ الاتفـاق معـه مسبقاً، مغادراً المدرسة إلى مسافة قريبـة تبعد نحـو الكيلـومتر، حيث اجتمـع إلـى مجموعة من القتلة والمجرمين المـأجورين الـذين كـانوا بانتظـاره، وقـد قـام الـسفاح إبـراهيم اليوسـف بإعطـاء أفـراد العـصابة لباسـاً عـسكرياً برتـبٍ مختلفة وزودهم بكلمة السر وأدخلهم إلى المدرسة معه بالسيارة، ثمّ اجتمـع بهـم وتـشاور مـع المـسؤولين عـنهم أمثـال المجـرم حـسني عـابو والمجـرم عـدنان عقلـة ضـمن قاعـة منعزلـة داخـل المدرسـة. بعدها خـرج المجـرم إبراهيم اليوسف وأمر بجمع الطلاب مـن دورتـي الكليـة الحربيـة «الـصف المتوسط والـصف المتقدم» فـي نـدوة المدرسـة بحجـة الاجتمـاع إلـى مـدير الكلية لإعطائهم بعض التعليمـات، وبخاصـة أنّ الـصف المتقدم يقف علـى عتبــة التخــرج، وأنّ دورة الــصف المتوســط ستتــسلّم قيــادة الــدورات فــي المدرسة بعد تخرجهم. وقد أعطـى المجـرم الخـائن أمـره بـالاجتمـاع شـفهياً

من خلال الطلبة الأوائل في الدورتين ولم يعطه عبر إذاعة المدرسة حتى لا يعلم الضابط القائد الأقدم بأمر الاجتماع ومنعاً لإثارة الشكوك علماً بأنها قليلة ونادرة المرات التي يجتمع فيها مدير المدرسة «الكلية» مع دورتين بآنٍ معاً.

ماذا حدث في الندوة قبل بداية الجريمة؟

عندما اطمأنّ النقيب المجرم إبراهيم اليوسف إلى أنّ جميع طلاب الكلية البالغ عددهم نحو ٣٠٠ طالب قد دخلوا مقر الندوة، دخل عليهم برفقة كل من المجرمين حسني عابو وعدنان عقلة في حين كان المجرمون زهير زقلوطة ورامز عيسى، وأيمن الخطيب، يأخذون أماكنهم على النوافذ وأمام باب الندوة ينتظرون أوامر المجرم إبراهيم اليوسف، بعدها أخذ المجرم إبراهيم اليوسف بقراءة أسماء عدد من الطلاب وأخرجهم خارج الندوة. وللتاريخ نقول بأنّ معظم الطلاب الذين أُخرجوا من الندوة لا علاقة لهم بتنظيم «الإخوان المسلمين» ولا بجرائمهم إنما استخدموا للتغطية والتمويه على بعض العناصر من ضعاف النفوس ممن استطاع المجرم إبراهيم اليوسف بحكم عمله كمدرب في المدرسة من التغرير بهم وإدخالهم ضمن هذه العصابة الإجرامية التي تعادي الله والوطن، حيث تأكد بالدليل القاطع وبعد التحقيق أنه قد سبق له واجتمع مع هذه العناصر المغرر بها قبل ساعات قليلة من تنفيذ هذه المجزرة الرهيبة وناقش معهم خطة التنفيذ. وعلى رأس هؤلاء الطالب المجرم يحيى كامل النجار، والطالب المجرم ماني محمود الخلف الذي تقدم من المجرم إبراهيم اليوسف وتكلّم معه على مرأى من جميع الطلاب أثناء قراءته الأسماء. إضافة للمجرم العريف السائق عبد الراشد الحسين ولما تأكد من خروج الطلبة الذين تليت أسماؤهم خارج الندوة وخصوصا العناصر الذين تربطهم به علاقة الإجرام والخيانة أعلن للطلاب المتبقين في الندوة أنهم رهائن، والندوة ملغومة من أطرافها كافة، ومن يحاول الخروج سيقتل فوراً، وأي عمل جماعي من الطلبة سيؤدي إلى هدم الندوة فوق رؤوسهم، ثمّ قال لهم بأنّ عليه أن يُجري اتصالاً ضرورياً مع القيادة وسيعود إليهم بعد قليل.

مهاجمة مقر الحرس

بعد ذلك توجه هذا المجرم برفقة الخونة المجرمين مصطفى قصار، وماهر عطار، وعادل دلال، باتجاه مقر الحرس. وتقدم المجرم إبراهيم

اليوسف إلى عنصر الحرس /الخفير/ المجند هوسيب مانوكيان محاولاً نزع بندقيته. وتوسل الخفير المسكين لهذا المجرم مستجيراً بالله وقائلاً له «يا سيدي ستسبب لي عقوبة»، فكل ما دار في خلد هذا المجند الطيب الذي يؤدي واجبه تجاه وطنه وشعبه بأنّ الضابط المناوب إبراهيم اليوسف يحاول أن يختبر حراسته، ولم يفكر لحظتها بأنّ هذا المجرم الأفاك قد باع نفسه للشيطان وخان الشرف والأمانة.

في الوقت نفسه تقدم من الخفير عميلٌ مأجور من العصابة وأرداه قتيلاً بمسدس حربي كاتم للصوت وفي اللحظة التي كان يتخبط فيها الشهيد هوسيب بدمائه رآه أحد زملائه من عناصر الحرس وهو المجند عبد العزيز خليف فقام بتلقيم بندقيته علماً بأنها فارغة من «الذخيرة» حيث كانت أوامر المجرم إبراهيم اليوسف أن لا توزع الذخيرة على عناصر الحرس قبل الساعة الثامنة مساءً وبأمر منه شخصياً. فما كان من أحد المجرمين الذين يرافقون المتآمر إبراهيم اليوسف إلا أن أطلق رشةً من بندقيته باتجاه المجند عبد العزيز سقط على أثرها جريحاً. ثمّ قام المجرمون باعتقال رئيس وعريف الحرس واستولوا على كمية من البنادق والذخيرة حملوها معهم بالسيارة بعد تنفيذ جريمتهم.

الجريمـة

بعد سماعهم صوت إطلاق الرصاص من جهة المحرس، وكانت الساعة تقترب من الثامنة إلا ثلث مساءً وخوفاً من انفضاح أمرهم بدأ المجرمون الذين يطوقون الندوة بإطلاق النار بغزارة ورمي القنابل بكثافة من الجهات كافة على الطلاب الأبرياء المحصورين في الندوة والعزل من أي سلاح، ممّا أدى إلى استشهاد ٣٤ طالباً وتشويه وجرح قسم كبير بإصابات مختلفة. وكان هدف العصابة الحاقدة المجرمة قتل الجميع دون استثناء، لكنها إرادة الله ورعايته التي هي دائماً فوق إرادة الخونة والعملاء والقتلة*.

* **أثناء وقوع المجزرة كنت برفقة الرئيس حافظ الأسد في بغداد لتوقيع الميثاق العربي، واتصل اللواء حكمت الشهابي رئيس الأركان بالسيد الرئيس واعلمه عن الحادث وحاول أن يقلل من عدد الضحايا حتى لا تتأثر المحادثات الجارية بين البلدين.**

مهاجمة مقسم الهاتف

في اللحظة التي كانت جريمة عناصر «الإخوان المسلمين» تُنفذ في الندوة، وبعد الاستيلاء على المحرس، قام إبراهيم اليوسف وعميل آخر بالدخول إلى مقسم الهاتف وبحوزتهم صفيحة من البنزين، حيث قاموا برش ما فيها على المقسم وقد أدار عامل المقسم ظهره خوفاً من إصابته بوجهه وأخذ يستجير بالله ورسوله، ويقول له «كرمال الله، كرمال الرسول، لا تقتلني يا سيدي» ومن أين لهؤلاء الخونة السفاحين الذين قست قلوبهم وتحجرت، وتنكروا لله ورسوله أن يسمعوا استغاثة هذا المجند البريء الطيب، حيث حرقوا المقسم وفجروه، وأخذوا يركضون خلف عامل المقسم الذي فرّ من وجههم والنار تشتعل في ظهره وأنحاء جسمه، وقد أُصيب بحروق بليغة.

بعدها تحرك المجرم إبراهيم اليوسف باتجاه الندوة ماراً بطريقه بمكان إقامة بعض الضباط المقيمين في المدرسة ليودعهم على طريقته الإجرامية الخاصة. وهذا ما كان في خطته، ولكنّ إرادة الله تدخلت مرة أخرى حيث لم يتواجد أحد منهم في هذه اللحظة.

ثمّ قام إبراهيم اليوسف وعناصره بإطلاق رصاص الغدر والخيانة على الجرحى من الطلاب للإجهاز عليهم، وقاموا بملاحقة الطلبة الأبرياء الذين فروا خارج الندوة طلباً للنجاة.

وخلال هروب أحد الطلاب من الندوة التقى بالمجرم إبراهيم اليوسف وعميل آخر معه، فاستجار به قائلاً: «سيدي ألا ترى ماذا فعل بنا هؤلاء المجرمون»، وإذا بالمجرم إبراهيم اليوسف الذي فقد كل شيء وحتى إنسانيته متحولاً إلى وحش، وأي وحش يعطي أمراً لرفيقه في الإجرام والخيانة فيطلق النار على هذا الطالب ليصيبه بجروح بليغة، حيث تمّ إرساله ورفاقاً له من ضحايا عصابة الغدر للعلاج خارج القطر.

وبعد انتهاء العملية الإجرامية خرج أفراد العصابة برفقة المجرم الخائن إبراهيم اليوسف خارج المدرسة بالسيارة «زيل» نفسها التي يقودها المجرم عبد الراشد الحسين.

ومضات بطوليـة

من قلب الموت، من قلب المجزرة المأساة ظهرت نفحات بطولية رائعة لرفاقنا الشهداء سيذكرها التاريخ طويلاً بفخر واعتزاز يذكر منها:

١ ـ قيام الرفيق البطل الطالب أحمد زهيري باحتضان قنبلة ألقاها أحد العملاء وضمها إلى صدره محاولاً الخروج بها ليفدي بنفسه وروحه الطاهرة الزكية أخوة له ورفاق عقيدة وسلاح، ولم يتركها على الرغم من تحذير رفاقه له، وانفجرت القنبلة وتناثرت أشلاؤه وروداً وأزاهيرَ تزين صدر الوطن.

٢ ـ اقتحم البطل الطالب سليمان رشيد إسماعيل غمار الموت وهجم على أحد العملاء في الندوة ممسكاً ببندقيته ضاغطاً بها على عنقه محاولاً خنقه وانتزاعها منه، ولم يستطع أحدٌ من زملائه مساعدته في تلك اللحظة، وبقي يشدد الخناق على المجرم حتى تقدم مجرمٌ آخر من هذا البطل وأفرغ مسدسه وحقده الأعمى في رأسه فتهاوى شهيداً بعد أن سَطَّر بدمائه الطاهرة صفحة من صفحات البطولة والفداء.

٣ ـ رفض الشهيدان البطلان محسن عامر، ومحمد عدوية، الخروج من الندوة على الرغم من إعلان اسميهما من قبل المجرم إبراهيم اليوسف وربطا مصيرهما بمصير رفاقهما في العقيدة والسلاح فامتزجت دماؤهم جميعاً لتروي تراب الوطن الطاهر.

ماذا جنى القتلة المجرمون؟

لقد ظن العملاء بأنهم بجريمتهم هذه وما تلاها من جرائم يستطيعون أن يحققوا غايتهم وينالوا رضى أسيادهم الأميركيين والصهاينة، وذلك بإخضاع سورية وجرها إلى ركب الخنوع والاستسلام.

بجريمتهم هذه استطاعوا أن ينشروا الحزن والأسى في عموم أرجاء قطرنا الحبيب.

نفذ العملاء جريمتهم ولم يدر في أذهانهم بأنهم عندما وزعوا الموت على قرانا ومدننا الحبيبة قد فتحوا قبورهم بأيديهم الآثمة، وأثاروا غضبة الجماهير وحقدها المقدس، فكانت جريمتهم هذه بداية نهايتهم.ففي كل قرية وفي كل بيت كان أبناء وطننا الغالي يرددون بأسى وحزن قائلين بأنهم لم

يربوا أولادهم ويرضعوهم حليب البطولة والشهادة إلا ليموتوا فداءً للوطن ويكونوا عدة الأمة وأملها في النصر والتحرير.لم يربوهم لتأتي عصابة مجرمة خائنة تقتلهم في دارهم وأماكن تحصيلهم وإعدادهم وتحرم الوطن من طاقاتهم وبطولاتهم وهذا ما يحزُّ في نفوسهم.

إنّ عصابة الغدر والخيانة وهي تغتال الأبرياء والشرفاء والعلماء متسترة وراء الدين نسيت قول الله تعالى الذي يؤكد بأنّ (من قتل نفساً بغير نفس أو فسادٍ في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً...) (سورة المائدة: الآية ٣٢) نعم أيها الأخوة لقد وجهت هذه العصابة الآثمة تحدياً خطيراً لشعبنا، واستخفت بقدرته واستهانت بوعيه وشموخه العملاق، وتراءى لها أنها تستطيع عبر عملياتها الإرهابية إخماد صوت الشعب وإسكات إرادة الجماهير، غير أنّ العصابة الخائنة أخطأت الحساب وفتحت مع الجماهير معركة كان واضحاً من البداية أنها خاسرة، كما كانت دائماً المعارك كافة التي خاضها المجرمون العملاء ضدّ الشعوب.وخرجت جماهيرنا الشعبية في حلب، وحمص، وحماة، وإدلب، ودمشق، وبقية المحافظات، في وقفةٍ تاريخية رائعة خلف قائدها المفدّى الرئيس المناضل حافظ الأسد، مطالبة بتصفية العصابة وتصفية أشكال وأدوات التآمر الأميركي ـ الصهيوني كافة. نعم، لقد انتفض شعبنا، إرادةً واحدةً، ووعياً مشتركاً وقدرة تاريخية فذة وواجه العصابة المجرمة بقراره التاريخي «تصفية العصابة ـ تصفية نهائية».

إعدام المجرمين

بعد أن قام المجرم العريف عبد الراشد الحسين بنقل أفراد العصابة خارج المدرسة بعد تنفيذ جريمتهم عاد إلى المدرسة بسيارته وكأن شيئاً لم يكن، محاولاً إيهام الجميع بأنّ لا علاقة له بالأمر، وأنه نفذ ما نفذ تحت قوة السلاح، وقد ألقي القبض عليه فوراً ووجد في سيارته بعض الألبسة العسكرية والأسلحة والذخيرة من مخلفات العصابة المجرمة وقد أثبتت التحقيقات اللاحقة إدانته تماماً وتورطه مع العصابة المجرمة.

كما تمّ إلقاء القبض سريعاً على المجرمين ماني الخلف، ويحيى النجار، بعد أن أدلى بعض الرفاق من الطلبة الناجين بشهادتهم مؤكدين اشتراك هؤلاء بالجريمة. وقد تمّ إعدام هؤلاء الخونة في حقل رمي مدرسة المدفعية لاحقاً بعد انتهاء التحقيقات معهم فنالوا جزاء ما اقترفت أيديهم الآثمة.

مقتل المجرم السفاح إبراهيم اليوسف

عندما ارتكب المجرم إبراهيم اليوسف جريمته في مدرسة المدفعية ظن أنه سينجو من يد العدالة، فواصل جرائمه وخطط لأفراد عصابة الغدر والإجرام «الإخوان المسلمين» التي عاثت فساداً في الأرض وتسترت باسم الدين لتغتال الأبرياء وتنال من أمن الوطن والمواطنين.

وكانت أعين أجهزة الأمن الساهرة بالمرصاد لهذا المجرم العميل الذي قام بهذه الجريمة الدنيئة وخان الله والوطن وشرفه العسكري. حيث تمكنت في الثالث من حزيران (يونيو) عام ١٩٨٠ من قتله* في أحد أوكار العصابة في مدينة حلب، فنال المجرم جزاءَه وارتاحت أرواح شهدائنا في جنان النعيم.

وكانت فرحة الشعب غامرة ونابعة من القلب، حيث راح المواطنون في كل مكان يتبادلون التهاني بقتل هذا المجرم الذي اغتال زهرات من شبابنا نذروا أنفسهم للوطن وجاءوا يتعلمون ويستعدون لخوض معركة المصير مع العدو الصهيوني.

وتابعت جماهير شعبنا في سورية البطلة بكل فئاتها مطاردة فلول هذه العصابة التي عاثت في الأرض فساداً ونشرت الموت والدمار وألقت الرعب في قلوب المواطنين الأبرياء فاستأصلتها من جذورها.وصدق الله العظيم الذي يقول: (وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) (سورة العنكبوت: الآية ٤٠).

وختاماً إن العمالة للعدو الأجنبي من أبشع الجرائم بحق الوطن والمقدسات، بحق الشرف والأرض، ومن خان الشعب والأرض فقد خان الله، وهذا ما فعله «الإخوان المسلمون» الذين ينطبق عليهم قول الله سبحانه وتعالى: (وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم والله عليم حكيم) (سورة الأنفال: الآية ٧١).

نعم لقد خانت عصابة «الإخوان المسلمين» الوطن واعتدت على شعبنا النبيل الذي كرس حياته للدفاع عن الدين والوطن والمقدسات، ومن أجل

---

* **بعد مقتل المجرم إبراهيم اليوسف نقلت جثته إلى مدرسة المدفعية ومرت أمام صف من طلابها... فما كان من الطلبة إلا أن ينقضوا بأسنانهم محاولين تمزيق جثة هذا الخائن.**

تحرير المسجد الأقصى من براثن الصهاينة المعتدين فكان طبيعياً أن تتصدى جماهيرنا الشعبية للمؤامرة الإمبريالية الصهيونية الرجعية فتحبطها، ولأدواتها الرخيصة فتسحقها، وتجعل تنظيم العصابة المجرمة أثراً بعد عين. وهكذا لقي المجرمون الجزاء العادل الذي يستحقونه.

إنّ نار الفتنة التي أشعلوها قد حرقتهم، والمعاول التي أرادوا أن يهدموا بها صرح هذا الوطن قد حفرت لهم قبورهم ولم تنل من سورية شيئاً.وانتصرت إرادة الشعب. وأعلنتها جماهيرنا مدوية بأنّ سورية الأسد لن تركع وستظل أبداً رافعة الرأس، شامخة الجبين قوية بشعبها وقائدها، وستندحر كل المؤامرات الأميركية والصهيونية.

الرحمة على أرواح شهدائنا الأبرار واللعنة والموت للقتلة المارقين وللخونة المأجورين من الإخوان المسلمين.

الحلقة التاسعة: لعبة خلط الأوراق التي مارسها جيمي كارتر لا يمكن أن تنطلي إلاّ على المسطولين الذين يشربون حشيشة الكيف في الغليون

الكتابة عن الرئيس كارتر تأخذ طابعاً مأسوياً خصوصاً في هذه الأيام، فكما يقول المثل الشعبي السائر «ماذا أذكر منك يا سفرجلة. كل مصّة... بغصّة».

عندما تسلّم الرئيس كارتر مفتاح البيت الأبيض في خريف العام ١٩٧٦م تفاءل العرب خيراً علّ الرئيس الجديد يكون أقل سوءاً من سلفه بالنسبة للقضايا التي تهم الأمة العربية، وفي مقدمتها فلسطين والأراضي العربية المحتلة الأخرى، إذ ليس أمر على النفس من أن يرى الإنسان العربي رئيس دولة عظمى يناصبه العداء دونما سبب، ودون أن يكون للشعب الاميركي أي مصلحة في ذلك.

ومما زاد في تفاؤلنا أن الرئيس كارتر لبس مسوح الرهبان، وأخذ دور المؤمن بمبادئ السيد المسيح، وأخذ يتكلم بالطول والعرض عن حقوق الإنسان، وعن العدالة، وعن كل القيم الروحية الفاضلة في المجتمع الدولي.

وتوالت الأحداث... وإذا بالرئيس كارتر صهيوني أكثر من الصهيونيين، وتوالت التصريحات، الواحد إثر الآخر، وكلها تؤكد أن الرئيس كارتر ملتزم وإلى الأبد بأمن إسرائيل ومساعدتها على الباطل والعدوان، وعلى انتهاك الحقوق العربية والمقدسات الإسلامية. وبدأ بإغراقها بالأسلحة المتطورة والمساعدات الاقتصادية، ليثبت للصهيونية نواياه الطيبة تجاهها.

ولما طفح الكيل واستاء الرأي العام العالمي من ممالأة كارتر للصهيونية وإسرائيل، أطلق تصريحاً فيه بصيص من النور باتجاه الحق العربي وحق الشعب الفلسطيني. وهنا أيضاً عدنا إلى الأمل من جديد علّ وعسى أن يكون ضمير هذا الرجل قد استيقظ.

وما هو إلا يوم وليلة وإذا بنا نفاجأ أن رئيس الولايات المتحدة قد لحس تصريحه السابق. وإذا أردنا الدقة اللغوية في التعبير نقول: قد مسخ

تصريحه السابق وعاد إلى بطانته وإلى رفقة السوء مناحيم بيغن وأنور السادات.

قديماً كان يقال: «كلام الملوك ملوك الكلام». ماهي الترجمة العلمية لهذه المقولة التاريخية؟ إنها ببساطة أن الملك أو الرئيس إذا تكلم لايكذب. ومن هنا تأتي أهمية المصداقية في كلامه. ولكن كارتر بدلاً من تمثل نهج السلف الصالح تبنى طريقاً آخر وهو طريق الكذب مع معرفته الأكيدة أن حبل الكذب قصير، حتى أن أحد أساتذة التاريخ في جامعات الولايات المتحدة قال بما معناه: «أن الرئيس كارتر لا يصلح أن يكون رئيس دولة لأنه يكذب ولأنه يغير رأيه باستمرار». وسلوك كارتر هذا لا يخص التصريحات الصحافية والإذاعية فقط، وإنما يتعداها إلى العلاقات الدولية. فهو لايلتزم أبداً بشرف الكلمة التي يعطيها. وعلى سبيل المثال لا الحصر: عندما وقَّع الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الاميركية على مشروع قرار لحل القضية الفلسطينية والأراضي العربية المحتلة في خريف العام ١٩٧٧، وعلى الرغم من أن هذا المشروع لايلبي كل طموحات الأمة العربية وآمالها، فإن الرئيس كارتر اتصل بأنور السادات وبرئيس وزراء الكيان الصهيوني مناحيم بيغن وطلب إليهما العمل سوية لإيجاد قاسم مشترك لتسوية هزيلة تمهد لعقد صلح منفرد يكون هدفه الأول خدمة إسرائيل ومطامعها التوسعية العدوانية، وشق الصف العربي الذي بدا متماسكاً صلباً في أعقاب حرب تشرين اول (اكتوبر) المجيدة. وهكذا طعن كارتر العرب من البطن وطعن السوفيات من الظهر. وكان كاذباً ومخاتلاً ولا يحترم قدسية الاتفاقات الدولية في الحالين.

وفي جنيف، عندما التقى الرئيس كارتر بالرئيس المناضل حافظ الأسد... ولنا كلمة في هذا الموضوع قبل الدخول في التفاصيل وهي أننا في حزب البعث العربي الاشتراكي أولاً، وكمواطنين سوريين عرب ثانياً، رفعنا رأسنا عالياً عندما رفض رئيس جمهوريتنا أن يهرع إلى اميركا كما يفعل غيره من الرؤساء العرب والأجانب عندما يوجه إليهم رئيس دولة عظمى مثل اميركا دعوة للزيارة.

أقول: لقد رفض رئيسنا الذهاب إلى اميركا مجسداً في ذلك شرف الأمة العربية وكبرياءها، وطلب إلى الإدارة الاميركية إذا كانت حريصة على اللقاء أن يتم هذا في بلد محايد وكانت سويسرا هي المكان المختار بالنسبة للطرفين.

وفي صيف العام ١٩٧٧ حدث اللقاء بين الرئيسين وتابعناه أولاً مع وسائل الإعلام. ولما عاد الرئيس القائد من جنيف وضع القيادة القطرية لحزب البعث العربي الاشتراكي في الصورة وكان انطباع الرئيس الأسد عن كارتر جيداً، وكان يؤكد لنا في كل مرة أنه «إذا صدق هذا الرجل فهو إنسان عظيم».

كان الرئيس الأسد متأثراً بالدرجة الأولى بالمناقب العربية التي يتحلى بها، وبالدرجة الثانية، بأخلاقه الشخصية لذلك لم يكن لديه أي انطباع أو شك في أن الرئيس كارتر يمكن أن يكذب... ولكن هذه الأحلام الجميلة تبخرت في ربيع العام التالي. فقد ذاب الثلج وبان المرج، واتضح للرئيس الأسد أن كارتر لا يحترم وعوده، ولا يثبت عند قول. وأن الكذب لديه أصبح طبعاً وليس تطبعاً.

على أن كراهية الرئيس كارتر للأمة العربية وحقده عليها بدا أكثر وضوحاً عندما شجع عملية أنور السادات ببدء زيارة الخيانة للقدس المحتلة. والتحرك باتجاه عقد الصلح المنفرد مع إسرائيل، وضرب التضامن العربي الذي كان الركيزة الأساسية لحرب تشرين اول (اكتوبر) المجيدة. وهنا، وأقول للأمانة: أنه لم يكن يخطر ببال أي عربي أن يكون كارتر منحازاً للصهيونية ولإسرائيل بهذه الدرجة من الوضوح لدرجة التفريط في المصالح العليا للولايات المتحدة الاميركية. ولكي أثبت هذه الناحية أقول: «أنه من المعروف تاريخياً أن هناك علاقة صداقة تربط بين المملكة العربية السعودية والولايات المتحدة الاميركية.. منذ أواخر الثلاثينيات ولكن المتعارف عليه أيضاً أن الصداقة لا يجوز أن تكون من طرف واحد وإلا فلا يمكنها أن تستمر طويلاً».

وعانت المملكة العربية السعودية من هذه الصداقة ما لم تعانه دولة على وجه الأرض، وعمدت الولايات المتحدة، كما ذكرنا، إلى شق الصف العربي وضرب التضامن العربي عن طريق عميلها الذليل أنور السادات. فهل هناك مصلحة لاميركا في مخاصمة المملكة العربية السعودية، بل هل هناك مصلحة وطنية لاميركا في تمزيق الأمة العربية؟

إن بقاء الأمة العربية قوية متضامنة عامل مهم في السلام العالمي والأمن الأوروبي بصورة خاصة. ولكن وجود اميركا العسكري في مصر وفلسطين بكثافة سيدفع الاتحاد السوفياتي دفعاً لكي يثبت هو الآخر أنه موجود على الساحة الدولية، ولن يسمح لاميركا بأن تمضي في لعبتها إلى

النهاية المرسومة لها في البنتاغون مقر وزارة الدفاع الاميركية. وإذا كانت اميركا تعتبر أن العالم هو غابة من الوحوش فعليها أن تعلم أنها ليست الوحش الأقوى.

نعود إلى موضوعنا الأساسي وهو غيرة كارتر الكاذبة على الإسلام، عندما قامت ثورة إيران في شباط (فبراير) من العام (١٩٧٩) لم تكن اميركا مرتاحة لهذه الانتفاضة الشعبية العارمة. صحيح أنها في الآونة الأخيرة قررت التخلي عن شاه إيران كعادتها الدائمة. في ترك عملائها عندما لا يبقى فيهم أي رمق فتقذف بهم إلى مزبلة التاريخ أو تتركهم يسقطون إلى الهاوية وهي تتفرج عليهم وتقول لهم ليس في الأمر حيلة. ولكن التخطيط لم ينجح هذه المرة مع الإدارة الاميركية إذ كانت تمني النفس بقيام انقلاب عسكري في إيران يقبض على زمام الأمور بيد من حديد، ويجري بعض الإصلاحات الداخلية لكي يمتص النقمة الشعبية، ولكي يبقى النظام العسكري في نهاية المطاف يدور في فلك السياسة الاميركية، وكانت يد الله فوق أيديهم، وتمكن الإمام آية الله الخميني وأعوانه من السيطرة على الأمور، ووضع الثورة الإسلامية الإيرانية في الموقف الصحيح المعادي للإمبريالية الاميركية والمدافع عن حقوق الشعوب المضطهدة وفي مقدمتها حق الشعب العربي الفلسطيني... وقامت قيامة الصحافة الغربية بتوجيه من اميركا والصهيونية وحملت على رسالة الإسلام، ودعت إلى شن حرب صليبية جديدة ضد الأمة العربية التي تمثل ركيزة الإسلام الأساسية في العالم أجمع.

ثم جاءت أحداث احتجاز الطلاب الإيرانيين لأعضاء السفارة الاميركية في طهران مناسبة عظيمة لتكشف اميركا على حقيقتها وتعريها أمام المجتمع الدولي، وكانت ردود فعل الرئيس كارتر أشبه بردود راعي البقر أكثر منها بردود رئيس دولة. فقد أقام الدنيا ولم يقعدها على رأس إيران، وطالب بفرض عقوبات اقتصادية، وحشد أساطيله العدوانية في بحر العرب على مقربة من الخليج العربي. كل ذلك ليفت في عضد الثورة الإيرانية. ولكن الإمام الخميني لم يأبه بكل هذه التهديدات، ودعم بصلابة، موقف الطلاب، وحوّله إلى موقف وطني ضد الإمبريالية الاميركية.

على أن الأمر الذي يعد من أكبر الأمور المستهجنة، ما أقدم عليه الرئيس كارتر من مصادرة الودائع الإيرانية في البنوك والمصارف الاميركية.

والوديعة في العرف الحقوقي، أمانة. فكيف تقدم اميركا على سرقة هذه الودائع التي لا تخص فرداً بعينه وإنما تخص كل الشعب الإيراني؟

إن هذه الحادثة على بشاعتها وقبحها كانت مفيدة لكي تفتح عيوننا في بعض الدول العربية، لأن من يستبيح الودائع الإيرانية لن يجد أي حرج مستقبلاً في مصادرة الودائع العربية.

وأعود هنا لأؤكد أن كارتر، في هذه العملية أساء إلى النظام الرأسمالي في العالم أجمع. لأن هذا النظام قائم أساساً على احترام حق الملكية الفردية والجماعية لكن كارتر داس كل هذه القيم. ومن هنا كانت الهجمة الشرسة على اقتناء الذهب من المواطنين الاميركيين أنفسهم لأنهم تأكدوا أن دولتهم ونظامهما لا يمكن أو يوحيا بأي ثقة واطمئنان للمستقبل. وهكذا كان شأن كل الذين يملكون فائضاً نقدياً في العالم أجمع.

إذن، فالرئيس كارتر أساء إلى النظام الرأسمالي الذي تتزعمه اميركا، وهو بالتالي أضر بالمصالح الوطنية للولايات المتحدة، علماً أن عبقرية كارتر وغيرته الكاذبة على الاسلام لم تظهرا على نحو صحيح مثلما ظهرتا في أعقاب أحداث أفغانستان التي وقعت في أواخر عام (١٩٧٩). إذ اكتشف الرئيس كارتر أخيراً أن الإسلام دين عظيم، ولا يجوز للاتحاد السوفياتي أن تدخل قواته إلى بلد سكانه مسلمون:

عجيب أمر هذا الرجل، كيف يغار على الإسلام في أفغانستان ولا يغار على الإسلام في فلسطين وجنوب لبنان وسيناء والجولان؟ كيف يساعد إسرائيل على احتلال القدس أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين؟ كيف يعطي إسرائيل القنابل العنقودية لكي تضرب بها أبناءنا وأطفالنا في مخيمات الأخوة الفلسطينيين وفي جنوب لبنان؟ إذا كان كارتر حريصاً على الإسلام فيجب أن يكون هذا الحرص واحداً في الحالات كافة لأنه كما يقول المثل السائر: «لا يجوز أن يكون هناك حرٌّ وبردٌ على سطح واحد».

ثم لنلحق الكذاب إلى باب الدار ونقول لكارتر: إذا كنت غيوراً على الإسلام كان حرياً بك أن تطالع ما قاله الرسول العربي الكريم: لقد قال نبي الإنسانية: «إذا ذل العرب ذل الإسلام» فهل ترك كارتر وسيلة لم يذل فيها الأمة العربية. فكيف يمكن أن تقوم للإسلام قائمة والأمة العربية على ما هي عليه من التمزق وكل ذلك بفضل بركات الإمبريالية الاميركية ورئيسها السيد كارتر؟

إن لعبة خلط الأوراق لا يمكن أن تنطلي إلا على المسطولين الذين يشربون «حشيشة الكيف» في الغليون. أما المناضلون العرب في كل مكان من دنيا العرب فلم ولن تنطلي عليهم هذه اللعبة. ولا يمكن أن نحرف اتجاه معركتنا الأساسية ١٨٠ درجة، فعدونا - حصراً - هو الصهيونية وكل من يقف وراءها.

والسوفيات هم الأصدقاء الشرفاء الذين يقفون بصلابة مع الحق العربي، سواء في المحافل الدولية أو في تعزيز القدرة القتالية، للجيش العربي السوري الذي يشكل طليعة الصدام الرئيسية للأمة العربية على أن الشيء الذي أضحكني أكثر - وشر البلية ما يضحك - هو خطاب كارتر الأخير اثناء رئاسته في الكونغرس الاميركي الذي أعلن فيه استعداده للتدخل عسكرياً لحماية الخليج العربي، لأن موضوع البترول يعتبر حيوياً بالنسبة للمصالح الاميركية والأوروبية...

ونحن بهذه المناسبة نقول قبل أي شيء: «الله يحمي الكرم من الناطور». هذه واحدة. أما الأهم من ذلك فإننا نقول للسيد كارتر: كيف تعتبرون تدفق البترول العربي لبلدكم أمراً حيوياً ولا تعتبرون احتلال مقدساتنا وأراضينا أمراً حيوياً بالنسبة لنا على الأقل؟ فلو كان لدى السيد كارتر حس سياسي ولا نقول «ذوق» لما تكلم هذا الكلام غير المسؤول. إنه يريد أن يدفع عنا الخطر الوهمي وهو في الوقت نفسه، يساعد أعداءنا الصهاينة على احتلال أرضنا وقدسنا..

قليلاً من الإحساس يا سيادة الرئيس كارتر، هل تريد من العرب أن يفكروا بأحذيتهم بدلاً من رؤوسهم؟ إذا فكرنا فعلاً بأحذيتنا كما يفعل يمكن أن نصل إلى النتيجة التي وصل إليها وهي، مصادقة الأعداء ومعاداة الأصدقاء؟.

ومن غريب المصادفات أنني قرأت بعد كتابة هذه العبارة مقالاً في مجلة «التايم» فيه تهجم وقح على سيادة الرئيس الأسد لأنه أمر بتجميع القوات السورية في لبنان. ويتساءل كاتب المقال التحليلي في النهاية: «هل ينجح الأسد بقلب الأوضاع في المنطقة وتحويل كراهية الشعب العربي للسوفيات إلى كراهية لليهود؟».

أنا لا أدعي المعرفة التامة بالتوجهات الأساسية التي تحكم الرأي العام الاميركي. ولكنني لا أعتقد مطلقاً أنهم على هذا المستوى من الغباء الذي تصورهم فيه مجلة «التايم»!، ثم من قال لكم - والكلام موجه للإدارة

الاميركية وأجهزة إعلامها التي تسيطر عليها الصهيونية ـ من قال لكم أن هناك عربياً واحداً يكره السوفيات؟ هناك قسم من إخواننا العرب لا يؤمنون بالاشتراكية وهذا شأنهم، ولكن هذا لا يعني بالضرورة أنهم يكرهون السوفيات.

إن الشعب العربي يعرف بدقة من هم الأعداء، ومن هم الأصدقاء، وبكلمة واحدة، لا يوجد سوى خيار واحد أمام الولايات المتحدة وهو الالتزام بالحل الشامل لأمور المنطقة المبني على الحق والعدل، أما أن تضحك اميركا علينا فإننا نقول لها إن هذا زمن ولّى ولن يعود، من يريد أن يكسب صداقة العرب فعليه أن يكون غير منحاز للصهيونية وهذا أضعف الإيمان. ورب قائل: ألا يمكن أن يصلح ما فعله السادات في معسكر داود نموذجاً تحذو حذوه دول المنطقة؟

أما نحن فنقول له: لا وألف لا، إن ما تمّ في معسكر داود كان مؤامرة على الأمة العربية. وكان في محصلته تنفيذاً للاستراتيجية الصهيونية.

وإذا قيل لنا: «انظروا إن السادات عملها، وما زال باقياً في الحكم» فإننا نقول بدورنا منذ سنة كان شاه إيران في الحكم ومنذ ثلاث سنوات كان الماريشال شان كاي شك في الحكم. ومنذ خمس سنوات كان لعملاء اميركا في سايغون صولة ودولة. أين هؤلاء الآن؟ لقد جندلتهم الشعوب وداستهم بأقدامها، ولن يكون مصير العملاء الجدد أفضل من سابقيهم.

نعود إلى مهمة الدفاع عن الخليج العربي فنقول: إن هذه المهمة هي مسؤولية الأمة العربية قبل أي إنسان آخر، ونحن لا نسمح أن يضحي أحد بدماء أبنائه من أجل الخليج، فالأمة العربية التي يبلغ عدد سكانها مئة وخمسين مليوناً قادرة على الدفاع عن الخليج وعن استقلال الخليج، مؤكدين سلفاً أنه لا توجد أي أخطار على منطقة الخليج العربي إلا في رؤوس الإمبرياليين والصهاينة من كيسنجر إلى زبيغنيو بريجنسكي. نحن في خير ما دمتم بعيدين عنا. عودوا بحاملات الطائرات والبوارج الحربية والطرادات وناقلات الجنود إلى بلادكم وستجدون أن العرب بألف خير. وأن الثورة الإيرانية الإسلامية بألف خير.

إن سورية تعتبر العمق الاستراتيجي للخليج العربي بالمقدار نفسه الذي يعتبر فيه الخليج العربي عمقاً استراتيجياً لسورية وعلى هذا الأساس فأمن الخليج يهم سورية وليس اميركا التي يفصلها عن الخليج العربي عشرات الآلاف من الكيلومترات.

إن التصريحات الصريحة والواضحة التي أدلى بها المسؤولون في الخليج العربي وخصوصاً في دولتي الكويت والبحرين تدل دلالة أكيدة على أن شعبنا العربي قد شب عن الطوق، ولم تعد ترهات المستعمرين وأكاذيبهم تنطلي على أحد هناك... لا نقبل على أرضنا العربية بأي وجود لأجنبي. هذه هي زبدة الأقوال التي أدلى بها أبناء عمومتنا في الخليج العربي.

وأخيراً، إن الأمة العربية التي لم تشاهد غير المرارة والحقد من الرئيس كارتر وممالأة أعدائها الصهاينة أقول له باسم الملايين من أبنائها أن غيرتكم المفاجئة على الإسلام لم تدخل في قناعتنا لأن من يغار على الإسلام يجب أن يغار على الأمة العربية التي قام الإسلام على سواعدها. هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإن خلطكم الأوراق بين الأصدقاء والأعداء يدفعنا إلى الاعتقاد بأننا إذا سايرناكم في فهمكم للإسلام فلن نستغرب أبداً أن تصدروا في المستقبل قراراً بتعيين مناحيم بيغن شيخاً للجامع الأزهر.

الحلقة العاشرة / بعد اغتيال رشيد كرامي قال سمير جعجع: «اخو (...) هو قدنا بدو يتحدانا» وأمر بمنع السياسيين الذين شاركوا في التشييع من العودة إلى منازلهم

تعتبر أسرة الرئيس كرامي في طرابلس من أبرز الأسر في تاريخ لبنان، فالأب المرحوم عبد الحميد كرامي قاد النضال الوطني اللبناني للتحرر من الاستعمار الفرنسي بالتعاون مع رفاقه من القيادات الوطنية اللبنانية والسورية إلى أن توفاه الله في بداية مرحلة الاستقلال من أربعينات هذا القرن.وخلفه المرحوم الرئيس رشيد كرامي وهو في ريعان الشباب، فأسهم في صنع المعجزة اللبنانية ـ اقتصادياً، وسياسياً، وثقافياً، وعندما تعرّض أمن لبنان للخطر من الحرب الأهلية التي ساهم في تأجيجها العدو، كما هو معروف، وتصدّى لهذا المخطط التخريبي قائد الأمة السيد الرئيس حافظ الأسد، كان كرامي من أبرز القيادات الوطنية التي ساعدت من داخل لبنان في المؤازرة والتصدّي. وبعد اغتياله بتاريخ ١٩٨٧/٦/١، آلت أمور القيادة في شمال لبنان إلى الأخ الرئيس عمر كرامي الذي ما زال يعمل من أجل لبنان إلى جانب قياداته الوطنية المخلصة.

تقلّد الرئيس رشيد كرامي رئاسة الوزارة اللبنانية مرات عدة، كانت احداها في عهد الرئيس سليمان فرنجية حيث اندلعت الحرب الأهلية، وكان آخرها في عهد الرئيس أمين الجميّل لوقف التدهور الذي كان يهدّد كل شيء في لبنان، والذي دفع حياته ثمناً له.

كان الواقع الذي يعيشه لبنان مأسوياً، فالصراع على أشده بين مختلف الأطراف المتنازعة، فالقوات اللبنانية التي يقودها الدكتور سمير جعجع تعرقل كلّ حل ممكن لاستعادة سلطة الدولة وسيطرتها على المؤسسات والمرافق التي تشكّل العمود الفقري للدولة والحكم، إلى جانب المجاهرة في طرح أفكاره التقسيمية، واصراره على اعتماد نظام تقسيمي يختلف عن النظام القائم آنذاك، ومحاولته الحثيثة للحصول على ترخيص لمطار «حالات»، ليكون بديلاً عن مطار بيروت، إلى جانب استغلاله بعض مرافق الدولة الحيوية مثل مرفأ بيروت، وذلك كلّه لدعم نظام مشروعه التقسيمي. وبالمقابل وقف الرئيس رشيد كرامي في مواجهة القوات اللبنانية وجعجع ليعلن أن سلطة الدولة لا تتم الا عن طريق حل

الميليشيات، وسحب السلاح ورفع اليد عن المرافئ والمرافق العامة، وأكّد موقفه بمنع جعجع من الاشتراك في الحكم بأي منصب وزاريّ رغم قبول الرئيس أمين الجميّل بذلك.

وقد توعدت القوات اللبنانية وحذّرت من خلال قائدها الدكتور سمير جعجع من مغبة استمرار كرامي في انتهاج السلبية التي ترتد وبالاً وخراباً على الوطن ومصالح الشعب، إلى جانب ارتهانه المطلق للسياسة السورية التي يسميها جعجع «الاحتلال السوري». ولكن الرئيس كرامي استخف بتهديد القوات اللبنانية وقائدها جعجع بقوله: «ان العمرَ بيد الله وليس بيد أحد وبخاصة الظالمين».

قدّم الرئيس كرامي استقالته بتاريخ ١٩٨٧/٥/٦ تحت ضغط القوات اللبنانية والمتضررين الآخرين من عودة سلطة الدولة، ولكن الرئيس الجميّل تردّد في اتخاذ موقف من الاستقالة، فحاولت القوات اللبنانية الضغط لقبول الاستقالة مباشرة، وتشكيل حكومة جديدة. وفي هذه الأجواء المتوترة طالب الرئيسان صائب سلام، وكامل الأسعد والعميد ريمون اده رئيس الحكومة بالعودة عن استقالته، ولقي هذا الطلب استحساناً لدى بعض السياسيين، وجرت مفاوضات بين الرئيس كرامي والرئيس كميل شمعون عن طريق وسيط بينهما، وقد شارفت المناقشات لوضع الخطوط العريضة للاتفاق على مشروع متكامل شبيه باتفاق الطائف لانهاء النزاع بين المتصارعين، ولثني الرئيس كرامي عن استقالته، فثارت نقمة جعجع ورأى أن يتداركه باحداث صدمة من شأنها أن تقلب الأمور رأساً على عقب. ورأى أن الحل الأنسب للوصول إلى هذه الغاية هو في وضع حد لحياة الرئيس رشيد كرامي.

بدأ جعجع التخطيط لعملية الاغتيال مع مساعديه، وكلّف غسان توما رئيس جهاز أمن القوّات اللبنانية بتدبير أمر الاغتيال، واستقر رأيهم على اغتياله خلال انتقاله بالطوافة العسكرية التي كانت تنقله إلى عاصمة الشمال (طرابلس) ثم تعود في بدء الأسبوع لتردّه إلى بيروت بعد قضاء عطلة نهاية الأسبوع من طرابلس، وحين انتهت مرحلة التخطيط الجرمي انتقلوا إلى التنفيذ بخطة محكمة شارك فيها العديد من المسؤولين والفنيين والمتعاطفين مع القوات اللبنانية، وتم زرع عبوة ناسفة في الطوافة العائدة من طرابلس بالرئيس كرامي، وضعت خلف المقعد الذي اعتاد المرحوم أن يجلس عليه، وكانت العبوة عبارة عن بطارية ماركة (YWASA) يابانية الصنع مجهزة بصاعق من صنع اسرائيلي قادر على تفجيرها عند

تلقي الاتصال اللاسلكي اللاقط وهذه البطارية من طراز NP (٦ آمبير و ١٢ فولت) زنتها نحو ثلاثمئة غرام، وبقي زارع العبوة لغزاً في هذه الجريمة. لكن آثارها المدمرة فجّرت الطائرة، وتطايرت بعض الأجزاء، ووقعت في البحر، وتبين أن الأضرار التي لحقت بركاب الطائرة كما يلي:

١ ـ وفاة المرحوم دولة الرئيس رشيد كرامي من جروح بالغة من العنق حتى الوركين، وتهشيماً في جميع أنسجة الجلد والعضلات والعظام والأوعية الدموية الكبيرة داخل القفص الصدري وقد حصلت الوفاة فوراً اثر الحادث حسب تقرير الطبيبين الشرعيين بفعل الانفجار والشظايا وتمزق القلب والأبهر والمريء والرئة...

٢ ـ اصابة الوزير الدكتور عبد الله الراسي بجروح في جبهته نتيجة دخول شظايا معدنية فيها.

٣ ـ اصابات مختلفة لطاقم الطوافة.

وبعد الاغتيال احتفلت القوات اللبنانية، وقال سمير جعجع في الاحتفال: «أخو... هو قدنا... بدو يتحدانا...»، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، فقد أصدر جعجع تعليمات بمنع السياسيين الذين ذهبوا لحفل تأبين الرئيس المغدور من الرجوع إلى منازلهم في المناطق التي يسيطر عليها جعجع مثل الوزيرين قبلان عيسى الخوري وأدمون رزق. وقامت القوات اللبنانية بتفجير سيارتين مفخختين في سوق الخضار في طرابلس بعد ذكرى الأربعين بنحو أربعة أيام وقرب المركز التربوي الذي يحمل اسم الرئيس كرامي لنشر شكوك حول هوية مرتكب حادث الاغتيال، ولابعاد الشبهة عن «القوات اللبنانية» فقد أُرسِلَ لوكالة الصحافة الفرنسية في باريس بتاريخ ١٩٨٧/٦/٢ بيانٌ باسم منظمة الثأر الاسلامي، بأنها نفّذت حكم الاعدام برئيس حكومة الاحتلال السوري، سفّاح مجاهدي الاسلام في طرابلس وبعد الاغتيال حملت لعنة استشهاد الرئيس رشيد كرامي إلى «القوات اللبنانية» وقائدها سمير جعجع النتائج المنتظرة للقتلة والمجرمين، فالقوات حُلَّت وسُحِبَ سلاحها، وسمير جعجع دخل السجن غداة تفجير كنيسة (سيدة النجاة) في الذوق، وبسبب اللعنة استثنيت الجرائم المحالة على المجلس العدلي من نعمة قانون العفو، مما أدى إلى ملاحقة جعجع بدعاوى عدة كان أكثرها وطأة عليه ملف اغتيال رئيس حزب «الوطنيين الأحرار» داني شمعون، التي كان لجعجع دور مركزي

من مراحل التحضير حتى التنفيذ والاحتفال بنجاح الجريمة مع أركان قيادته، كما حدث في عملية اغتيال الرئيس كرامي، وهما اللذان اتفقا على انهاء النزاع اللبناني، واعادة سلطة الدولة، وجعجع لا يرغب في ذلك فكان التآمر واضحاً، والصراع بيِّناً بين أبناء الوطن الحريصين على حمايته، وبين الأعداء والعملاء والتاريخ يشهد أن الدور السوري هو الباقي وبقية الأدوار إلى بوار.

اطلاق الرهائن الفرنسيين

في صيف العام ١٩٨٦ اتصلت ابنتي ناهد من باريس وأعلمتني أن الرئيس فرانسوا ميتران سوف يرسل اليك غداً العقيد جان لوي اسكافييه رئيس خلية الأمن في قصر «الاليزيه»من أجل تقديم أقصى ما يمكنك من المساعدة لاطلاق سراح الرهائن الفرنسيين الذين يحتجزهم (حزب الله) في لبنان وأردفت أن الرئيس ميتران أعطاه أمراً شفهياً بألا يعود إلى باريس الا ومعه الرهائن.

اتصلت بالرئيس الأسد وأعلمته بالموضوع فقال لي: «لقد أعلمني بذلك أيضاً السيد فاروق الشرع وزير الخارجية وقد أعطيته توجيهاً بأن يبذل أقصى جهوده مع المسؤولين الايرانيين... كما أعطيت التوجيه نفسه للعميد غازي كنعان رئيس فرع الأمن والاستطلاع في لبنان.. والمطلوب منك الآن تكثيف الضغوط الأدبية على أصدقائنا في طهران وعلى المسؤولين في (حزب الله) في لبنان من أجل انجاز المهمة بأسرع ما يمكن».

في اليوم التالي وصل ضيفنا من باريس وأخذت منه أسماء الرهائن الفرنسيين، ودعوته إلى الغداء في منزلي مع السفير الفرنسي، وتمنيت له اقامة جيدة في ربوع دمشق. وبعد أن ودعته استدعيت السفير الايراني في دمشق وسلمته رسالة إلى وزير الداخلية آية الله محتشمي قلت له فيها: «ان فرنسا هي البلد الغربي الوحيد الذي ينظر إلى قضايانا بمنظار العدالة المطلقة التي كرسها الزعيم الخالد الجنرال ديغول، الأمر الذي جعل الرؤساء الفرنسيين كافة أن يسيروا على خطاه فهل يجوز لنا تخريب هذه العلاقات المميزة بيننا وبين فرنسا وبين فرنسا ولبنان وحتى بينكم وبين فرنسا، باحتجاز بعض مواطنيها في لبنان لدى (حزب الله)؟، ولقد كلفني الرئيس الأسد الاتصال بكم لحل هذا الموضوع بأسرع ما يمكن. في مساء

اليوم نفسه التقيت في منزلي مع أربعة من المسؤولين في حزب الله* ، وقلت لهم الكلام نفسه الذي أرسلته لوزير الداخلية الايراني، وأن لا مصلحة لنا أبداً في اغضاب الشعب الفرنسي الصديق.

وبعد أيام عدة جاءتنا الأخبار الطيبة من بعلبك وطهران، بأن توجيهات الأسد واجبة التنفيذ وفي خلال ساعات سيكون الرهائن الفرنسيون لديكم، كان الرئيس الأسد سعيداً بهذا النبأ الذي نقلته اليه وأعلمت السيد فاروق الشرع بذلك وطلبت منه أن يعلم السفير الفرنسي بأن يظل في مكتبه حتى يتسلم الرهائن في مكتبكم.

بعد ساعات عدة تم تسليم الرهائن الفرنسيين في مكتب وزير الخارجية وكانت الفرحة كبيرة في دمشق وباريس لنجاح العملية. وفي اليوم التالي غادروا إلى باريس على متن طائرة خاصة أرسلتها الحكومة الفرنسية.

في مساء ذلك اليوم وجه رئيس الوزراء الفرنسي السيد جاك شيراك كلمة شكر عبر التلفزيون إلى الرئيس الأسد لأنه صاحب الفضل الأول في انجاز المهمة، كما وجه الشكر إلى كافة الذين أسهموا في نجاح العملية ومنهم رجل صديق لفرنسا وايران لا أريد أن أسميه حتى لا أسبب له احراجاً، وبعد ثلاثة أيام نشرت مجلة سويسرية مقالاً حول الموضوع وذكرت اسمي فيه بشكل صريح وقالت: «ان الجنرال طلاس هو الشخص الوحيد في المنطقة الذي يحظى بصداقة فرنسا وايران بآن معاً».

في مسبح فندق الشيراتون قابلني العقيد جان لوي اسكافييه وشكرني على المساعدة الكبيرة التي قدمتها له، وقال لي إن الرئيس ميتران سوف يوصي المسؤولين في وزارة الدفاع لترقيته إلى رتبة جنرال ومع ذلك فان المشكلة الكبيرة التي تخصني لم تحلها لي بعد!، قلت له: هل لديك مشكلة أهم من اطلاق الرهائن فأجابني: «نعم فأنا متزوج منذ سبعة عشر عاماً ولم أنجب أولادا؟» قلت له: وأنا ما علاقتي بالموضوع؟، فقال لي: في دمشق يقولون عنك إنك أقرب ما تكون إلى فولتير العالم الفرنسي الموسوعي أكثر من قربك للجنرال ديغول الذي قدمت له الزهور في صيف العام ١٩٤٣. وضحكت من أعماق قلبي وسألته اذا كان قد عرض

---

* **نصف شباب عائلتي المقيمين في لبنان وبخاصة في بعلبك متطوعين في «حزب الله» واستشهد منهم عشرة مقاتلين من اصل ٦١٢ في معارك تحرير الجنوب اللبناني من الاحتلال الاسرائيلي كما اسر اثنان مازالا مسجونين في اسرائيل.**

نفسه وزوجته على أطباء مختصين؟، فقال لي لم أوفر طبيباً مختصاً في فرنسا أو ألمانيا وحتى في اميركا الا وعرضنا أنفسنا للاختبارات المختلفة ولكن بدون نتيجة حاسمة. قلت له: اذن سوف تنفذ تعليماتي بدقة، متى تأتي زوجتك إلى دمشق؟.. فأجابني: في هذه الليلة.. قلت: ومنذ متى لم تمارس عملية الحب؟ فقال: منذ سبعة عشر يوماً. قلت له: عليك أن تنتظر أيضاً يومين لكي تكون المدة ١٩ يوماً قال لي: هل يمكنك أن تعطيني تفسيراً علمياً عن سبب اختيارك هذا الرقم؟، قلت له: ان هذا الرقم الذي لا يقبل القسمة الا على نفسه يعادل عدد الحروف الموجودة في عبارة (بسم الله الرحمن الرحيم) هذه واحدة.. ثم ان هذه المدة تسمح بتركيز أكثر للسائل المنوي، بعدها تتوجه إلى دير صيدنايا وتنام الليلة هناك بعد أن تشعل شمعة لسيدتنا مريم العذراء وباذن الله سوف يتم الحمل. قال لي: وما دخل دير صيدنايا في الموضوع؟. قلت له: لقد أردت أن أزاوج بين المسيحية والاسلام.

في المساء حاولت زوجته القادمة من باريس أن تتحرش به فقال لها: ان أوامر الجنرال طلاس تمنعني من ذلك... فقالت له: الجنرال طلاس يأمر في الميدان وليس في السرير؟.. فأدار لها ظهره وقال: سوف أعلمك غداً بكل التفاصيل.

طلبت من رئيسة الدير أن تعطيه غرفة احدى الراهبات لكي ينام بها الليلة.. ولكنها فاجأتني بكرمها وقالت لي: سوف ينام ضيفك وزوجته في غرفتي وأنا سوف أشارك احدى بناتي غرفتها.. وتمت الاجراءات كما رسمت تماماً.. واتفقنا أن نسمي الطفل مصطفى اذا كان ذكراً وصيدنايا اذا كان أنثى.. وبعد ستة أشهر تم التصوير بالأمواج فوق الصوتية «ايكو» وأعلمني الكولونيل جان لوي اسكافييه أن زوجته حامل بطفلين ذكرين وسوف يسمي الأول «مصطفى» والثاني «صيدنايا» وهكذا كان وهما يعيشان مع والدهما الجنرال في الدرك الفرنسي في منطقة النورماندي.

الحلقة الحادية عشرة: موشيه دايان قال لبطرس غالي: نحن متشابهان كلانا متزوج يهودية أكبر منه سنا ... فهل كان الزواج من يهودية جواز المرور إلى الأمانة العامة للأمم المتحدة؟

في أول لقاء بين الدكتور بطرس غالي وموشيه دايان أثناء مرافقة الأول للسادات في رحلته المشؤومة إلى فلسطين المحتلة وخلال فترة الاستراحة في فندق الملك داوود في القدس ابتسم دايان مخاطباً الدكتور بطرس غالي قائلاً:

ـ «نحن متشابهان يا دكتور غالي»، فتساءل غالي عن وجه الشبه الذي يقصده دايان، فرد الأخير مبتسماً، وقال: «كلانا متزوج من يهودية أكبر منه سناً».

فهل كان هذا الزواج من يهودية من عائلة نادلر هو فقط جواز المرور إلى منصب الأمين العام للأمم المتحدة، بالطبع ليس ذلك فقط وانما كان لهذا الزواج أهمية كبيرة في ترجيح كفة غالي ورضا الحكومة الاسرائيلية عن ترشيحه لهذا المنصب.

فمن هو بطرس غالي الأمين العام للأمم المتحدة الجديد، وكيف كانت بدايته وأصوله الأولى ومواقفه؟.

ماذا عن جذور هذا الرجل؟.

تاريخ حياته

في عام ١٩٢٢ وفي قصر فاخر يتألف من مئة غرفة ولد بطرس غالي في حي الفجالة في وسط القاهرة، حيث عاش في هذا القصر مع أخوين فقط والجد بطرس باشا غالي ـ رئيس وزراء مصر في نهاية العقد الأول من هذا القرن ـ وعمين تولى أحدهما وزارة الخارجية والآخر الزراعة. «ولدت وفي فمي ملعقة من الذهب» كما يقول عن نفسه، «مما فرض عليّ حياة من نمط خاص وفي أجواء سياسية خاصة». تلقى بطرس غالي تعليمه في المراحل الابتدائية والثانوية في المدارس الأجنبية في القاهرة وحصل منها على البكالوريا الفرنسية وبعدها البكالوريا العربية ثم التحق

بجامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة حالياً) كلية الحقوق التي تخرج منها عام ١٩٤٦.

بعدها حصل على درجة الدكتوراه من باريس عام ١٩٤٩.

وبعد عودته إلى مصر عمل مدرساً للقانون الدولي بكلية الحقوق ـ جامعة القاهرة وتدرج في سلك هيئة التدريس الجامعي حتى نال درجة الأستاذية ورئاسة قسم القانون الدولي في الكلية.

كان أحد المشاركين في انشاء كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ـ جامعة القاهرة ـ في عام ١٩٦٢، ليصبح أستاذاً بها بعد ذلك.

سلك الطريق الأكاديمي مبتعداً تماماً عن الانتماء لأي حزب من الأحزاب منذ عودته من فرنسا وحتى منتصف الستينات حيث عين عضواً بالأمانة العامة للاتحاد الاشتراكي العربي. دخل مجال الكتابة الصحافية فعمل كاتباً بالأهرام وانتسب إلى نقابة الصحافيين ثم تولى رئاسة تحرير مجلة «السياسة» الدولية، كما ساهم في انشاء مركز الدراسات السياسية بالأهرام.

مع بداية تسلم السادات للسلطة وانفتاحه على الغرب وجد في الدكتور بطرس غالي ركناً مهما، حيث للأخير فلسفة سياسية ليبرالية تتوافق ومرحلة السادات الجديدة في الانفتاح على الغرب. ومن هنا بدأ نجم الدكتور غالي يلمع في مصر حتى شارك السادات في زيارته المشؤومة للأرض المحتلة كوزير دولة للشؤون الخارجية ثم وزيراً للخارجية بالوكالة اثر استقالة وزير الخارجية محمد ابراهيم كامل. لم يمنعه المنصب الوزاري من الاستمرار في نشاطاته الصحافية والعلمية والاجتماعية المختلفة حيث تولى في الفترة نفسها منصب رئيس الجمعية المصرية للقانون الدولي، وأسس الصندوق المصري لاعانة افريقيا.

كما كان وبشكل شبه دائم يمثل المبعوث الشخصي لرئيس مصر إلى دول افريقيا، حيث تربطه علاقات قوية، كواحد من القلائل الذين يتفهمون طبيعة القارة الافريقية.

عمل أيضاً أستاذاً زائراً في الجامعات الاميركية والفرنسية والسويسرية وهذا أيضاً ترك بصمة واضحة في أسلوب عمل الدكتور غالي.

في آخر تعديل وزاري بعد انتخاب الدكتور عصمت عبد المجيد ـ وزير الخارجية السابق ـ أميناً عاماً لجامعة الدول العربية سمي بطرس غالي نائباً لرئيس وزراء مصر للشؤون الخارجية وكان ذلك تمهيداً لانتخابه أميناً عاماً للأمم المتحدة.

الأصـول

بطرس باشا غالي ـ الدكتور بطرس غالي. ما أكثر التشابه بين الحفيد والجد، بين الفرع والأصل.

ودرجة التشابه تبدأ بالقرابة واسم الشهرة لكنها تتشابه تماماً في واقعتين، الأولى: قام بها الجد وانتهت، وكوفئ عليها من بريطانيا العظمى ـ في ذلك الزمان ـ لكن الحس الوطني وضع نهايتها على يد الشاب ابراهيم الورداني الذي أنهى حياة بطرس باشا غالي وحولها إلى سطور سوداء في تاريخ مصر، ليس أكثر.

أما الواقعة الثانية: فتختلف قليلاً في كون الحفيد، كوفئ عليها قبل الفعل بناء على حيثيات كثيرة سابقة. لأن ما قدمه الحفيد سابقاً وما يتوقع أن يقدمه كان أكبر مما قدمه الجد.

الأول: بطرس باشا غالي، تولى رئاسة المحكمة البريطانية الخاصة المشكلة في يونيو (حزيران) ١٩٠٦ لمحاكمة أهالي دنشواي، احدى قرى محافظة المنوفية بسبب تهمة ليس لها أساس من الصحة، فقط مجرد تصدي أهالي القرية المذكورة لضابطين بريطانيين تسببان في مقتل احدى سيدات القرية عند قيامهما بالصيد واصابة عدد من الفلاحين، مما سبب الرعب في قلب الاثنين وجعلهما يكملان طريقهما سيراً على الأقدام تحت شمس الصيف المحرقة، هرباً من الأهالي مما تسبب عنه اصابتهما بضربة شمس ووفاة أحدهما.

وفوراً تشكلت محكمة بريطانية خاصة برئاسة بطرس باشا غالي الذي قام بالحكم والتنفيذ بشكل فوري على قرابة الخمسين مواطناً مصرياً بعقوبات جائرة تتراوح بين الاعدام والمؤبد والجلد.

وبعد أقل من عامين وفي عام ١٩٠٨ تولى بطرس باشا غالي رئاسة وزراء مصر بعد أن نجح الحاكم البريطاني في اقناع خديوي مصر بهذا التعيين.

أما الحفيد الدكتور بطرس غالي فهو الرجل الديبلوماسي الذي لكلامه وجهان كما لحياته وجهان، فهو عندما وقف أمام السادات ليحلف اليمين الدستورية بمناسبة تعيينه وزيراً للشؤون الخارجية، ممسكاً بورقة صغيرة في يده مكتوبة بالعربية متلعثماً في أداء القسم.

عاتب الرئيس السادات كبير الياوران هامساً «لماذا لم تكتبوا له القسم بالفرنسية فهو بارع فيها أكثر».

وعندما دخل بطرس غالي الوزارة قادماً من الجامعة، أكاديمياً يحترمه الطلاب وهيئة التدريس، لم يكن أحد يعرف بشكل دقيق مع من يقف بطرس غالي.

في منتصف الستينات ـ كما أسلفنا ـ بدأ يقترب من العمل السياسي المباشر فكان عضواً بالأمانة العامة للاتحاد الاشتراكي واستمرت به الأيام ليصبح عضواً بارزاً بالأمانة العامة للحزب الوطني الديموقراطي، بالاضافة إلى عضوية مجلس الشورى ومجلس الشعب في بعض الفترات. ولم يضع يوماً فرصة الكتابة عن «عروبة مصر» في صحافة الثورة ارضاءً للزعيم الراحل جمال عبد الناصر. هذا بالاضافة إلى مؤلفاته العديدة عن الاشتراكية في الستينات ليمارس عكس ذلك الحديث عن الليبرالية ويؤلف باهتمام عن القانون الدولي.

وكما وصفه زملاؤه في الخارجية المصرية «الديبلوماسي هو الذي يشرح للرئيس ما هو مفروض القيام به، أما بطرس غالي فهو يفضل أن يقول ما يوافق أو يرضى عنه الرئيس».

كوفئ الدكتور بطرس غالي على مقدمات عديدة يذكر منها أنه أثناء ندوة عقدت في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية في جامعة القاهرة، وبعد أن تحدث أحد رؤساء تحرير الصحف الرسمية في مصر حول التآمر الذي ينفذه الشمال الغني ضد الجنوب الفقير، قاطعه الدكتور بطرس غالي صارخاً: «هذا كلام فارغ وليس له معنى.. هذا الكلام هو السبب في تأخرنا، انكم تعتقدون أن كل الناس يتآمرون علينا وهذا غير صحيح.. هذا كلام فارغ».

وبالطبع كان الرد يمثل صدمة للحضور من رجل يفترض أنه رهن حياته للحوار بين الشمال والجنوب، والحديث عن العدل في النظام العالمي،

ويرى أن التفاوت بين شعوب الأرض يشكل خطراً على الحضارة الانسانية بكاملها.

وهو لا يملك وجهين لكلامه وتاريخه فقط، وانما لحياته أيضاً نصفان. نصف عربي بالمولد وبالشيخ الأزهري الذي علمه العربية ليحصل على البكالوريا المصرية كما حصل على البكالوريا الفرنسية. ونصف فرنسي وغربي بالدراسة واللغة حيث حصل على البكالوريا الفرنسية والدكتوراه من فرنسا، وعلّم في جامعات فرنسا وسويسرا واميركا.

نستطيع أن نلخص القول في مسألة الأصول.

إن الدكتور بطرس غالي الأمين العام للأمم المتحدة ونائب رئيس الوزراء للشؤون الخارجية في مصر سابقاً وقبلها وزير الدولة للشؤون الخارجية والأكاديمي المعروف في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية والصحافي المعروف رئيس تحرير مجلة «السياسة الدولية» الخ. نستطيع القول إن ليس الأول أو الثاني في هذه العائلة الذي له باع طويل في الديبلوماسية المشبوهة المخضرمة.

تولى غالي الأكبر منصب ناظر المالية في عهد محمد علي باشا الكبير بعده تولى ناروز غالي منصب ناظر الخاصة الخديوية في الجيل التالي.

ثم بطرس باشا غالي السياسي والمحامي الذي عمل لصالح الانتداب البريطاني على مصر في عهد الخديوي عباس، لتصل به ديبلوماسيته المشبوهة إلى منصب رئيس وزراء مصر في الفترة من ١٩٠٨ إلى ١٩١٠.

كذلك واصف باشا غالي وزير خارجية مصر في الجيل الرابع.

ليطلع علينا الجيل الخامس بالدكتور بطرس غالي الأمين العام الحالي للأمم المتحدة وشقيقيه الأول عمل فترة ليست قليلة في احدى منظمات الأمم المتحدة، أما الثاني فيعمل في مجال السياحة والانفتاح.

هذا غير السيد يوسف غالي ابن شقيقة الدكتور بطرس غالي ويعمل مستشاراً اقتصادياً للدكتور عاطف صدقي رئيس وزراء مصر، وقد لعب دوراً مهما في مباحثات مصر مع الصندوق النقدي الدولي ومع نادي باريس التي أسفرت عن اسقاط نصف ديون مصر.

مواقفه وأفكاره

يرى الدكتور بطرس غالي أن تصنيف مصر كدولة عربية من دول شمال افريقيا يعتبر خطأً كبيراً، فمصر في نظره افريقية ويجب أن تلعب دورها المستقبلي على هذا الأساس فيقول بالنص: «هناك عيب خطير في تقسيمات الأمم المتحدة حين يجعلون مصر جزءاً من افريقيا الشمالية مع دول المغرب العربي، بينما لو بحثنا عن التقسيم الجيوبوليتكي ـ أي الجغرافيا السياسية ـ لا بد أن يضم مصر والسودان وأثيوبيا وأوغندا واعتبار مصر جزءاً من حوض النيل».

ومن خلال هذه النظرة فهو يؤكد على أن مصالح مصر تتركز في كونها افريقية وليس في أنها جزء من الأمة العربية.

كما أنه القائل: «إن ما يؤرقني الآن قضية الصراع بين الشمال والجنوب، فاتساع الفجوة بين الدول الغنية في الشمال والفقيرة في الجنوب يمكن أن تؤدي إلى حدوث كارثة عالمية تفوق في آثارها المشاكل الاقليمية».

حرص الدكتور غالي منذ دخوله الحياة العملية بعد حصوله على الدكتوراه على أن ينهج في عمله أسلوب لاعب الأكروبات الذي يجيد حفظ توازنه في اللحظة المناسبة، مهما استلزم ذلك من تغيير في المواقف وحركات اضافية للقيام بالعمل على وجه أكمل، مادام ذلك يحقق الهدف الذي من أجله يلعب الأكروبات.

فهو قد تحدث عن عروبة مصر في جريدة الجمهورية القاهرية في الخمسينات بطريقة لفتت الأنظار إلى عروبته النظرية لدرجة أن المهندس المعماري الكبير حسن فتحي قال له بالحرف: «انك تكتب لكي ترضي عبد الناصر، ومن الأفضل أن تكتب ما تؤمن به وما يتفق مع منابعك الثقافية».

ولكنه لم يكن في حاجة لمن ينصحه للتعبير عما في داخله فهو قد عاد في وقته المناسب ليقول في العروبة: «ان العروبة مذهب سياسي برز في القرن العشرين، ان العروبة مذهب سياسي كالمذهب الديموقراطي والشيوعي، أو الاشتراكي، أو الحركة الاتحادية في أوروبا، أو في اميركا، وغير ذلك من المذاهب والدعوات التي اعتنقتها الشعوب وفي سبيلها تكافح».

وهكذا رسم الدكتور بطرس غالي لنفسه علاقة متوازنة مع حكم الرئيس الراحل جمال عبد الناصر، حيث استطاع أن يجتاز فترة الخمسينات والستينات بسلام في اطار معاهدة غير مكتوبة تتميز بالصمت فيما يتعلق بأي تفسيرات لمبادئ وأهداف ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ واهتمامه فقط بالعلم والتدريس مع مغازلة السلطة بين الحين والآخر بشكل مباشر وغير مباشر، مما أتاح له أن يتدرج في سلك هيئة التدريس والعمل الأكاديمي بدون حدوث مشكلات تذكر ليصل إلى أعلى المراتب العلمية في كليتي الحقوق والاقتصاد والعلوم السياسية.

وليبدأ في منتصف الستينات وبالتحديد في عام ١٩٦٥ باقتحام مجالات العمل السياسي الرسمي من خلال تعيينه عضواً بالأمانة العامة للاتحاد الاشتراكي العربي ليخطو بعد ذلك ومع بداية السبعينات بخطوات سريعة في اتجاه الصعود إلى الأعلى، حيث برزت حاجة السلطة الممثلة بأنور السادات إلى الدكتور بطرس غالي وأمثاله بالدرجة نفسها التي كان يحتاج فيها الأخير إلى السلطة لكي يصعد ويحقق ما كان يطمح اليه دوماً.

ومع استلام السادات للسلطة أصبحت فرصة الدكتور بطرس غالي في التعبير عن نفسه وأفكاره ميسرة بشكل أفضل، حيث طرح وبكثرة أفكاراً متعددة حول الديموقراطية والاشتراكية الليبرالية وكيفية ترجمة ذلك إلى واقع عملي يتناسب مع مرحلة السادات.

حيث يقول: «في ميدان نظام الحكم يجب أيضاً أن نبحث ونجتهد لنصل إلى ذلك النظام الوسط الذي يجعل العلاقة بين الحاكمين والمحكومين علاقة اخاء.. »

ليصل بتصوراته إلى: «انا في أمس الحاجة إلى معارضة جديدة تناقش وتمحص وتعارض، اذا أردنا أن نشرك في البناء كل من يقام البناء من أجلهم دون أن نفرضه عليهم فرضاً فسيستثقلونه على ما قد ينطوي عليه من نفع وخير».

ولا ينسى أن يستغل الظروف ليعبر بشكل واضح عن أفكاره المسمومة عن القومية العربية دون أن يتناسى دور القومية المصرية الفرعونية - كما يسميها - في محاولات واضحة لافراغ القومية العربية من مضمونها.

حيث يقول: «ليس لدينا احصاءات دقيقة عن الأجناس المختلفة التي يتكون منها عالم العرب اليوم، غير أن المفهوم هو أن العنصر العربي

الصافي لا يكاد يتجاوز عشرة ملايين، أما الباقون فتتنحدر أصولهم من أجناس مختلفة من أقباط، سوريان وبربر ونوبيين وآراميين وفينيقيين اندمجوا في القومية العربية وكونوا أمة واحدة تعبر عن تضامنها وترابطها، بتلك العبارة اليسيرة الساذجة كلنا عرب».

أما عن موقف الدكتور بطرس غالي من الصراع العربي ـ الصهيوني فهو ـ وقبل مشاركة السادات في رحلته إلى الأرض المحتلة- قد وضع أفكاراً متكاملة عن مشروع اتفاقية السلام.

ودائماً كان يؤكد على ضرورة التعايش السلمي مع اسرائيل وانه لا وسيلة إلى ذلك سوى المفاوضات المباشرة، كما أنه يرى أن مشكلة الصراع اذا لم تسو في هذه الآونة فانها لن تسوى أبداً.

وقد تحدث في أكثر من مناسبة، بأن قضية «الصراع العربي ـ الاسرائيلي ورغبته في ايجاد حل لهذا الصراع هي التي دفعته للمعترك السياسي».

وهذا التصريح لغالي يعطي دلالة واضحة على أهمية وجوده إلى جوار السادات منذ الزيارة المشؤومة التي قام بها إلى الأرض المحتلة في نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٧٧. ليلمع نجم بطرس غالي على المستوى الدولي معبراً عن سياسة مصرية تدعو إلى التفاوض والمصالحة مع العدو الصهيوني.

وهذا ما دفع دائماً بالدكتور غالي لأن يطلب من موشيه دايان ـ أثناء المباحثات ـ بأن «علينا أن نجعل من زيارة السادات زيارة ناجحة بالاستمرار في مباحثاتنا المشتركة ومحاولة الوصول إلى معاهدة حول جميع النقاط المطروحة».

ليرد عليه دايان قائلاً «نحن وبكل قلوبنا نفضل استمرار المباحثات ومستعدون للقاءات في أي مكان وزمان».

ولكنه وبعد مرور سنوات على عقد معاهدتي كامب ديفيد كان دائم التأكيد أن البداية في طريق السلام لم تتم بعد وكما صرح قبل عامين ونيف: «ان طموحي سيتركز بالطبع على السلام ـ ولكن لنكن متواضعين ـ انني أرى أن بداية الطريق لحل المشكلة الفلسطينية يتطلب سنوات من العمل ولكن لنبدأ فقط.. ولسوء الحظ لم نبدأ بعد».

غالي فـي الأمم المتحدة

عندما رشح الدكتور غالي لتولي منصب الأمين العام للأمم المتحدة عقب قائلاً: «لو عرض عليّ منصب الأمين العام للأمم المتحدة قبل سنوات لرفضته، فالأمم المتحدة كانت ضعيفة».

ويوضح الدكتور غالي مقصده بأنه في اطار التوازن الاميركي السوفياتي ووجود تشكيلات وكتل مثل عدم الانحياز والكتلة الشرقية وتنسيق مواقف هذه التشكيلات في الجمعية العامة للأمم المتحدة، كان يؤدي دائماً إلى استصدار قرارات عدة لصالح دول العالم الثالث، وفي الوقت نفسه استخدام الولايات المتحدة لحق الفيتو في مجلس الأمن لمنع صدور قرار ما لصالح هذه الدول. كان يعني تناقضاً مما أدى إلى تجريد الأمم المتحدة لأهميتها نتيجة هذه التناقضات، وهذا يوضح لماذا كان تعقيب بطرس غالي على ترشيحه الذي أسلفنا ذكره، وما هو الدور المنوط به في المرحلة المقبلة من عمر هذه المنظمة الدولية.

وهنا لابد أن نؤكد على ملاحظة مهمة هي أن الدكتور غالي، أكد وبكل ثقة عن فوزه بمنصب الأمين العام للأمم المتحدة، قبل أن تجري هذه الانتخابات بفترة شهر على الأقل، وجدير بالذكر اللقاء مع مجلة مصرية تسمى (نصف الدنيا) قبل الانتخابات بخمسة أسابيع حيث أكد للمحررة عن ثقته الشديدة في الفوز بالمنصب وتجاوز ذلك في الحديث كأنه أصبح بالفعل أميناً عاماً للأمم المتحدة.

الحلقة الثانية عشرة: اغتيل بشير الجميل بعبوات ناسفة وضعت في مقر الكتائب في ١٤ سبتمبر عام ١٩٨٢ وعلى الفور قالت وكالات الأنباء إن إسرائيل وراء الانفجار عدا إذاعة الكتائب

قبل القاء الأضواء على الغزو الاسرائيلي للبنان، لابدّ من القول انّ هدف الغزو الاسرائيلي هو اخضاع لبنان لمشيئة الأطماع الاميركية والمخططات الاسرائيلية تمهيداً لدفعه إلى الارتماء في الخندق المعادي للأمة العربية، والانفراد بسورية وبقوى الثورة الفلسطينية، وابقاء العرب في زمن الوهن والضعف والتمزق.

بدأ التآمر المكشوف على لبنان عندما وقع أنور السادات اتفاق الكيلو «١٠١» مع العدو الصهيوني، وتلاحقت الأحداث على الساحة اللبنانية بشكل سريع من خلال تطورات الأحداث السياسية واستغلال الأوضاع الحساسة في لبنان. وبدأ مسلسل الاغتيالات على الهوية والمجازر الدموية التي نفذها الكتائبيون في عين الرمانة ومنطقة الدكوانة، ضدّ اخواننا الفلسطينيين.

في هذه الفترة كان التناغم الساداتي - الكتائبي واضحاً لمتابعة تنفيذ المؤامرة على لبنان. وبدأت عمليات الاغتيال والخطف وتمحورت الأحداث في بيروت، وانفجرت حرب الكرنتينا وتلتها حرب الدامور، وظهرت بوادر الانقسام الطائفي في الجيش اللبناني، وفي ٨ آذار (مارس) ١٩٧٦ كانت مجزرة بيروت.

في ٢٠ تموز (يوليو) ١٩٧٦ ألقى الرئيس حافظ الأسد خطاباً قومياً شرح فيه الموقف على الساحة اللبنانية، ووضع القوات السورية بتصرف السلطة الشرعية اللبنانية. وتألفت قوات الردع العربية بإمرة الرئيس الياس سركيس استناداً إلى قرار مؤتمر القمة السادس في الرياض، ودخلت القوات السورية لبنان دفاعاً عنه وحفاظاً على استقلاله، وحقناً للدماء ومنعاً للتقسيم، واعتبر القطر العربي السوري الوثيقة الدستورية التي وقعها الرئيس سليمان فرنجية نصراً وطنياً كبيراً.

وعندما استتب الأمن وعاد الهدوء إلى لبنان، خرجت اسرائيل من صمتها وأعلنت أنها لن تسمح للقوات السورية العاملة ضمن قوات الردع العربية، بتجاوز الخط الأحمر وكشفت نياتها وفضحت أهدافها. وبعد رحلة العار

التـي قـام بهـا الـسادات إلـى القـدس العربيـة المحتلـة، انفجـر الموقـف فـي العاصمة اللبنانية، وانطلقت الشرارة من ثكنة الفياضية، ونصب الكتائبيون الكمائن لقتل عناصر قوات الردع العربية.

وكانت دمشق موطن الأمل والرجاء في تحقيق الأمن وحقن الدماء، ولكن هذا الموقف لم يكن مناسباً لاسرائيل وأتباعها في المنطقة، فقامت باجتياح عسكري للجنوب اللبناني في ١٥ آذار (مارس) ١٩٧٨.

وأعلن السادات عن مجازر ستشمل لبنـان بكاملـه، وابتدأت هذه المجـازر بالفعل في اهدن والبقـاع وعين الرمانـة، وقضى لبنـان صيفاً حـاراً تخللتـه اشتباكات دموية وهجمات متكررة على القوات السورية العاملة في لبنـان، وتـصدى الطيـران العربـي الـسوري بكـل بـسالة للطيـران الاسـرائيلي فـي سماء لبنان ومنعه من تحقيق أهدافه العدوانية.

وتلاحقت الأحداث بسرعة على الساحة اللبنانية، ونشطت القوات الكتائبيـة فـي أعمـال الاغتيـال والتـصفية الجـسدية، كـان ضـحيتها العديـد مـن شـبان لبنـان الـوطني منـهم: كمـال جنـبلاط، وطـوني فرنجيـة نجـل سيادة الـرئيس سليمان فرنجية ـ والمناضل الفلسطيني زهير محسن. وتـأزم الموقف فـي مدينـــة زحلـــة ووقعـــت خـــسائر كبيـــرة فـــي صـــفوف المـــدنيين اللبنـــانيين والفلـسطينيين. ومـرة أخـرى تـدخلت القـوات الـسورية لوقـف المعـارك وايقاف التهجير.

ولكنّ الفئات اللبنانيـة المتـآمرة علـى لبنـان، تابعت نـشاطها الهدام وراحت تـستمد القوة مـن أميركـا تـارة، ومـن اسـرائيل تـارة أخـرى... ورافـق هـذا التـآمر تحركـات اميركيـة مشبوهة حتـى تـوافرت الظـروف الملائمـة لـشن عدوان اسـرائيلي غـادر واسـع النطـاق، هدفـه تقـويض مـا حاولـت سـورية بنـاءه خـلال فترة وجودهـا فـي لبنـان وضـرب البنيـة العسكرية الفلسطينية واخراج القوات السورية من لبنان.

واستفاق العالم صباح يوم ١٩٨٢/٦/٤ ليستمع إلى أخبار مؤكدة مفادها أنّ الطـائرات الحربيـة الاسـرائيلية بـدأت تقـصف مواقـع ومنـاطق مختلفـة مـن لبنان قصفاً كثيفاً، زاعمة أنّ هذه الأعمال العدوانية هي ردود فعل انتقامية لحادثة اغتيال سفير اسرائيل شلومو آرغون في لندن.

ولكـن سـرعان مـا اتـضحت الحقـائق، فقـد اجتاحـت القـوات الاسـرائيلية الجنوب اللبناني تحت ستار كثيف من نيران البر والجو والبحر وتجاوزت

حدود الـ ٤٠كم التي أعلنت عنها، وهي أنها قد تلقت أمراً بدفع الفلسطينيين إلى الوراء كي تتيح لسكان منطقة الجليل العيش بسلام. وتجاوزت القوات الاسرائيلية صيدا، ثمّ زجت بقوات جديدة فاقت كل التقديرات الأولية مع دعم جوي واسع النطاق اشتركت فيه أحدث الطائرات الحربية المقاتلة الاميركية الصنع من طراز (اف ١٥ واف ١٦) وقامت بعدد من الانزالات الجوية والبحرية. وفي نهاية الأسبوع الأول من عملية «سلامة الجليل» كانت القوات الاسرائيلية قد توغلت أكثر من ٦٠كم في عمق الأراضي اللبنانية.

ومنذ اليوم الأول للغزو تصدّت القوات السورية في البر والجو للقوات الاسرائيلية الغازية. وجسّدت سورية هذا الموقف عملياً حين هبّت إلى نجدة لبنان ودفعت بقواتها إلى ساحة المعركة، وتحمّلت في سبيل ذلك الأعباء والتضحيات الكبيرة انطلاقاً من واجبها القومي وادراكها العميق لمعاني الأواصر الأخوية التي تربط بين سورية ولبنان. وعلى الرغم من تصدي القوات السورية والفلسطينية والقوى الوطنية اللبنانية البطولي، تابعت القوات الاسرائيلية تقدمها وفرضت الحصار على بيروت العاصمة.

وبعد حصار طويل، خرجت القوات السورية والفلسطينية من بيروت لتأخذ مواقعها القتالية الجديدة في البقاع. ولم يكن خروج هذه القوات في آخر الأمر الا بسبب تلك الخسائر البشرية والمادية التي نزلت بالسكان المدنيين، ولأنّ دمار بيروت فوق رؤوس أهلها لم يكن احتمالاً بل كان حقيقة واقعة.

وتتابعت الأحداث السياسية وتلاحقت مع الأعمال القتالية التي نشبت في مناطق الجبل بين القوات السورية والاسرائيلية، وجرى اغتيال بشير الجميّل بتفجير عبوات ناسفة في مقر قيادة حزب الكتائب في ١٤ أيلول (سبتمبر) ١٩٨٢، وعلى الفور قالت وكالات الأنباء، عدا اذاعة الكتائب، أنّ الانفجار عمل قامت به اسرائيل.

وتحرك الجيش الاسرائيلي الذي استقدم قوات جديدة إلى بيروت الغربية، واندفعت القوات الاسرائيلية إلى قلب المدينة من الشرق والغرب والجنوب، وخلال ٢٤ ساعة، سقطت عاصمة لبنان في أيدي الغزاة الاسرائيليين، وتمكن الجيش الاسرائيلي من تحقيق ما لم يجرؤ على محاولته أثناء وجود القوات السورية في المدينة، وحدثت مذبحة صبرا

وشاتيلا، وذهب ضحيتها مئات القتلى من النساء والشيوخ والأطفال - والمذبحة كانت من تخطيط اسرائيل وتنفيذ الكتائب المدربين تدريباً جيداً في اسرائيل.

وفي اطار متابعة تصعيد الموقف الاسرائيلي في عدوانها على لبنان من جهة، ثمّ تغطية لاخفاق العدو الصهيوني في وضع حد للعمليات الفدائية اللبنانية خلف الخطوط من جهة أخرى، برزت حقائق عديدة أهمها أنّ العجز الصهيوني وصل إلى مرحلة الخوف من دفع فاتورة الحساب ثمناً للغزو، ومن معاناة القوات الاسرائيلية في لبنان.

لذلك كان لابدّ من الاسراع في الأمور للوصول إلى اتفاق مع لبنان يحقق المكاسب السياسية المطلوبة. وتحقق ذلك عندما وافق المجلس النيابي اللبناني في ١٩٨٣/٦/١٥ على اتفاقية الاذعان.

وعلى ضوء التقويم الموضوعي والشامل الذي فنّد به السيد الرئيس حافظ الأسد بنود هذا الاتفاق ومخاطره الجسيمة على لبنان وسورية والأمة العربية، فاننا نستطيع القول أنّ هذا الاتفاق جعل لبنان امتداداً جغرافياً لاسرائيل وحوّله إلى بلد حليف للكيان الصهيوني، وجاء مكافأة من الامبريالية الاميركية للمعتدي.

وعلى هذا الأساس رفضت سورية الاتفاق جملة وتفصيلاً وأعلنت موقفها منه بصراحة وأكدت أنه خيانة كبيرة للبنان وللأمة العربية.

لقد واجه الجيش العربي السوري بشجاعة الثقل الأساس للغزو الصهيوني للبنان وعلى الرغم من أنّ انتشار القوات السورية قبل الغزو كان لأغراض أمنية، لا دفاعية، فقد أنزلت قواتنا المسلحة بالعدو خسائر كبيرة ومنعته من احتلال البقاع، ثمّ من السيطرة على طريق دمشق - بيروت.

أولاً: خلفيات الصراع

يدخل الغزو الاسرائيلي للبنان في صيف ١٩٨٢ في اطار الأعمال العسكرية التي تخدم الاستراتيجية العليا في المنطقة العربية، والتي تعهدت الدولة الصهيونية القيام بها، مقابل حصولها على دعم الولايات المتحدة في مختلف المجالات الاقتصادية والسياسية والعسكرية. الا أنه يدخل في الوقت ذاته في اطار الأعمال العسكرية الرامية إلى خدمة الاستراتيجية الصهيونية وتحقيق أغراضها الآنية والمستقبلية.

ومن هذا التطابق في أغراض الاستراتيجيتين الاميركية والصهيونية، تولدت فكرة العدوان على لبنان ونفذت القوات الاسرائيلية الاجتياح الذي اعتبره وزير الخارجية الأميركي الكسندر هيغ «فرصة نادرة لتحقيق أهداف استراتيجية مشتركة لأميركا واسرائيل».

الأطماع الصهيونية في لبنان

ادعت الأوساط الصهيونية أنها راغبة في الدفاع عن أمن مستعمرات الجليل، وحماية السكان المدنيين من القذائف المنطلقة عبر حدود لبنان الجنوبية، في حين كانت تعد لعملية عسكرية هجومية، تستهدف السيطرة على جنوب لبنان، الذي تعتبره الاستراتيجية الصهيونية جزءاً من المجال الحيوي للدولة العبرية ومنطقة مهمة يشكل التوسع فيها أحد مرتكزات بناء تلك الدولة.

وعكفت الحركة الصهيونية منذ نشوئها على تحقيق أحلام هرتزل التي تحدث عنها في كتابه «الأرض الجديدة ـ الأرض القديمة» والتي تطالب بضم المناطق الغنية بالمياه إلى رقعة الأرض التي تطمع بالاستيلاء عليها لانشاء الوطن اليهودي «وتأمين المجال الحيوي للنشاطات الاستعمارية».

وهذه الأطماع يمكن تحديدها جغرافياً في شقين:

١ ـ الأرض: احتلال الأراضي اللبنانية الواقعة جنوب خط صيدا ـ القرعون ـ البيرة ـ بيت جن واغتصابها.

٢ ـ المياه: الاستيلاء على أكبر نسبة ممكنة من مياه نهر الليطاني.

يتضح مما تقدم، أنّ الصهيونية وجدت منذ أن قررت انشاء دولتها في فلسطين، أنّ هذه الدولة ذات موارد مائية ضئيلة لا تكفي لمشروعات التوسع السكاني والاستيطاني. لهذا توجهت حتى قبل قيام «الدولة» إلى البحث عن مصادر رديفة للمياه لدى البلدان العربية المتاخمة، حيث توجهت أطماعها، خاصة نحو مياه نهري الليطاني والحاصباني.

وكانت الحجة التقليدية للدوائر الصهيونية أنّ مياه الليطاني والحاصباني تذهب هدراً، وأنها تستطيع أن تستغل هذه المياه بفعالية أكبر.

المساعي الاسرائيلية

مع اندلاع الحرب الأهلية في لبنان، وجد الصهيونيون الفرصة الذهبية التي ساهموا في اعدادها وانضاج ظروفها، من خلال التحريض الاعلامي والعدوان المستمر على أراضي لبنان، وانتهاك أجوائه ومياهه الاقليمية واستعداء بعض فئات شعبه ضدّ البعض الآخر، وكان من الطبيعي أن تمد (اسرائيل) يد المساعدة إلى القوى الانعزالية، التي يطلق عليها الاعلام الصهيوني وبعض أجهزة الاعلام الغربية تجاوزاً اسم القوات المسيحية أو الميليشيات المسيحية، امعاناً منها في التفرقة واذكاء روح الطائفية، وهناك عشرات الأدلة والمؤشرات التي تؤكد تورط الجبهة اللبنانية في التعاون مع العدو قبل الحرب الأهلية وخلالها وطوال الفترة التي تلتها ونجاح الاسرائيليين في استغلال تلك الجبهة وتسخيرها لتحقيق أغراض صهيونية بحتة، ولقد جاء تقرير لجنة كاهان المكلفة بالتحقيق في مجازر صبرا وشاتيلا، ليقدم دليلاً جديداً ومن قلب معسكر العدو، على مدى تعاون الجبهة اللبنانية مع الصهيونيين ضدّ كل ما هو عربي وتقدمي في لبنان.

دور سورية القمعي لتهدئة الصراع

كان المنطق القومي نقطة الانطلاق في تعامل سورية مع الحرب الأهلية في لبنان، فعلى أساس هذا المنطق وبسبب الادراك الصحيح لحقيقة العلاقة المتبادلة بين الأمنين القومي والقطري، اعتبرت سورية أنّ تحقيق الأمن في لبنان يوفر الجهد والدم العربيين ويخدم بالتالي مصالح الأمن القومي.

وعندما كانت سورية جاهدة في معالجة الحرب الأهلية اللبنانية وفق الحل العربي الهادف إلى التهدئة والمضاد للحل الاسرائيلي الهادف إلى التفجير، وبينما كان الجهد السوري منصباً على استقطاب قوى الخط العربي المقاوم والعمل على حشدها، حققت الولايات المتحدة، اختراق النظام المصري الذي غدا رأس الحربة في الخط العربي المهادن، وأدى انسحاب هذا النظام من الصراع العربي ـ الصهيوني، وتدفق المساعدات العسكرية الاميركية إلى الدولة الصهيونية إلى اختلال ميزان القوى في المنطقة لصالح العدو، واتساع حرية العمل أمام العسكرية الاسرائيلية التي وجدت نفسها في وضع يسمح لها بتهديد القطر العربي السوري ومتابعة دورها التفجيري في لبنان.

ومنذ ذلك الحين بدا على الأرض اللبنانية صراع حاد بين الحل العربي الذي حملت سورية لواءه، والحل الاميركي - الاسرائيلي التفجيري المتعارض مع عروبة لبنان وسيادته وسلامة أراضيه، ولقد أخذ هذا الصراع أشكالاً متعددة وساهمت القوى المحلية فيه حسب امكاناتها وأساليبها. واذا كانت سورية والثورة الفلسطينية والقوى اللبنانية الوطنية قد مارست خلاله الكثير من ضبط النفس وأظهرت في مراحله المختلفة قسطاً كبيراً من المرونة، بغية تجنيب لبنان مغبة العودة إلى دوامة الحرب الأهلية، فانّ الولايات المتحدة واسرائيل والقوى الانعزالية اللبنانية، كانت تضغط باتجاه التفجير، وتستعد للسير على طريق الخيار العسكري.

الحلقة الثالثة عشرة: أعلن هنري كيسينجر عام ١٩٧٨ أن عملية الجيش الإسرائيلي في جنوب لبنان من أجل ضرب قواعد الفدائيين كانت عملاً لا مفر منه

في يوم السبت ١١ آذار (مارس) ١٩٧٨، قامت مجموعة فدائية فلسطينية يقدر عددها بأحد عشر مقاتلاً بالنزول على شاطئ فلسطين المحتلة في منطقة ناتانيا، وكان الهدف من نزولها الضغط على العدو لتحرير أسرى موقوفين لدى الجانب الإسرائيلي*. وقد تمكنت المجموعة من السيطرة على سيارتي (أوتوبيس) إسرائيليتين وأخذتهما بركابهما رهائن في سبيل تحقيق الأهداف المطلوبة. لم تذعن السلطات الإسرائيلية لمطالب الفدائيين، وقامت بتنفيذ هجوم مفاجئ ضدهم.. أدى إلى استشهاد ٩ فدائيين وأسر ٢ آخرين ومقتل ٣٣ شخصاً إسرائيلياً وجرح ٧٨ آخرين.

كانت هذه الحادثة هي الذريعة الإسرائيلية المنتظرة والتي يمكن أن تعطي تبريراً للاجتياح الإسرائيلي للجنوب اللبناني.

وفي الساعة الواحدة من صباح الأربعاء ١٥ آذار (مارس) ١٩٧٨ بدأ العدو بقصف مدفعي شديد لقواعد الفدائيين الفلسطينيين في منطقة بنت جبيل، ومارون الراس، ويارون، والطيبة، والخيام، وراشيا الفخار. وهي قرى تقع كلها قرب الحدود اللبنانية - الفلسطينية. وفي الساعة الثانية أخذت قوات العدو تتقدم بحذر على الاتجاهات:

- المطلة - مرجعيون والخيام وإبل السقي.

- العديسة - الطيبة - رب الثلاثين - مركبة.

- برعم - يارون - بنت جبيل - مارون الراس.

- قطمون - رميش - عين ابل.

- يارين - جبين - شمعة - طير حرفا.

---

* اطلقت حركة «فتح» على تلك العملية عملية الشهيد كمال عدوان، ولايزال أحد اعضاء المجموعة اسيرا لدى اسرائيل وهو اللبناني يحيى سكاف.

ـ رأس الناقورة ـ رأس البياضة.

وقام الطيران الإسرائيلي منذ الساعات الأولى بالاشتراك في دعم الأعمال القتالية البرية بطلعات استطلاع وإنارة وقصف. كذلك قامت السفن الحربية الإسرائيلية، منذ بدء الأعمال القتالية، بقصف ميناء صور، ومخيم الرشيدية «جنوب صور»، وأنزلت جواً قوة من المشاة تقدر بنحو سرية معززة، في منطقة الغزية، جنوب مدينة صور بنحو ١٠كم.

وقد تلقت القوات الإسرائيلية الترحيب والدعم من قبل الميليشيات اليمينية، وأعوانها الموجودين في قطاعات الهجوم، حيث كانت تستخدم هذه القوى من قبل الإسرائيليين من أجل الدلالة على الأهداف الفلسطينية، ومن أجل حراسة المناطق التي تجتازها القوات الإسرائيلية، وكذلك من أجل القيام بأعمال تخريبية على طريق إمداد وإخلاء القوات الفلسطينية في الجنوب اللبناني.

وقد لاقى تقدم الوحدات الإسرائيلية مقاومة عنيفة جداً من قبل رجال الثورة الفلسطينية. وبسبب الطابع القتالي الخاص الذي كان يتبعه رجال الثورة الفلسطينية، فإنّ القوات الإسرائيلية كانت تتقدم بمنتهى البطء والحذر، لأنّ السرعة كانت تعني زيادة عدد الإصابات في صفوفها.

وفي الساعة العاشرة من يوم ١٥ آذار (مارس)، أي بعد مرور تسع ساعات على العملية الهجومية الإسرائيلية أعلن رئيس الأركان الإسرائيلي مورد خاي غور للمراسلين في تل أبيب، أن ّ معظم الأهداف المطلوبة قد تمّ احتلالها، ويجري الآن تطهير بعض الأماكن. وبعد ذلك ستقوم قوات جيش الدفاع الإسرائيلي بربط جميع الجيوب المحتلة في شريط أمني يمتد إلى عمق ٧ ـ ١٠ كم على طول الحدود. وإنّ هذه العملية ستنتهي خلال ساعات عدة، لكنّ القتال، حالياً ما زال مستمراً بسبب وجود بعض أوكار المخربين!.

كما قام الطيران المعادي، في الساعة ١٤ بقصف قاعدة للفدائيين الفلسطينيين بالقرب من بلدة الدامور، حيث ادعى الإسرائيليون أنّ الفدائيين، الذين اشتركوا في عملية الشهيد كمال عدوان، قد تدربوا فيها.

وقد قام الطيران الإسرائيلي في الساعة ١٤:١٠ لمدة ١٥ دقيقة بقصف الأوزاعي وبرج البراجنة من ضواحي بيروت بالقنابل، الأمر الذي أدى إلى إغلاق مطار بيروت وإصابة منطقة الأوزاعي بتدمير كبير.

وفي الساعة ١٥:٠٠ قامت مجموعات مؤلفة من ثماني طائرات من نوع فانتوم بقصف مخيم صبرا جنوب بيروت. وقد استطاع الفدائيون، على الرغم من كل الهجمات البرية والجوية الصهيونية أن يعاودوا قصف المستعمرات الشمالية الإسرائيلية بصواريخ الكاتيوشا، مما أحدث بعض الأضرار في مستعمرة «كريات شمونة» (بلدة الخالصة الفلسطينية).

وأكد رئيس الأركان الإسرائيلي مرة أُخرى في الساعة ١٧:٠٠ أنّ العمليات الرئيسية التي كُلّف بها جيش الدفاع الإسرائيلي في الجنوب اللبناني قد انتهت. كما صرح ناطق عسكري آخر بأنّ القوات الإسرائيلية قد تمكنت من الوصول إلى جميع أهدافها عند حلول الظلام. وقال إنّ عمليات تطهير أماكن الفدائيين سوف تستمر طيلة الليل، وأضاف أنّ المسيحيين اللبنانيين «ويقصد الميليشيات اليمينية» قد حاربوا سويّة مع القوات الإسرائيلية في بعض العمليات.

كذلك صرّح بيغن رئيس الوزراء الصهيوني، في مؤتمر صحافي عقده في القدس بأنّ الجيش الإسرائيلي قد أتمّ تنفيذ مهمته في جبهة مساحتها ١٠٠كم مربع، ويتوقع أن تحقق تسوية بشكل لا يعود الفدائيون لمهاجمة إسرائيل ومواطنيها من هذه المنطقة. وأنّ القوات ستبقى حتى تتم هذه التسوية. وأضاف أنه لا يعتبر هذه العملية عملية انتقامية بسبب حادث يوم السبت الماضي «١١ آذار (مارس)» وإنّ إسرائيل استخدمت حقها في الدفاع عن النفس.

كما أعلن كيسنجر أنّ عملية الجيش الإسرائيلي في جنوب لبنان من أجل ضرب قواعد الفدائيين كانت عملاً لا مفر منه. وقال إنّ هناك سببين أساسيين لهذه العملية، أولهما ضرورة التصدي للإرهاب، والثاني أنّ الاعتداءات أتت من جنوب لبنان. وطلب استبدال القوات الإسرائيلية في جنوب لبنان بقوى من الجيش اللبناني النظامي.

وكعادة الإسرائيليين بإعلانهم عن خسائر بشرية ومادية مخففة، فقد أعلنوا أنّ عدد الإصابات في اليوم الأول من القتال كان فقط مقتل /١١/ جندياً وجرح ٥٧، وسردوا لائحة بأسماء القتلى. تابع العدو في اليوم الثاني من العملية (١٦ آذار (مارس))، على الرغم من كذبه وإعلانه انتهاء الأعمال القتالية، التقدم تحت تغطية نيران الطيران والمدفعية. واستطاع، في الساعة العاشرة من يوم ١٦ آذار (مارس)، احتلال بلدة راشيا الفخار

وتـابع قصـف مدينـة النبطيـة، كفر تبنيت ـ كفر رمـان ـ الجرمق كوكبـا ـ حاصبيا ـ قنطرة ـ وطريق صور ومخيم الرشيدية.

وقد رحب العميل الخائن الرائد سعد حداد في مؤتمر صـحافي فـي المطلـة بعمليـة الجيش الإسـرائيلي واتهم سـورية بتحـريض الفدائيين علـى القيـام بأعمال ضدّ الكيان الإسرائيلي.

وأعلنت قيادة منظمة التحرير الفلسطينية أنّ مجموع خسائرها حتـى ذلك الوقت قد بلـغ ٣٩ شهيداً وجريحاً فـي صفوفها و١٥٠ قتيلاً وجريحاً من المـدنيين اللبنـانيين والفلـسطينيين، فـي حين فقد الإسـرائيليون نحـو ٣٥٠ جندياً بين قتيل وجريح، بالإضافة لبعض الأسرى. بينمـا كـررت إسـرائيل أن خسائرها قد بلغت فقط ١١ قتيلاً و٥٧ جريحاً.

واعتبـاراً مـن صباح يوم الجمعـة ١٧ آذار (مـارس) بـدأ النـشاط الـسياسي الدولـي يدب لإيقاف القتال، فاقترحت بريطـانيا وضع قوة سلام تابعة للأمم المتحدة، وطلبـت الولايـات المتحـدة انسحاب القوات الإسـرائيلية فـوراً مـن لبنان وطلب ياسر عرفات من السادات تدخل اميركا لوقف القتـال وأعلنـت إسرائيل أنها ستوافق على تواجد قوات الأمم المتحـدة فـي لبنـان وأنـه بعد تواجد هذه القوى ستسحب قواتها من هذه المنطقة.

وأعلــن الــصليب الأحمــر الــدولي أنّ خــسائر الفــدائيين خــلال اليــومين الماضـيين قد بلغت ٦٠٠ منـهم ٣٥٠ قتيلاً وقد التجـأ أكثـر مـن مئـة ألـف لبنـاني وفلـسطيني مـدني إلـى المعابـد والمـدارس. وأعلـن الجنـرال غـور رئيس الأركـان الإسـرائيلي، أنّ المنطقـة التـي تـسيطر عليهـا إسـرائيل هـي منطقـة ضـيقة لا تتجـاوز الــ ١٠ كيلـومترات فـي حـين أنّ مـدى مدفعيـة الفـدائيين هـو أكثـر مـن ٣٠ كيلـومتراً وأنـه لـيس أمـام الجـيش الإسـرائيلي سوى الاستمرار في التوغل إلى ما وراء خط الأمان المحدد.

وبقي العدو لليوم الثالث على التوالي ينفذ قصفه الجوي والبـري والبحـري على مناطق تواجد الفدائيين في العرقوب ومعابر الليطـاني من أجل عرقلـة إمداد الفدائيين وتكبيدهم أكبر ما يمكن مـن الخـسائر. كمـا تمكـن العـدو مـن السيطرة على منطقة تبعد ٦ ـ ١٢كيلومتراً من الحدود الدولية، حيث تحدد ذلك بـالخط: الهباريـة، الفريـديس، سـوق الخـان، جبـل زهيـر، القليعـة، ديـر سريان، القنطرة، مشارف تبنين، كفره، الحنية، تخوم مزرعـة جـل البحـر، رأس البياضــة. وتابعـت قواتــه التقـدم البطــيء الحـذر بحثـاً عـن أعـشاش المقاومة الفلسطينية.

استمر القتال صباح يوم السبت ١٨ آذار (مارس) في جنوب لبنان، وكانت الخسائر البشرية والمادية كبيرة لدى الجانب الإسرائيلي، بحيث اضطر الجنرال غور، رئيس الأركان الإسرائيلي، لأن يصرّح بأنّ نصف خسائر إسرائيل كانت نتيجة اصطدامها بحقول ألغام غير معروفة.

وقد هدد رئيس الأركان الإسرائيلي، بأنه إذا استمرت شدة المقاومة الفلسطينية فإنه سيأمر قواته بمتابعة التوغل نحو الشمال. وقال إنّ الحزام الأمني سوف يمتد لمسافة ١٠كم، داخل الأراضي اللبنانية، فقط من أجل عدم استفزاز سورية ويتمنى أن لا تحصل اشتباكات مع الجانب السوري.

بعد ظهر هذا اليوم هدد السيد الرئيس حافظ الأسد، بتدخل سوري في حال عدم توقف الهجوم الإسرائيلي على الجنوب اللبناني. وقال سيادته إنّ العالم يتوقع ولا شك، بأنه لابدّ أن تزداد مقاومة الاحتلال حجماً، إذا لم يتوقف العدوان على لبنان والمقاومة الفلسطينية، وإذا لم تنسحب القوات الإسرائيلية عن هذه الدولة.

تابع العدو منذ صباح الأحد ١٩ آذار (مارس)، أعماله العدوانية، مركزاً جهوده الأساسية باتجاه صور لاستكمال احتلال المنطقة الواقعة جنوبي نهر الليطاني. وقد تمّ التقدم على المحاور التالية:

- محور الطيبة - قنطرة - الغندورية - دير قانون النهر، برج رحال.

- محور السلطانية - طير زيتا - جويا - البازورية.

- محور صديقين - قانا - عين بعل.

- محور مزرعة جل البحر - رأس العين - الرشيدية.

- محور دير ميماس - جسر الخردلي.

وكان يستخدم على كل محور من هذه المحاور قوة تعادل لواء من المشاة الميكانيكية أو لواءً مدرعاً بالإضافة لاستخدام قوات من المغاوير. وهكذا استطاعت قوات العدو حتى نهاية اليوم تطويق مدينة صور من الجنوب والشرق، وبالسفن الحربية من الغرب، وبقي الطريق الشمالي مفتوحاً إلى صيدا بيد القوات الفلسطينية.

اعتباراً من الساعة ٠٥:٤٠ من يوم الاثنين ٢٠ آذار (مارس) واصلت قوات العدو تمشيط المنطقة الواقعة جنوبي الليطاني وشرقي صور، وتابعت المدفعية المعادية تبادل إطلاق النيران مع المدفعية الفلسطينية في منطقة العرقوب في حين قام الطيران المعادي، بمجموعات مؤلفة من ٢ إلى ٨ طائرات باستطلاع المحاور، وقصف مدينة صور ومخيم الرشيدية ومواقع الفدائيين في قلية، والدلاقي «في منطقة العرقوب».

وهكذا انتهى الاجتياح الصهيوني للجنوب اللبناني في ٢٠ آذار (مارس)، وبقيت القوات الصهيونية تمشط المنطقة المحتلة وتوقف كل شخص تعاون مع المنظمة أو تشتبه فيه.

سمات الاجتياح الإسرائيلي

١ ـ بلغ إجمالي الجهد الجوي المستخدم خلال هذه العملية نحو ٨٠٠ ـ ٩٠٠ طلعة جوية.

٢ ـ سيطرت الزوارق الحربية الإسرائيلية على المنطقة المائية الممتدة من نهاريا حتى شمالي صور، واشتركت في قصف الأهداف المدنية والفلسطينية الساحلية.

٣ ـ حققت العملية العدوانية الإسرائيلية ضدّ القطر اللبناني جزءاً من الأهداف الموضوعة من الجهة الأمنية، وهي تطهير منطقة جنوب نهر الليطاني من قوات المقاومة، بصورة موقتة ووجهت ضربة للقوى الوطنية المتعاونة والمتعاطفة مع قوى الثورة الفلسطينية، وزادت في عمق النطاق الأمني داخل الأراضي اللبنانية.

٤ ـ نفذت القوات الإسرائيلية عملياتها في الجنوب اللبناني بحذر وبطء شديدين للإقلال من الخسائر قدر الإمكان، وتجنبت الاشتباك مع القوات العربية السورية العاملة ضمن قوات الردع العربية.

ولندرك مدى فشل الاجتياح الإسرائيلي للجنوب اللبناني في ما يتعلق بالقضاء على بنية الثورة الفلسطينية، يمكن أن نقرأ ما كتبه أحد المعلقين الصحفيين الإسرائيليين، وهو يوري أفنيري حيث نشر ذلك في مجلة «هاعولام هازيه» العدد ٢١١٧ تاريخ ٢٩ آذار (مارس) ١٩٧٨، تحت عنوان «حرب الليطاني»:

«يستطيع جيش الدفاع أن يتقدم إلى الشمال والشرق والجنوب، وبإمكانه أن يدفع الفلسطينيين أمامه من بلد إلى آخر، ولكنه لن يحل بهذه الطريقة مشكلتهم. إنّ نصف الشعب الفلسطيني قد دُفع إلى خارج البلد، الذي كان يسمى فلسطين. وإنّ مخيمات اللاجئين هي التي أنجبت الفدائيين.

لقد بدأت حرب الاستقلال بالاصطدام بين السكان اليهود والسكان الفلسطينيين، كما أنّ حرب سيناء نشبت على أساس الحكاية الرسمية التي تقول بضرورة القضاء على أوكار الفدائيين. ونشبت حرب الأيام الستة بسبب العمليات الفدائية من الأراضي السورية والتهديد بالرد الإسرائيلي... وقد نشبت حرب يوم الغفران في أعقاب عدم إعادة المناطق التي احتلت في الحرب السابقة، وأخيراً نشبت حرب الليطاني كرد مباشر على عملية فلسطينية فدائية، ومع ذلك، فلم تستطع أي حرب من هذه الحروب القضاء على القضية بل العكس هو الصحيح...

إنّ النشاط الفدائي، الذي يضفي ظله منذ سنوات طويلة على دولة إسرائيل ناجم عن الواقع الفلسطيني، وليكن رأي أي إنسان ما يكون حول المسألة الفلسطينية، إلا أنّ الغبي أو الأعمى، عديم المبدأ، هو الذي يتجاهل الحقائق... وإذا ما طُرد الفدائيون من منطقة فسوف يظهرون في منطقة أخرى... وإذا لم يعد بإمكانهم تحقيق هدف ما، فإنهم سيصلون إلى هدف آخر، وإذا ماأزيلت زعامة ما منهم، فإنهم سيخلقون زعامات أُخرى.. وهذه أُمور أولية مفهومة، وقد أثبتها التاريخ مرات كثيرة».

الحلقة الرابعة عشرة: القيادة السورية لم تفاجأ بالاجتياح الاسرائيلي للبنان وكانت تدرك أن اسرائيل اذا ما خرقت الجنوب اللبناني فإن قواتها ستهاجم القوات السورية في البقاع

بدأ الغزو البري للبنان قرابة الساعة ١١:٠٠ من يوم ١٩٨٢/٦/٦، حيث تقدمت أرتال العدو على أربعة محاور بقوام خمسة ألوية معززة، وقد رافق الغزو تصريحات متعددة من المسؤولين الاسرائيليين تدعي محدودية أهداف العملية (٤٠كم) والتي أطلقوا عليها اسم السلام للجليل، وحول عدم رغبتهم بالاشتباك مع القوات السورية. رافق بدء الغزو البري تصعيد كبير في النشاط الجوي حيث تابع العدو خلال هذه الفترة القصف الجوي، مركزاً الجهود على الأهداف التي يمكن أن تعيق تقدم قواته على محاورها الأربعة.

وقد ركز العدو، بعد ظهر يوم ٦/٦ القصف الجوي والمدفعي والبحري على مناطق قرب الساحل في منطقة الصرفند، والرميلة تمهيداً للقيام بانزال بحري ليلة ٦/٧، والذي تمّ تنفيذه خلال الليل في منطقة الرميلة بقوام لواء بهدف عزل مدينة صيدا.

<u>مرحلة توسيع الغزو الاسرائيلي والاشتباك مع القوات المسلحة العربية السورية</u>

في يوم ٨ / ٦ زاد العدو من حجم طلعات طيرانه بعد أن دعم قواته البرية التي دفع بها شمالاً على المحاور التي يتم تحقيق أكبر نجاح فيها، وبدأ منذ الساعة ٤:٠٠ صباحاً قصف مواقع الثورة الفلسطينية والمخيمات، وخصوصا في منطقة بيروت والدامور وصيدا والسعديات، كما نفذ أول قصف جوي للقوات العربية السورية في جزين وخلدة مبتدئاً بذلك أول احتكاك له مع قواتنا البرية.

انّ أبرز أعمال الطيران المعادي في هذه المرحلة هي العملية الجوية لتدمير كتائب الصواريخ م/ط السورية في منطقة البقاع والتي نفذها بدءاً من الساعة ١٤ من يوم ٦/٩ حيث كشفت وسائط الرادار السورية عند الساعة: ١٤:٠٠ ــ ١٣:٥٠ تشكيلات جوية معادية كثيفة تتجمع في المناطق من صور حتى بيروت وجنوب طرابلس، وبعض التشكيلات بقيت فوق البحر في الغرب. وفي الوقت نفسه بث العدو التشويش بأنواعه

على مجموع وسائط الكشف والانذار والقيادة المتوافرة في أنظمة الدفاع الجوي السوري.

ومع تكامل مجمل هذا النشاط المحموم واقتراب عقارب الساعة من ١٤:٠٠ قامت طائرات الفانتوم (Phantom) بقوام ٢٠ ـ ٢٤ طائرة ومن مسافات بعيدة (أكثر من ٣٥كم) باطلاق الصواريخ جو ـ أرض من طرازات مختلفة أهمها (مافريك، ستاندر آرم، شرايك) وفي الوقت نفسه اشتركت المدفعية بعيدة المدى والصواريخ أرض ـ أرض من طرازات زئيف بالقصف المركز على كتائب الصواريخ في البقاع مستهدفة بشكل أساسي محطات رادار الكشف وقيادة نيران هذه الكتائب.

بنتيجة مجمل هذا القصف والتشويش المعادي المركز والمستمر، شلّت امكانيات كتائب الصواريخ بشكل موقت، وبعد نحو ١٥ دقيقة دخلت القوة الضاربة الرئيسية بقوام ٤٠ طائرة تقريباً والمؤلفة من المقاتلات القاذفة من طرازات فانتوم (Phantom) وسكاي هوك (Sky Hawk) وكفير(Kfir) إلى منطقة الصواريخ في البقاع ونفذت الضربات على قواعد الاطلاق ومقرات القيادة والقوى الحيّة، مستخدمة القنابل التلفزيونية والقنابل شديدة الانفجار من عيارات مختلفة، والقنابل العنقودية. استمرت هذه الغارة حتى الساعة ١٤:٣٥.

وقد عادت بعض الطائرات الاسرائيلية إلى قواعدها بكامل حمولاتها من القنابل دون أن تتمكن من تنفيذ الضربة على قواعد الصواريخ بسبب وجود عدد كبير من المقاتلات السورية في منطقة الأعمال القتالية منعتها من تنفيذ مهامها.

مع انتهاء الغارة الكثيفة الأولى نشط طيران الاستطلاع لمعرفة نتائج هذه الغارة واكتشاف واقع امكانيات الكتائب المتبقية بغية استدعاء المقاتلات القاذفة الموجودة في الجو للتعامل معها ريثما يتم تجهيز قوى الضربة الكثيفة الثانية.

في الساعة ١٥:٤٥ وبعد أن تم تأكد العدو من نتائج الغارة الجوية الكثيفة الأولى وعدم امكانية كتائب الصواريخ من تنفيذ رمي منظم ضدّ طيرانه، نفذ ضربة كثيفة ثانية استهدفت هذه المرة بشكل أساسي مرابض الصواريخ وتراتيب قتال القوات البرية، ومجمل القوى الحيّة في المنطقة مستخدماً القنابل الثقيلة شديدة الانفجار والقنابل العنقودية المضادة

للأشخاص والآليات مع الاصرار المستمر على بث التشويش الشديد بأنواعه كافة. استمرت هذه الغارة نحو نصف ساعة.

بعد الغارة الثانية وحتى المساء، تابع العدو طيرانه بنشاط وحرية بعد أن تخلص من تأثير الصواريخ منفذاً أعمال الاستطلاع في المنطقة نفسها للبحث عن الأهداف التي لم تدمر بعد ومهاجمتها، كما قام بقصف طريق دمشق ـ بيروت في منطقة المصنع وشتورة وأحدث حفراً كبيرة لاعاقة الامداد والاخلاء الطبي ليلاً.

قامت المقاتلات الاسرائيلية من طراز «اف ١٥ F15» و«اف ١٦ F16» بقوام ٢٠ ـ ٣٠ طائرة، بنشاط واسع لتأمين أعمال المقاتلات القاذفة، بالدخول في معارك عديدة مع المقاتلات السورية التي زجت للدفاع عن كتائب الصواريخ، مستهدفة اسقاط أكبر عدد منها في الجو.

لقد تمّ خلال فترة أقل من ساعة زج ٧٠ طائرة مقاتلة سورية للتصدي للضربة الكثيفة في منطقة عمل الصواريخ م/ط المحدودة في البقاع، لمواجهة أكثر من ٩٠ طائرة من طائرات العدو المقاتلة والمقاتلة القاذفة حتى أصبحت سماء البقاع غاصّة بالطائرات الصديقة والمعادية وتشتبك في معركة خالدة سطر فيها الطيارون السوريون الأبطال أمجد الصفحات للذود عن أمتهم وردع العدو الغاشم.

بعد اقرار وقف اطلاق النار يوم ٦/١١ الساعة ١٢:٠٠ استمر الطيران العربي السوري في تنفيذ مهمات تغطية القوات والمجال الجوي للبلاد والتصدي للعدو اذا خرق وقف اطلاق النار.

لقد بلغت خسائر العدو المُبلّغ عنها والتي كبدته اياها القوى الجوية والدفاع الجوي السوري خلال فترة الحرب /٩٥/ هدفاً برياً بالحوامات م/د، (٧١ دبابة، ٥ عربات مصفحة، ٣ شاحنات، ٢ مدفع، ٩ آليات مختلفة، ٥ صهاريج وتجمع أفراد) مع اصابة طواقم هذه الأهداف، كما تمّ تدمير عدد كبير من عتاد العدو وأفراده نتيجة قصف الطيران المقاتل القاذف لتحشدات قواته وأرتاله في ساحة المعركة وعلى محاور التقدم، كما تمّ اصابة مقر قيادة العدو في الباروك. وفي التقرير الذي رُفع إلى لجنة الأمن في الكنيست اعترف العدو بفقدان ٢٣ طائرة مقاتلة وحوامة. انّ النتائج المشرفة التي حققتها القوى الجوية السورية لم تتم دون بذل ضريبة الدم.

القتال فـي البقاع

لقد خططت اسرائيل لقتالها مع القوات السورية، في البقاع بحيث تكون هذه الحرب «غير معلنة وتقليدية وقصيرة ومحدودة، لخفض احتمالات الحرب الواسعة»، وبصورة عامة يمكن القول انّ غزو اسرائيل للبقاع كان اصراراً اسرائيلياً داخلياً على المزج بين السيطرة العسكرية واللا أخلاقية السياسية، هدفه تذكير سورية بأن اسرائيل قوة لا تهزم عسكرياً، وانه لا جدوى من الصراع المسلح أو المجابهة العسكرية في سبيل تحقيق ما تسعى اليه سورية من أجل القضية الفلسطينية. كما يمكن القول أيضاً انّ القيادة السورية لم تفاجأ بالاجتياح الاسرائيلي للبنان، وكانت تدرك أنّ اسرائيل اذا ما خرقت الجنوب اللبناني فانّ القوات الاسرائيلية ستهاجم القوات السورية في البقاع. وقد تحدث عدد من القادة والمراسلين عن معارك البقاع، ووصفوها بالضراوة والعنف الشديدين، وأكدوا أنّ القوات السورية استطاعت الصمود في وجه الغزو والتصدي للقوات الاسرائيلية المعتدية بكل جرأة وبسالة.

فقد جاء على لسان اللواء أمير دروري قائد المنطقة الشمالية: «يجب عدم الاستهانة بالسوريين.. فالجنود السوريون قاتلوا بشكل جيد، وهم مسلحون بأفضل أنواع الأسلحة».

وتجدر الاشارة إلى أنّ اللواء أمير دروري هو من الذين حاولوا تبرير عملية غزو لبنان «بأنها ضربة استباقية ضدّ هجوم سوري مستقبلي على اسرائيل وانّ القوات السورية في لبنان قد تحولت من قوة أمن إلى تهديد استراتيجي» وهذا يكشف أهمية العامل العسكري السوري بالنسبة إلى اسرائيل، ويعكس واقع التخطيط الاسرائيلي العسكري قبل الحرب اللبنانية وخلالها على واقع الصراع العربي ـ الصهيوني برمته.

انّ تضحية القوات السورية وبسالتها برهنت على أنّ هذه القوات آمنت بشرعية أعمالها، وحولت هذا الايمان إلى واقع ملموس في ميدان المعركة. وهذا يعود إلى تركيبة تلك القوات، التي تعتمد أساساً على وجود نسبة كبيرة من المتعلمين والمثقفين في صفوفها، وعلى الوعي السياسي والنضوج الفكري، والايمان المطلق بعقيدة حزب البعث العربي الاشتراكي.

جغرافية منطقة البقاع

يتألف سهل البقاع من قسمين: القسم الأول من حوض العاصي في الشمال، والقسم الثاني من حوض الليطاني في الجنوب. وتشرف على سهل البقاع من الغرب سلسلة جبال لبنان الغربية، وهي سلسلة توازي البحر من الغرب وتنحدر إلى وادي البقاع الالتوائي، والممر الأسهل للوصول إلى البقاع هو ظهر البيدر الذي يناهز ارتفاعه ١٥٤٣ متراً وجبل الباروك ١٩٤٨ متراً وجبل صنين ٢٥٤٨ متراً. وتطل على سهل البقاع من الشرق السفوح الغربية من جبال لبنان الشرقية، التي يبلغ ارتفاعها في جبل موسى ٢٦٢٩ متراً والسفوح الغربية من جبل الشيخ الذي ترتفع قمته الجوراسية الجرداء إلى ٢٨١٤ متراً، كما يتخلل هذا السهل الكثير من القرى والوديان والممرات الاجبارية موزعة على كامل مساحته، وعدد لا بأس به من الطرقات والمحاور الطولانية والعرضانية، وبعض المرتفعات الأخرى التي يتراوح ارتفاعها بين ١٠٠٠ ـ ١٢٠٠ متر.

سهل البقاع من وجهة النظر العسكرية الاسرائيلية

تعتبر اسرائيل سهل البقاع امتداداً شمالياً لعمق «اسرائيل» الاستراتيجي، الذي يحقق أمن المستعمرات الاسرائيلية، والدفاع عن الأراضي العربية التي احتلتها في عدوان حزيران (يونيو) ١٩٦٧ فهو يؤمن عزل جبهة الجولان، على أكثر من اتجاه، ويسهل نقل الجهود العسكرية إلى جبهات أخرى، كما ويمنع القوات السورية من تحقيق مناورة ضرب القوات الاسرائيلية المتمركزة في الجولان من الاتجاه اللبناني.

موقعة البقاع

دارت فوق أرض البقاع وفي سمائه أشد المعارك البرية والجوية وأقساها، بالقياس إلى حجوم الأسلحة التي استخدمت فيها وأنواعها. وعلى الرغم من نشوب حروب عديدة واحتدام عشرات الأزمات والأحداث الدولية، فقد شدّت موقعة البقاع الانتباه المحلي والعربي والدولي بشكل كبير.

لقد خاضت القوات السورية القتال وحدها تقريباً ضدّ قوات ضخمة حشدتها اسرائيل براً وجواً، واستطاعت منع العدو من تحقيق أهدافه النهائية، ولم يتم ذلك نتيجة لضغوط عربية أو دولية، بل بسبب المقاومة

الصلبة التي أبدتها القوات السورية والهجمات المعاكسة التي نفذتها بنجاح.

فقد ذكر العديد من المصادر الأجنبية أنّ القوات السورية منعت القوات الاسرائيلية من تحقيق كامل أهدافها في الوصول إلى بعض مناطق البقاع الشمالي. وعلى الرغم من التفوق الاسرائيلي، فقد جوبهت قوات الغزو على اتجاه البقاع بمقاومة ضارية وواسعة عرقلت تقدمها ومنعتها من تحقيق أهدافها، وأوقعت بها خسائر كبيرة، فاقت باعتراف الاسرائيليين أنفسهم تلك التي كانت من نصيبهم خلال حروبهم السابقة. ففي مقابل مخطط «النـزهة العسكرية» الاسرائيلي، اتبعت القوات السورية تكتيكاً خاصاً ومتميزاً، وانسحبت القوات السورية من الأماكن التي لم يكن بالامكان الاحتفاظ بها لتظهر من جديد على اتجاهات أُخرى أكثر قوة ومنعة وصموداً.

حجم القوات الاسرائيلية والسورية التي عملت على اتجاه البقاع وسير الأعمال القتالية: كانت موقعة البقاع صداماً مسلحاً ضدّ قوات اسرائيلية عسكرية كاملة التجهيز التقني بكل أنواع الأعتدة القتالية الحديثة المعروفة في الغرب وبدعم تقني وامدادي كبير، ويمكن القول أنّ أهداف اسرائيل من وراء تحريك قوات ضخمة برية تدعمها تشكيلات جوية كبيرة، هو الاعلان عن طاقاتها العسكرية، وحرص القادة العسكريين الإسرائيليين على أن يظهر غزوهم للبقاع في شكل نموذج لما يمكن أن تقوم به قوة تدخل سريع تشترك فيها مختلف الأسلحة البرية والجوية المتطورة.

<u>القوات الاسرائيلية على اتجاه البقاع</u>

آ ـ القوات البرية: استخدمت اسرائيل على الاتجاهات الرئيسية للهجوم في البقاع تشكيلات مدرعة وميكانيكية من القوات النظامية والتي تمتلك في قوامها عدداً كبيراً من الدبابات والمدفعية فبلغت فرقتي دبابات ولواء مظلات. وبذلك استطاع العدو أن يحقق تفوقاً في نسبة القوى والوسائط بلغ اثنين إلى واحد لصالحه، بالاضافة إلى ما حققه من مبادأة في اختيار زمان الضربة واتجاهها.

ب ـ القوات الجوية: ـ الطيران المقاتل: حقق سيطرة جوية شبه كاملة، خاصة بعد أن قصف مواقع الصواريخ السورية في البقاع في ١٩٨٢/٦/٩.

ـ الحوامات القتالية المضادة للدروع: اشتركت على اتجاه البقاع أكثر من ١٠٠ حوامة من طرازات مختلفة، وبذلك استطاع سلاح الجو الاسرائيلي تحقيق التفوق الجوي المطلوب.

القوات السورية في البقاع

مقابل هذه القوات كان يتمركز في البقاع يوم بدء الغزو قوات سورية تقدر بلواء معزز مكلف بمهام أمنية يعمل ضمن اطار قوات الردع العربية، وينتشر على الحواجز على مساحة تزيد على ٤٠٠كم٢ لتنفيذ قرارات رئيس الجمهورية اللبنانية باعتبار هذه القوات خاضعة لتعليماته حسب التفويض الممنوح له من قبل مؤتمر القمة العربي.

ومنذ بدء الغزو الاسرائيلي للبنان في صباح يوم ١٩٨٢/٦/٦، بدأت سورية تعزيز قوات الردع هذه لمواجهة الموقف الطارئ، آخذة في الاعتبار متطلبات المعركة المحتملة في البقاع، وضرورات نشوب أعمال قتالية أخرى على بقية الاتجاهات. الأمر الذي رفع نسبة القوى والوسائط بين الطرفين من أربعة إلى واحد في بداية الغزو، ليصبح بعد ذلك اثنين إلى واحد لصالح العدو بالقوى والوسائط المشتركة كافة.

الحلقة الخامسة عشرة: دعا لبنان إلى عقد قمة عربية عاجلة لمناقشة الغزو الإسرائيلي غير أن الاستجابة لم توفر النصاب اللازم فبقيت الثورة الفلسطينية والقوات السورية وحدها تواجه العدوان

بينما كان المبعوث الاميركي الخاص فيليب حبيب في طريقه إلى منطقة الشرق الأوسط من أجل معالجة الأزمة اللبنانية، بدأت إسرائيل حربها يوم ٦ حزيران (يونيو) ١٩٨٢. فاشتكى لبنان إسرائيل إلى مجلس الأمن «لخرقها اتفاقية الهدنة المشتركة وقرار مجلس الأمن ٤٢٥ والقرارات اللاحقة».

وقف إطلاق النار

وصل المبعوث الاميركي فيليب حبيب إلى فرساي في فرنسا يوم ٦ حزيران (يونيو)، حيث اجتمع بالرئيس الاميركي رونالد ريغان الموجود فيها لحضور مؤتمر رؤساء الدول الصناعية السبع، وكلفه ريغان مهمة السفر إلى المنطقة.

وفي اليوم نفسه، دعا لبنان إلى عقد مؤتمر قمة عربي عاجل لمعالجة الوضع الناجم عن العدوان غير أنّ الاستجابة لم توفر النصاب اللازم لعقد الاجتماع، وبقيت قوات الثورة الفلسطينية والقوات السورية العاملة ضمن قوات الردع العربية والقوى الوطنية اللبنانية وحدها تواجه ثقل العدوان وكثافته.

وفيما كان فيليب حبيب في طريقه إلى المنطقة وسع العدو رقعة غزوه ودفع مزيداً من قواته إلى ساحة المعركة. وأكدت الحركة الوطنية اللبنانية أنها «لن تمكن إسرائيل من جني الثمار السياسية لاجتياحها العسكري وستمنعها من فرض الاستسلام على شعبنا مهما كانت الظروف». وتحدث شفيق الوزان رئيس الوزراء اللبناني بالمعنى ذاته حين قال: «إنّ لبنان يرفض المنطق الإسرائيلي الذي يريد أن يفرض علينا سلوكاً أو موقفاً أو ترتيباً أو سلاماً ذليلاً. وسنتابع الدفاع عن حقنا ووطننا بكل ما نملك، من وسائل مهما طال الزمن ومهما غلت التضحيات».

بلغ صمود القوات السورية العاملة ضمن قوات الردع العربية ومجابهتها للعدو وإلحاقها خسائر كبيرة به ذروة عالية، مما اضطر إسرائيل إلى

طلب وقف إطلاق النار بوساطة المبعوث الاميركي. وهكذا وصل فيليب حبيب إلى دمشق يوم ٩ حزيران (يونيو) ١٩٨٢. واستقبله الرئيس حافظ الأسد وتسلّم منه رسالة من الرئيس الاميركي رونالد ريغان. وقد أكد الرئيس الأسد في هذه المقابلة «الموقف السوري في الدفاع عن قضية الأمة العربية والمحافظة على سلامة أراضي لبنان».

وفي يوم الجمعة ١١ حزيران (يونيو). صدر في دمشق تصريح رسمي هذا نصه: «لدى استقبال الرئيس حافظ الأسد المبعوث الاميركي ليل أمس (الخميس) لمناقشة الأفكار التي طرحها، والمتعلقة بوقف النار أوضح الرئيس أنّ سورية توافق على وقف النار على أساس الانسحاب الإسرائيلي الشامل من الأراضي اللبنانية. وأُعطيت التوجيهات لجميع التشكيلات السورية الموجودة في لبنان لتطبيقه اعتباراً من الساعة الثانية عشرة ظهر هذا اليوم الموافق ١١ حزيران (يونيو) ١٩٨٢».

تابعت قوات العدو تقدمها ودخلت بعبدا يوم ١٣ حزيران (يونيو) وحاصرت بيروت الغربية وضاحيتها الجنوبية ووجه الجنرال أمير دروري قائد القوات الإسرائيلية المحاصرة لبيروت إنذاراً إلى العميد سامي الخطيب قائد قوات الردع العربية بوجوب إخلاء بيروت من القوات السورية. وقد ردت سورية يوم ١٥ حزيران (يونيو) على هذا الإنذار بأنّ القوات السورية «دخلت إلى لبنان بقرار عربي وبطلب من الشرعية اللبنانية وستبقى في لبنان تذود عن الشعبين اللبناني والفلسطيني والأمن القومي العربي».

تحركات المبعوث الاميركي

وفي هذه الأثناء كان المبعوث الاميركي فيليب حبيب الذي وصل إلى بيروت يوم ١٤ حزيران (يونيو)، يقوم باتصالات وتحركات نشيطة فيها، مركزاً في أنشطته هذه على إحياء وتنشيط هيئة الإنقاذ الوطني ـ التي شكلتها الحكومة اللبنانية يوم ١٤ حزيران (يونيو)، من شخصيات ممثلة للقوى السياسية اللبنانية لمواجهة الاجتياح باتفاق وطني (تشكلت هيئة الانقاذ برئاسة رئيس الجمهورية وعضوية رئيس الوزراء شفيق الوزان، فؤاد بطرس وزير الخارجية، نصري المعلوف، نبيه بري، بشير الجميل، وليد جنبلاط، وعقدت اول اجتماع لها يوم ٢٠ حزيران (يونيو) ١٩٨٢) وضرورة إجراء انتخابات رئاسة الجمهورية ضمن المهلة الدستورية. وإلى جانب ذلك تناولت أنشطة فيليب حبيب الموضوعات التالية:

١ ـ الوضع السياسي والشعبي الفلسطيني. وتمّ بحث هذا الموضوع مع قيادة منظمة التحرير الفلسطينية عبر بعض الشخصيات السياسية اللبنانية، وكذلك الحكم ممثلاً برئيس الوزراء. وكان الهدف في هذا المجال تجنيب بيروت الغربية مزيداً من الدمار والقتل وآلام الحصار والمعاناة.

٢ ـ الوضع السوري في لبنان، المتمثل بقوة الردع العربية. وهو وجود له شرعيته اللبنانية وقانونيته العربية، والبحث فيه ذو قنوات عربية تمتد بين دمشق وبيروت وجامعة الدول العربية.

٣ ـ الاعتراف بالمصالح الأمنية الإسرائيلية في لبنان. ويتم بحث هذا الأمر في مرحلة لاحقة بعد وقف إطلاق النار وقفاً جدياً شاملاً.

وفيما كانت التحركات السياسية تنشط في بيروت وخارج لبنان، كانت إسرائيل تكرر شروطها لوقف إطلاق النار وتزيد عليها بمرور الزمن. وقد حددت جوهر هذه الشروط بخروج جميع القوات السورية وقوات الفلسطينيين من لبنان كله، وإقامة حكومة لبنانية قوية تعقد معاهدة سلام بين لبنان وإسرائيل.

ولم يكن بوسع الحكومة اللبنانية أن تستجيب لتلك المطالب فبدت تلك الشروط تعجيزية تبريرية من أجل استمرار إسرائيل في غزوها واحتلالها وتوسعها وبقاء قواتها في لبنان لتقتنص من وراء ذلك كله أكبر كمية من المكاسب الممكنة محاولة إبقاء ما تحتله رهينة من أجل أن تُخرج لبنان من إطار النزاع العربي ـ الإسرائيلي، وأن تسقط البندقية من يد الفلسطيني الثائر، وأن تهدد أمن سورية. فالمسألة ليست إبعاد المدافع الفلسطينية عن المدى المؤثر على حدود إسرائيل الشمالية ولا إحلال قوة متعددة الجنسيات في منطقة منزوعة السلاح في جنوب لبنان، إذ لو كان الأمر كذلك لكانت إسرائيل اكتفت باجتياح الجنوب وحده. لكنّ إسرائيل دفعت العملية الهجومية إلى أمام، وأوصلت دباباتها إلى مشارف مراكز القرار الفلسطيني والقرار اللبناني محاولة بمحاصرة بيروت، إحكام الطوق على القرارين، وإخضاعهما للإرادة الإسرائيلية.

ولقد ظهرت أفكار المبعوث الاميركي يومذاك وفي هذه المرحلة من حصار بيروت، على أنها بالفعل صياغة ملطفة للشروط والمطالب الإسرائيلية، وخصوصا بعد أن تابعت القوات الإسرائيلية هجومها وزادت مساحات احتلالها معطية بذلك فيليب حبيب مظهر «المنقذ». وقد باشر

حبيب صفته الجديدة هذه في ظرف بدا الهجوم الإسرائيلي جد ثقيل وضاغط على ما احتله من أراضٍ وعلى بيروت المحاصرة وفيها مراكز القيادات اللبنانية والفلسطينية. وحتى يتمكن حبيب من إيجاد الصيغة التي تحقق لإسرائيل مطالبها وتخفف في الوقت ذاته، ضغط الاحتلال وثقله، سعى لدى إسرائيل إلى أن توقف القتال مدة ٤٨ ساعة لعله يجد حلاً خلال هذه الفترة.

وحين كانت هذه المساعي تُبذل، كانت القوات الفلسطينية والقوات السورية العاملة ضمن قوات الردع العربية، والقوى الوطنية اللبنانية تقاتل ببسالة وصمود، وتؤكد تصميمها يوماً بعد يوم وساعة إثر أخرى على أنها ستظل تقاتل حتى الموت في سبيل أهدافها ومبادئها.

وفيما هدأت حدة الهجوم الإسرائيلي على بيروت يومي ١٨ و١٩ حزيران (يونيو) كانت القيادات السورية والفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية تعلن تصميمها على متابعة القتال. وفي أثناء ذلك، كان المبعوث الاميركي يحاول استثمار ظروف محاصرة بيروت وثقل الاحتلال وضغط الهجمة الإسرائيلية واستمرار معاناة اللبنانيين والفلسطينيين سواء المحاصرون في بيروت أو الواقعون تحت الاحتلال وضخامة الخسائر في الأرواح والممتلكات التي أنزلها الغزو الإسرائيلي في لبنان وسكانه ـ كان يحاول استثمار ذلك كله لتوفير العوامل الكافية لإقناع السلطة وبعض القوى السياسية في لبنان بأنه لابدّ، على الأقل، من إنقاذ بيروت من براثن الحصار الإسرائيلي، ومن مخاطر اجتياحها قبل أن تُتم القوات الإسرائيلية تهديم ما بقي منها على رؤوس سكانها. ولن يتم الإنقاذ إلا بالخضوع للشرط الإسرائيلي ـ وهو إخراج القوات العربية المقاتلة منها ـ الفلسطينية والسورية والوطنية اللبنانية ـ ونزع السلاح منها.

وفي إطار هذا المسعى الاميركي طلبت بعض القيادات الوطنية اللبنانية مهلة يومين من أجل دراسة الأمر، مع الحصول على «تطمينات اميركية» بأنّ إسرائيل لن تقدم على اجتياح العاصمة، والتشاور، في المقابل مع منظمة التحرير الفلسطينية من أجل موافقتها على تجميع السلاح في مرحلة أولى وعلى نزول الجيش اللبناني إلى العاصمة والضواحي. وفي إطار هذا المسعى أيضاً قال قيادي فلسطيني التقى رئيس الوزراء اللبناني: إنّ الشروط المفروضة على المقاومة الفلسطينية ككل، لا يمكن القبول بها. وأشار إلى أنّ تسليم السلاح ثمّ رفع الرايات البيض والخروج بقوافل من بيروت، وربما من لبنان، أمر مرفوض. ولا

يمكن أن يقبله فلسطيني على الإطلاق مهما كان الثمن «وإذا كانت أسطورة «مسادا» مقدسة لدى الإسرائيليين واليهود عموماً فإننا قادرون على صنع «مسادا» فلسطينية فنجمع النساء والأطفال والشيوخ والرجال في المخيمات ونقاتلهم (أي الإسرائيليين)، ونقتل منهم قدر ما نستطيع إلى أن يبيدونا».

استطاع الضغط والتأثير الاميركيان من خلال المبعوث فيليب حبيب كما استطاع الحصار الإسرائيلي لبيروت، وضغط ثقل الاحتلال وضرب بيروت وضواحيها بشكل كثيف ومستمر ـ على الرغم من ثلاثة اتفاقات لوقف إطلاق النار (١١ و١٢ و٦/٢٢) خرقتها إسرائيل جميعها وتابعت أعمالها العدوانية ـ أن تولد لدى القوى والقيادات الوطنية اللبنانية شعوراً بأنّ أمامها خيارين لا ثالث لهما وهما: تدمير بيروت والمقاومة الفلسطينية والقوات السورية أو إنقاذ بيروت بإخراج القوات الفلسطينية والسورية منها.

ومن خلال هذا الوضع الذي أسهم الضغط الاميركي والقنبلة الإسرائيلية في خلقه راحت قيادة الثورة الفلسطينية تطالب بانسحاب القوات الإسرائيلية من حول بيروت من أجل فتح السبيل أمام حل تتفق عليه الحكومة اللبنانية وقيادة الثورة والقيادات الوطنية اللبنانية. ونبهت الثورة الفلسطينية الأنظار إلى أنّ إسرائيل والولايات المتحدة تريدان من الجيش اللبناني أن يكون الأداة وحصان طروادة لتنفيذ الشروط الاميركية ـ الإسرائيلية فيدخل الجيش اللبناني ليجرد قوات الثورة والقوى الوطنية من سلاحها.

وقد أعلن رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات «أننا اتخذنا قرار الصمود والقتال والانتصار».

وفي الوقت ذاته. قال بيان صدر في دمشق، إثر اجتماع عقده مجلس الوزراء يوم ٢١ حزيران (يونيو): «أنّ مجلس الوزراء يؤكد أنّ التدخل الاميركي ـ الإسرائيلي بالقوة العسكرية المباشرة في لبنان، كان ولايزال تدخلاً خطيراً متعدد الغايات وسيضع المنطقة على فوهة حرب يمكن أن تنشب وتتسع بين لحظة وأُخرى«. وقال البيان إنّ سورية »تقف بكل إمكاناتها مع منظمة التحرير الفلسطينية والقوى الوطنية اللبنانية موقف مصير واحد ضدّ مخطط الإخضاع وسياسة فرض الأمر الواقع».

رسالة الرئيس حافظ الأسد

وفيما كانت الهجمة على بيروت تشتد بكثافة واستمرار كبيرين، وفيما كان رجال القوات المسلحة السوريون يقاتلون في بيروت، في خندق واحد مع المقاتلين الفلسطينيين واللبنانيين، وجه الرئيس حافظ الأسد رسالة إلى هؤلاء المقاتلين، يوم ١ (آب) أغسطس، حياهم وأشاد بنضالهم وبطولاتهم، وقال لهم: «إنّ عروبة بيروت أمانة بين أيديكم، فاحفظوا هذه الأمانة، ودافعوا عن نسائها وشيوخها وأطفالها ضد همجية أعداء الإنسانية، واجعلوا معركة بيروت ملحمة مجد، دفاعاً عن كرامة الأمة العربية ودرساً للمتخاذلين الجبناء. وليس هناك أعز وأشرف وأروع خلوداً من نهاية أبيّة للحياة تتم في ميدان القتال دفاعاً عن الوطن. أُحييكم وأشد على أيديكم وأُقبلكم فرداً فرداً. وأطلب إليكم الصمود ودحر العدو والتمسك بشعارنا الخالد الشهادة أو النصر. لتكملوا طريقنا، طريق البطولة، طريق الفداء، طريق الشهادة، طريق النصر».

المشروع الاميركي

طالت فترة المفاوضات بين الحكومة اللبنانية وقيادة منظمة التحرير الفلسطينية، وبين هذين الطرفين من جهة وإسرائيل من جهة أُخرى بواسطة المبعوث الاميركي، وقد تمكن فيليب حبيب، في ختام هذه المفاوضات، من وضع مشروع خطة وافقت عليه الأطراف المعنية، يوم ١٢ (آب) أغسطس، وأقره مجلس الوزراء اللبناني يوم ١٨ (آب) أغسطس ١٩٨٢. وتتضمن الخطة:

١ ـ وقف إطلاق النار وقفاً شاملاً.

٢ ـ مغادرة بيروت بطريقة سلمية وفق برنامج زمني.

٣ ـ ترافق القوات متعددة الجنسيات سير العمليات.

٤ ـ يخضع الفلسطينيون غير المقاتلين والذين سيبقون في لبنان للقوانين والأنظمة اللبنانية.

٥ ـ تنتشر القوات متعددة الجنسية يوم المغادرة، لتأمين سلامة الفلسطينيين واللبنانيين في المنطقة الغربية من بيروت، ولمساندة الدولة في بسط سلطتها. وستتألف هذه القوات من ٨٠٠ جندي اميركي، و٨٠٠ جندي

فرنسي، و٤٠٠ جندي إيطالي، و٣٠٠٠ جندي من الجيش اللبناني أو أكثر وفقاً لمتطلبات المحافظة على الأمن.

٦ ـ إذا تعذر أحد البنود تعتبر مهمة القوات متعددة الجنسية منتهية.

٧ ـ مدة عمل القوات متعددة الجنسية شهر واحد. ويحق للدولة اللبنانية تمديد مهمتها إذا رأت ضرورة لذلك.

٨ ـ يشارك الصليب الأحمر في المساعدة على المغادرة.

٩ ـ تكون المغادرة بحراً من مرفأ بيروت، وجواً إلى قبرص، وبراً عن طريق بيروت ـ دمشق، على أن يبتعد الجيش الإسرائيلي عن الطريق الدولية لتأمين سلامة الانسحاب، فيما يتولى الجيش اللبناني التنسيق مع منظمة التحرير الفلسطينية.

١٠ ـ المدة المحددة لإتمام الانسحاب هي ١٥ يوماً، ويتم في وضح النهار. وينقل المقاتلون معهم أسلحتهم الخفيفة (مسدس أو بندقية).

١١ ـ تسلم الأسلحة الثقيلة إلى الجيش اللبناني.

١٢ ـ تغادر قيادة المقاومة لبنان علناً. ويتم إعلان ذلك على نحو واضح ومكشوف.

١٣ ـ تغادر ألوية جيش التحرير الفلسطيني براً. أما القوات السورية الموجودة في بيروت فتخرج إلى البقاع أو الشمال حيث توجد القوات السورية.

وفي هذه الأثناء كانت القوات متعددة الجنسيات، وهي من الولايات المتحدة وفرنسا وإيطاليا، تستعد للسفر بحراً إلى بيروت، بعد أن قدمت الحكومة اللبنانية إلى الحكومات الثلاث طلبات بشأن استقدام هذه القوات إلى لبنان.

سارت خطة انتقال قوات المقاومة الفلسطينية من بيروت وفق جدول زمني، بدأ يوم ٢١ (آب) أغسطس ١٩٨٢، حيث وصلت طليعة القوات متعددة الجنسية إلى مرفأ بيروت، ثمّ تلا ذلك بدء المغادرة. وقد توجهت القوات الفلسطينية وقياداتها إلى سورية والعراق والأردن وتونس واليمن الديموقراطي والجمهورية العربية اليمنية والجزائر والسودان. وانتهت

عملية المغادرة يوم ٣١ (آب) أغسطس. وعملت القوات متعددة الجنسية لمساعدة الجيش اللبناني في اتخاذ ترتيبات لضمان أمن دائم في منطقة العمليات. ثمّ أخذت بعض هذه القوات تغادر لبنان بدءاً من يوم ١١ (أيلول) سبتمبر حتى ١٣ (أيلول) سبتمبر ١٩٨٢.

وفي أثناء تطبيق برنامج المغادرة، اجتمع المجلس النيابي اللبناني في المدرسة الحربية، يوم ٢٣ (آب) أغسطس، واكتمل النصاب بأكثرية نائب واحد. وانتخب النواب الحاضرون الشيخ بشير الجميل، رئيساً للجمهورية اللبنانية، في ظل الاحتلال وتحت حراب الجنود الإسرائيليين الذين كانوا يحاصرون بيروت ويحيطون بالمدرسة الحربية، حيث جرى الانتخاب، بضاحية بعبدا، حيث مقر رئاسة الجمهورية. وقد قاطع معظم النواب الوطنيين جلسة المجلس النيابي للظروف التي ذكرناها، بالإضافة إلى أنّ المرشح هو زعيم الاتجاه الانعزالي والتقسيم الطائفي، وقائد القوات اللبنانية التي أثارت الفتنة، وأشاعت القتل والإرهاب، ودفعت لبنان إلى حرب أهلية لم تبق ولم تذر. وقد تعاون المرشح مع إسرائيل ضدّ شعبه ووطنه. وأدت هذه الأسباب كلها إلى بدء ظهور الانشقاق والتمرد في بعض المناطق اللبنانية وفي صفوف الشعب اللبناني، وعلى الرغم من ظروف الاحتلال وقساوة المعركة مع العدو، وبدء مغادرة القوات الفلسطينية والقوات المسلحة السورية العاملة ضمن قوات الردع العربية مدينة بيروت. انتهت المغادرة وفق البرنامج الزمني المقرر. وقد خرج من بيروت إلى البقاع في لبنان ٣٦٠٠ جندي سوري. وغادر بيروت إلى الأقطار العربية التي ذكرناها ٨٣٠٠ مقاتل من المقاومة الفلسطينية، و٢٦٠٠ جندي من جيش التحرير الفلسطيني (قوات القادسية وقوات حطين) وكتيبة بدر من الجيش ذاته.

الحلقة السادسة عشرة: انقلب أمين الجميل على مواقفه التي أعلنها فور انتخابه رئيسا وجعل بيروت الغربية مستباحة من قبل «القوات اللبنانية»

اثر اغتيال الرئيس المنتخب بشير الجميل في ١٩٨٢/٩/١٤، والأحداث المأسوية التي أعقبت ذلك الاغتيال، وفي مقدمها: اجتياح الاسرائيليين لبيروت الغربية والضاحية الجنوبية، ووقوع مذبحة صبرا وشاتيلا، برزت الحاجة الماسة الى وحدة اللبنانيين لمواجهة مصيرهم ومصير بلادهم عبر مواجهة النتائج المذكورة، ولأنّ انتخاب رئيس الجمهورية يجري وفق ميثاق ١٩٤٣ غير المكتوب والذي يقضي بأن يكون الرئيس من الطائفة المارونية، فقد تزايد الالحاح على أن يتمتع الرئيس الجديد بثقة المسلمين. وقد تقدم للترشيح لهذا المنصب، أمين الجميل نائب المتن الأعلى عن حزب الكتائب وكميل شمعون رئيس الجمهورية الأسبق، رئيس حزب الوطنيين الأحرار وريمون اده نائب جبيل المقيم منذ مدة طويلة في العاصمة الفرنسية باريس.

وعلى الرغم من أنّ أمين الجميل هو شقيق بشير الجميل ويجمعهما حزب واحد، الا أنهما كانا متباينين في نقاط ومواقف كثيرة. فالمعروف عن أمين أنّه كان يتحلى بصفات كثيرة منها التعقل والمرونة والاعتدال، ويؤمن دائماً بالحوار مع جميع القوى، حتى ولو كانت ممن يخالفه الرأي.

وقد اندفعت القوى السياسية والبرلمانية الاسلامية والوطنية نحو الاعلان عن تأييد ترشيح أمين الجميل، وعقدت مؤتمراً اتفق فيه على قيام ما يشبه الاجماع الوطني على انتخاب هذا المرشح. الأمر الذي جعل أمين الجميل مرشح الوفاق والوحدة الوطنية. مما دعا منافسه كميل شمعون الى الانسحاب من المعركة الانتخابية. وفي ١٩٨٢/٩/٢١، تمّ انتخاب أمين الجميل رئيساً للجمهورية بما يشبه التزكية لأنّ القوى السياسية والبرلمانية الاسلامية لم تعتبر ريمون اده مرشحاً لها.

وتعهد الرئيس أمين الجميل بأن يكون همه الأول هو «وقف دورة العنف والنزف وضمان أمن الوطن وسلامة الوطن... ولن يتحقق ذلك الا من خلال دولة مستقلة، سيدة، تصون الحريات ويكون جيشها من كل لبنان كي يتواجد على أرض كل لبنان».

والحقيقة أنّ أمين الجميل هو الزعيم الوحيد، مما كان يسمى «المنطقة الشرقية» الذي لم يقطع اتصالاته مع زعماء المنطقة الغربية ومع قيادات منظمة التحرير الفلسطينية ومع سورية طيلة السنوات الثماني من الحرب اللبنانية. ومنذ اليوم الأول للغزو الاسرائيلي للبنان شدد الجميل على ضرورة تحقيق الوفاق كاشارة تحذيرية الى المخاطر الجمة عن الغزو، وخصوصا على صعيد الوفاق. فقد قال الجميل: «انّ الوفاق لا يمكن لأحد أن يلغيه أو يخفيه، ولا يمكن لأي كان أن يفرضه أو يرفضه لأنّه حقيقة لبنان، ولأنّ لا ارادة فوق ارادة المسلمين والمسيحيين» ودعا الجميل الى انتفاضة لبنانية عارمة «انتفاضة الحق على الباطل، انتفاضة لبنان على مغتصبيه» وقال: «اما الانقاذ وهو، ما يجب أن يكون واما سقوط الهيكل وخراب المنطقة كلها».

ومما لاشك فيه أنّ هذه المواقف والانفتاحية على جميع القوى التي أخذها في خضم الحرب اللبنانية ووحشيتها وقسوتها، قد ساهمت في تخفيف العقبات التي واجهت أمين الجميل بعد انتخابه. وأكبر مثال على ذلك ما صدر من مواقف من القيادات السياسية كافة على مختلف انتماءاتها وبالأخص من الرئيس الأسبق سليمان فرنجية الذي أكد دعمه للشرعية «طالما أنها تسعى الى اجلاء المحتلين الاسرائيليين». هذا على الرغم من أنّ فرنجية كان على خلاف حاد مع حزب الكتائب، بسبب مواقف الحزب المعادية لطموحات الأمة العربية وتحالفه مع العدو الصهيوني اضافة الى أنّ فرنجية كان يكن عداءً شديداً لآل الجميل، خاصة بشير الجميل، الذي دبر مقتل النائب طوني فرنجية نجل الرئيس الأسبق في ١٩٧٨/٦/١٣.

غير أنّ مواقف الرئيس أمين الجميل الوفاقية لم تخفف كثيراً من مخاوف القوى الاسلامية والوطنية من ممارسات حزب الكتائب الذي تسلل عدد كبير من أعضائه الى الجيش اللبناني، سيّما أنّ هذا الجيش سيكون الأداة التوحيدية الوحيدة للبلاد في يد الرئيس الجديد.

لهذا لم يكن غريباً أن يتوجس المسلمون خوفاً من تطبيق «أول عملية وفاقية ميدانية» في عهد الرئيس أمين الجميل أي «توحيد العاصمة» الذي أطلق عليه بعضهم اسم «مشروع بيروت الكبرى» والحقيقة أنّ فكرة المشروع لم تكن جديدة. فقد طرحت في صيف ١٩٧٦ ثمّ أُعيد طرحها في العام ١٩٧٨. ولم يقدر لها الخروج الى حيّز التنفيذ، لأسباب تتعلق بالصراعات وبوجود أعداد هائلة من المسلحين في شقي العاصمة. ولقد بعثت الفكرة من جديد بعد انتخاب بشير الجميل وظهرت في «الخطة

الأمنيـة» الخاصـة بتوحيد العاصـمة. وقد كـان مقرراً أن يبدأ تطبيـق هذه الخطة من بيروت الشرقية وذلك بسبب حاجة بشير الجميل الـى اكتساب جانب من ثقة الزعماء المسلمين والتنظيمات السياسية الوطنية في بيروت الغربيـة قبـل أن يتسلم مقاليد الرئاسـة. غيـر أنّ مصرعه أدى الـى تأجيل التنفيذ.

أما شقيقه أمين فيبدو أنه رأى في الثقة التي منحـه اياهـا الشارع الاسلامي والـوطني فرصـة لتطبيـق الخطـة فـي بيـروت الغربيـة. غيـر أنّ ذلـك جـدد المخاوف من ممارسات الجيش والقوة متعددة الجنسيات، ففي الخامس من (تـشرين الأول) أكتـوبر بـدأ الجـيش والقـوة متعـددة الجنـسيات حملـة «تمـشيط» فـي بيـروت الغربيـة بحثـاً عـن الأجانـب المقيمـين فـي الـبلاد بـصورة غيـر مـشروعة وعـن الأسـلحة والـذخائر. وأخـذت الحملـة شـكل مـداهمات أسـفرت عـن اعتقـال مئـات الفلـسطينيين وعـدد كبيـر مـن أفـراد الحركة الوطنيـة وقيادييهـا، الأمـر الـذي أثـار الشكوك حـول دوافـع الحملـة وأهدافها وزاد من حدة هذه الشكوك التركيز على نـزع السلاح من بيروت الغربية قبل نـزعه من بيروت الشرقية اضافة الـى قيـام ميليشيات الكتائـب المسلحة بالتسلل الـى بيروت الغربيـة المنـزوعة السلاح، واعتقـال أعداد كبيرة من المواطنين بحجة انتمائهم الى الخط الوطنـي وتعاونهم مع الثـورة الفلـسطينية وقـوات الـردع العربيـة ابـان صـد العـدوان الاسـرائيلي علـى العاصمة اللبنانية.

ولقد بقي توحيد بيروت شكلياً حتـى بعد فتح ممرات العبـور وبـدء انتقال المواطنين بين شطري المدينـة لأنّ السلطة فـي بيـروت الشرقية بقيت بيد حزب الكتائب، بينما كانت بيروت الغربية تحت سلطة الدولـة. ولـم يتحقق التوحيـد عمليـاً الا فـي ١٩٨٣/٢/١٥، عنـدما انـسحبت ميليـشيات الجبهـة اللبنانية من بيروت الشرقية وامتدت سلطة الدولة لتشمل العاصمة كلها.

حول الانسحاب من لبنان

أسـفر الغـزو الاسرائيلي عـن احـتلال جـزء كبيـر مـن الأراضـي اللبنانيـة، شمل الجنوب والشوف وجزين والجبل وبعض البقـاع والمنطقـة الـساحلية حتــى بيــروت ضــمناً مــع امتــداد باتجــاه الكــورة. ثــمّ انــسحبت القــوات الاسـرائيلية مـن العاصـمة فـي ١٩٨٢/١٠/٤، وانتـشرت علـى تخومهـا الجنوبية والشرقية مقابل القوات متعددة الجنسيات، التـي كُلّفت بمساعدة

قوات الشرعية اللبنانية (الجيش وقوى الأمن الداخلي) في الحفاظ على الأمن داخل بيروت والضاحية الجنوبية ومخيمات الفلسطينيين.

الا أنّ الانسحاب من العاصمة لم يكن يعني نهاية العدوان، لأنّ القوات الاسرائيلية بقيت مسيطرة على أراضي دولة ذات سيادة وأخذت صفة الدولة المحتلة الرافضة لقرارات مجلس الأمن الخاصة بالانسحاب الى ما وراء الحدود الدولية.

الموقف الاسرائيلي من الانسحاب

يدل تطور الأحداث والمواقف على أنّ الاسرائيليين ينوون تحقيق ما هو أبعد بكثير من أهدافهم المعلنة، بدليل أنّ العملية المسماة «السلام للجليل» لم تنته بابعاد الفدائيين الفلسطينيين الى بُعد أربعين كيلو متراً الى الشمال من خط الهدنة اللبناني ـ الاسرائيلي، بل تطورت الى أهداف أخرى مثل اخراج القوات السورية والقوات الفلسطينية من الأراضي اللبنانية كافة، واقامة «حكم قوي» في لبنان والتوقيع على «معاهدة سلام» معه، وبعد ذلك أخذت اسرائيل تتحدث عن اقامة «ترتيبات أمنية» في الجنوب اللبناني، توطئة لتحقيق هدف تالٍ يتلخص في نهب ما يمكن نهبه من أرض لبنان لضمه الى الكيان الاسرائيلي.

انّ الموقف الاسرائيلي من الانسحاب يتمثل في التمسك بالمناطق اللبنانية المحتلة والمساومة عليها لتحقيق أطماع صهيونية قديمة، مع العمل في الوقت ذاته على تكريس واقع الاحتلال وتثبيت مرتكزاته. الأمر الذي يهدد مستقبل لبنان وسيادته ووحدته وسلامة أراضيه ويكشف عمق الهوة التي وقعت فيها الجبهة اللبنانية عندما تحالفت مع الصهيونيين ضدّ العرب ثمّ اكتشفت ـ بعد فوات الأوان ـ أنّ على لبنان كله أن يدفع ثمن هذا السقوط.

الموقف الاميركي

قبل الغزو ببضعة أيام، قال وزير الخارجية الاميركي وقتذاك، الكسندر هيغ «انّه خلال الأسابيع المقبلة، ستقوم الادارة الاميركية بشغل دور أكثر فاعلية في منطقة الشرق الأوسط» ثمّ شدد قائلاً: «هذا هو الوقت المناسب للولايات المتحدة للعب دورها في هذه المنطقة».

ومع اليوم الأول لعملية الغزو، وجّه الرئيس الاميركي ريغان الى رئيس الوزراء الاسرائيلي بيغن رسالة تكشف، الى حدٍ كبير، الصلة بين هذه العملية ومحاولة اغتيال السفير الاسرائيلي في بريطانيا شلومو آرغوف، وقال فيها: «عزيزي مناحيم في أعقاب اطلاق النار على السفير أرغوف، وتصعيد العنف الذي جاء نتيجة لذلك فانني واثق من أنك منتبه الى جهودنا في التعاون مع الأطراف المهتمة في أوروبا والشرق الأوسط من أجل استخدام النفوذ كي لا تحدث أعمال اضافية أُخرى ضدّ اسرائيل»، وقال ريغان أيضاً: «سنجري اليوم أنا وهيغ مشاورات مع السفير حبيب وسنطلب منه اذا سمح الوضع متابعة مهمته في المنطقة، كما هو مخطط. انني آمل أن توافق على وجوب العمل معاً لأجل خلق الظروف التي تمكن مع مرور الوقت من خلق لبنان مستقر. وفي نهاية الأمر خلق الأمن على الحدود الشمالية لاسرائيل». وختم ريغان رسالته بقوله «كما تعلم، فانّ أمن اسرائيل هو من أول اهتماماتي».

انّ هذا الكلام يُظهر الى حدٍ كبير دور الولايات المتحدة في عملية الغزو. وهو الدور الذي كشفه يعقوب حزان أحد مؤسسي الدولة الصهيونية بقوله: «كانت خطة الغزو شاملة وتهدف الى تحقيق تغيير جوهري في الخريطة السياسية حولنا، تغيير في وضع لبنان وسورية والاتحاد السوفياتي وفي وضع شريكتنا في العملية، الولايات المتحدة. لا أقول أنّ هناك مؤامرة بيننا وبين الولايات المتحدة بل أقول انّ ما حصل هو جزء لا يتجزأ من الاتفاق الاستراتيجي بيننا وبينها».

وعلى الرغم من صدور قرارين متعاقبين (٥٠٨ و٥٠٩) عن مجلس الأمن، يقضيان بسحب قوات الغزو فوراً من الأراضي اللبنانية فانّ الولايات المتحدة استخدمت ليلة ٨-٩ (حزيران) يونيو حق النقض «الفيتو» ضدّ مشروع قرار قدمته اسبانيا، الى مجلس الأمن يطالب مجدداً بأن تسحب اسرائيل قواتها من لبنان فوراً ودون قيد أو شرط، وبانهاء الأعمال الحربية في هذا البلد خلال ٦ ساعات. فيما صوتت الدول الأربع عشرة الى جانب المشروع. وكانت مندوبة الولايات المتحدة في الأمم المتحدة، جين كير كباتريك، قد بررت الغزو بقولها «انّ تحرك الدبابات الاسرائيلية عبر الحدود لا يختلف من الناحية النوعية عن قصف بلد بقذائف المدفعية الثقيلة وكلاهما أعمال عنف كبيرة».

ومع اكتمال حصار بيروت بدت الادارة الاميركية مصممة على الاستفادة من الضغط العسكري الاسرائيلي بشأن اخراج المقاومة من بيروت. وبدا

ذلك التصميم واضحاً من خلال مباحثات الموفد الاميركي فيليب حبيب مع الحكومة اللبنانية ومع قيادة المقاومة عبر الممثلين اللبنانيين وكذلك مع بعض القيادات العربية.

وعلى الرغم من أنّ الادارة المذكورة كانت تلح على تطبيق هدفها في ما يسمى «اخراج القوات الأجنبية من لبنان» الا أنها كانت تركز، عبر تصريحات مسؤوليها وعبر مهمة فيليب حبيب، على اخراج المقاومة من لبنان دون أن يتطرق الحديث الى موضوع «سحب القوات الاسرائيلية» ولقد كشفت صحيفة «واشنطن بوست» الاميركية المقربة جداً من أوساط الحكومة الاميركية أنّ الولايات المتحدة «لم تعد ترغب في أن تنسحب القوات الاسرائيلية من لبنان» وشرحت الجريدة، أسباب هذا الموقف بالقول «انّ الواقع الحالي في لبنان تجاوز المعطيات التي ارتكز عليها قرار مجلس الأمن الدولي رقم ٥٠٩ الذي طالب بانسحاب القوات الاسرائيلية من لبنان بل انّ الولايات المتحدة امعاناً في تحقيق الهدف المتضمن سحب المقاتلين الفلسطينيين من بيروت، استخدمت حق النقض ضدّ مشروع قرار فرنسي يطالب اسرائيل بسحب قواتها من منطقة بيروت ويقترح وضع قوات أمن لبنانية في المنطقة الغربية من بيروت، وذلك على الرغم من موافقة جميع الدول الأعضاء في المجلس على مشروع القرار المذكور».

والتناقض الغريب في الموقف الاميركي هو استخدام الضغط العسكري الاسرائيلي لاجلاء المقاومة مع الاعلان بأنّ الهدف المركزي هو اجلاء «جميع القوات الأجنبية عن لبنان»، وهكذا فانّ اميركا شاءت انهاء ما أسمته «الغزو» الفلسطيني عن طريق احلال الغزو الاسرائيلي محله.

<u>الموقف السوري</u>

دخلت القوات السورية لبنان في العام «١٩٧٦» لمنع الاقتتال بين الاخوة، وواجهت الغزو الصهيوني في العام ١٩٨٢ تحت شعار حماية الشعبين اللبناني والفلسطيني. وكان موقفها في الحالتين نابعاً من منطلق قومي. لذا فقد كان من الطبيعي أن يكون موقفها من الانسحاب الاسرائيلي قومي المنطلق أيضاً. ولقد ظهرت أولى بوادر هذا الموقف في مساء «٦/١٠». فبعد المباحثات التي أجراها المبعوث الاميركي فيليب حبيب مع الرئيس حافظ الأسد، وافقت سورية على وقف اطلاق النار، الأول، شريطة أن يرافق ذلك انسحاب اسرائيلي فوري من لبنان.

وفـي ١٥ حزيـران (يونيـو) ١٩٨٢ كـشف نـاطق رسـمي سـوري عـن محـاولات سياسـية اسـرائيلية هـدفها انتـزاع «موافقـة سـورية علـى سـحب قواتهـا مـن لبنـان». فقـد تلقـى العميـد سـامي الخطيـب، قائـد قـوات الـردع العربيـة انـذاراً مـن القائـد العسكري الاسـرائيلي ومعاونـه فـي منطقـة بعبـدا بوجـوب اخـلاء مدينـة بيـروت ومـا جاورهـا مـن القـوات الـسورية. وقـال النـاطق انّ سورية أجابت العميد الخطيب بأنّ قواتنـا الموجـودة فـي بيـروت انمـا تعمـل بموجـب قـرار عربـي وبطلـب مـن الـسلطة الـشرعية اللبنانيـة، ولبنان دولة مستقلة وذات سيادة، وانّ هذه القوات ستقوم بتنفيذ واجباتها للدفاع عن السلطة الشرعية اللبنانية والأراضي اللبنانية والشعبين اللبنـاني والفلسطيني في لبنان، وبكل امكاناتها. كان واضحاً من الطلب الاسرائيلي والرفض السوري له، أنّ الموضوع يتعلق بصراع الارادات حول مستقبل لبنان وهويته ومصيره. وانّ رغبة اسرائيل في استباحة الأراضي اللبنانيـة وابـادة الـشعبين اللبنـاني والفلـسطيني، تـصطدم بـارادة سـورية لا تقبـل المساومة.

ولقد اعتقد العدو الاسرائيلي أنّ اتفاق وقف اطلاق النار مع سـورية يـسمح لـه بمتابعـة القتـال ضـدّ الثـورة الفلـسطينية والقـوى الوطنيـة اللبنانيـة دون صدام مع القوات السورية. ولكن الربط بين وقف القتال والانسحاب جعل القوات السورية تتابع التصدي للغزاة عندما حـاولوا التقدم باتجـاه بيـروت أو في الجبل أو البقاع. الأمر الذي أدى الى وقوع عدد من المعارك البرية والجوية. وكانت تلك المعارك تمثل اصرار سـورية علـى اسـتمرار دورهـا العسكري فـي لبنـان، طالمـا اسـتمر الوجـود العسكري للغـزاة. ومنـذ وقـف اطلاق النار الأخير، اقترن صمود سورية العسكري بجهد سياسـي نـشيط، هدفه دفع اسرائيل الى سحب قواتها الغازية من لبنان. واحبـاط المحـاولات الاميركية الرامية الى الربط بين الانسحاب الاسرائيلي والوجود العسكري السوري في الأراضي اللبنانية.

وكان الرئيس الأسد قد ذكر في حديث لمجلـة «النهـار العربـي والـدولي»: «فكما كنا في السابق مع لبنان، نحن الآن وسنبقى في المستقبل مـع لبنـان. واذا كنا مع لبنان بقوة قبل الاجتياح الاسرائيلي لبعض أجزائه، فنحن الآن بقوة أكثر مع لبنان لتحرير الأرض اللبنانية التـي احتلهـا العـدو مهمـا رتـب علينا ذلك من أعباء وتضحيات. ومثل هذا الأمر نعتبره واجباً، ولا يتوقف قيامنا بهذا الواجب على طلب من أحد».

انّ الوجود العسكري السوري في لبنان يفرض على سورية أعباء أمنية واقتصادية كبيرة. ولكنّ سورية تقبل حمل هذه الأعباء، مادام الغرض منها مساعدة قطر عربي شقيق على مقاومة مخططات العدو المشترك. وبهذا المعنى، يكون الثبات العسكري السوري في البقاع، حتى يتم انسحاب الاسرائيليين وتزول حاجة لبنان الى القوات السورية، ثباتاً قومياً في مواجهة أخطر حملة تتهدد وجود الأمة العربية.

الموقف اللبناني

في غياب الوفاق والاجماع الوطني اللبناني على المسائل التي تحقق المصلحة العليا للوطن، ومع انجراف كثير من اللبنانيين وراء مختلف القوى والتيارات السياسية الاقليمية والخارجية، يغيب الموقف الوطني الموحد من قضية الانسحاب الاسرائيلي من لبنان، على الرغم من أنّ جميع القوى السياسية اللبنانية تعلن تمسكها المبدئي بتحقيق هذا الانسحاب وبدعم السلطة الشرعية، وبوحدة لبنان أرضاً وشعباً.

فالسلطة الشرعية اللبنانية راغبة في انسحاب الاسرائيليين من لبنان كله دون أن تدفع مقابل ذلك ثمناً سياسياً باهظاً، ولكنها تجد صعوبة في تحقيق التفاف جميع اللبنانيين حولها بشأن اجلاء الغزاة الاسرائيليين. فالأوضاع في الشوف وعاليه لا تدعو الى الارتياح، وحزب الكتائب موزع الولاءات حائر بين معتقداته وضغط اسرائيل على بعض أجنحته، وسعد حداد يهاجم السلطة الشرعية انطلاقاً من الأوامر التي يتلقاها من الغزاة. ناهيك عن تعدّد المواقف السياسية للقوى الحزبية والطائفية كافة على الساحة اللبنانية. هذا الوضع هو الذي دفع الرئيس أمين الجميل الى القول: «لست أدري كيف أطرح قضية الانسحابات من لبنان، والوضع في الشوف وعاليه على ما نرى»، وذلك قبل توجه الرئيس الجميل الى الولايات المتحدة لالقاء خطابه في منظمة الأمم المتحدة وللاجتماع بالرئيس ريغان وأركان الادارة الاميركية في شهر (تشرين الأول) أكتوبر ١٩٨٢.

وليس موقف القوى الوطنية والاسلامية سوى امتداد لموقفها من الغزو. فلقد دانت الغزاة منذ البداية، ونادت بضرورة مقاومتهم وحملت تنظيماتها المقاتلة السلاح ضدهم، وقاتلت الى جانب القوات السورية وقوات الثورة الفلسطينية وتعرضت في المناطق التي اجتاحها العدو الى الارهاب والأسر والتنكيل، ونظمت في تلك المناطق مقاومة سرية لمواجهة الاحتلال والتصدي لعملائه المحليين.

لذا فقد كان من الطبيعي أن تقف في طليعة الأطراف اللبنانية المطالبة بانسحاب الاسرائيليين، الكامل، والداعية الى مواجهتهم بمختلف وسائل النضال. كما كان من الطبيعي أن تؤيد السلطة الشرعية الساعية الى تأمين الانسحاب الاسرائيلي، وأن ترفض في الوقت ذاته «الانسحاب المتزامن والانسحاب الجزئي» أو أي فكرة تساوي بين انسحاب القوات الاسرائيلية الغازية وانسحاب القوات الصديقة (السورية والفلسطينية) من البقاع والشمال.

وبالمقابل فانّ موقف «الجبهة اللبنانية» من الانسحاب حافل بالتناقض. فلقد رفعت لواء العداء للقوات السورية والفلسطينية قبل بدء الغزو واعتبرتها قوات غريبة وطالبت بانسحابها بحجة الحفاظ على السيادة اللبنانية. ثمّ أسقطت هذه الحجة منذ أن اتصلت بالعدو الصهيوني وشجعته على العدوان. وكان موقفها من خلال الغزو متعارضاً مع الحفاظ على السيادة الوطنية. فلقد قاتلت قوات الجبهة اللبنانية مع الغزاة حيثما سمح لها بذلك، واستقبلت المعتدين بترحاب مكشوف، وقدمت لهم غطاءً سياسياً لبنانياً وشاركت في حصار بيروت والتنكيل بالمواطنين واعتبرت الانتصار العسكري الاسرائيلي انتصارها. واعتقدت أنّ القوات الاسرائيلية لم تدخل لبنان الا لخدمتها.

أمام هذا الوضع الصعب كان على «الجبهة اللبنانية» أن تتخذ موقفاً ازاء الوجود الاسرائيلي العسكري في الأراضي اللبنانية، فهي لا تستطيع السكوت على هذا الوجود الاحتلالي المتعارض مع مقولاتها عن السيادة ولا تتمكن من مطالبة الاسرائيليين بالانسحاب بعد أن اتفقت معهم على الغزو وساعدتهم خلاله، وليس بوسعها رفع لواء مواجهتهم من أجل اجلائهم لاسيّما بعد أن تمكنوا من اختراق الجبهة وتقسيمها الى أجنحة وربط بعض تلك الأجنحة بهم وتحويلها الى أدوات اسرائيلية.

لذا اكتفت «الجبهة اللبنانية» بطرح مقولة انسحاب القوات «الأجنبية» كلها وساوت بين عدو لبنان وأصدقائه بل وذهبت الى حد المطالبة بانسحاب سوري، فلسطيني أولاً. الأمر الذي أتاح لاسرائيل مجالاً واسعاً للمناورة ومنحها الفرصة لترسيخ وجودها الاحتلالي على الأرض اللبنانية.

الحلقة السابعة عشرة: القيادة الإسرائيلية كانت تبحث عن كبش فداء لاقتحام بيروت الغربية وتصفية الوجود الفلسطيني ووجدت ضالتها في شخصية بشير الجميل فقتلته

في الساعة التاسعة من صباح السبت الثامن عشر من أيلول (سبتمبر) ١٩٨٢. كان صمت القبور يلف المخيمات في غرب بيروت.. لقد خرج القتلة لتوهم من هناك ولم يعد للحياة أثرٌ في شوارع وأزقة صبرا وشاتيلا، الا طنين الذباب المتجمع على خثرات الدم الأسود.

بقايا أعلام بيض ترتفع هنا وهناك، وجثث وأشلاء تتكدس قرب الجدران، في مدخل شاتيلا تتكوم خمس عشرة جثة قرب جدار، «اعدام بالجملة».

الوقت أخذ يمضي، وسكون الموت ورائحته جاثمة فوق المكان، في ساعات ما قبل الظهر بدأ الناس يقتربون، بعض الصحافيين ومراسلي وكالات الأنباء، وبعض الذين هربوا في اليومين السابقين اقتربوا ليبحثوا عن أقربائهم. وأخذ المشهد المروع في الانكشاف، وبدأت تتضح معالم الجريمة شيئاً فشيئاً.

تطايرت البرقيات من مراسلي الصحف ووكالات الأنباء الى كل مكان في العالم، شيء رهيب قد حدث، مذبحة هائلة، في ذلك المساء، قطع مذيع احدى محطات التلفزة الاميركية البرامج ليقول: اليكم هذا الفيلم الذي وصل الآن من بيروت، يرجى ابتعاد أصحاب القلوب الضعيفة من أمام الأجهزة، نظراً لبشاعة المشاهد المخيفة.

ودار الشريط، وظهرت صور لحطام بيوت، ومن بين الحطام برزت جثث وأشلاء لنساء وأطفال، جثث مكدسة، ورأس طفل سلخ جلده، ومشاهد ينتصب لها شعر الرأس.

في ذلك المساء وفي الصباح التالي: بدأ العالم يستفيق على أنباء المجزرة، مراسلو وكالة اليونايتد برس قالوا: لقد شاهدنا مئات الجثث في مخيمي صبرا وشاتيلا... وفي الحقيقة كان عدد الجثث يزيد على الألف، مدير مكتب وكالة اليونايتد برس في بيروت اينسون سكودلسكي قال: «لقد أحصيت بنفسي ستين جثة في منطقة لا تبلغ مساحتها مئة متر مربع، وقد عثرت على جواز سفر لبناني في كومة الأمتعة الشخصية لأحد الضحايا،

مما يدل على أنّ القتلة لم يوفروا أحداً سواء كان لبنانياً أم فلسطينياً» وقال: «من مستشفى عكا الواقع في الطرف الجنوبي لمخيم شاتيلا خرج ثلاثة أطباء فلسطينيين وطبيب مصري يرفعون علماً أبيض، من أجل ايقاف اطلاق النار الذي يهدد المرضى، ألقيت عليهم قنبلة يدوية، فقُتل ثلاثة منهم وجُرح الرابع، وقد تحدث هذا الناجي الى أطباء منظمة الغوث الدولية في بيروت، لقد اختُطف الجرحى الذين كانوا في المستشفى يوم ١٧ / ٩ /١٩٨٢، ولم يعودوا، واختُطفت ممرضتان عادت احداهن، وقالت بأنّ رفيقتها البالغة تسعة عشر عاماً قد اغتُصبت عشر مرات ثمّ قُتلت».

صحيفة هآرتس «٢٠ / ٩ /١٩٨٢» كتبت تقول: «انّ مئات الرجال والنساء والأولاد والأطباء والممرضات تعرضوا للذبح في مخيمي صبرا وشاتيلا في بيروت الغربية على أيدي رجال الكتائب حلفاء اسرائيل، لقد قتل الكتائبيون كل رجل وامرأة وولد استطاعوا العثور عليه في المكان، وفي وقت لاحق تحركت الجرافات على امتداد الطرق الترابية الضيقة في المخيمات ودمرت بيوت الفلسطينيين، ومن ثمّ قامت الجرافات بوضع بقايا المباني والنفايات فوق الجثث من أجل اخفاء معالم المجزرة».

لقد شاهد من زار المكان بنفسه أيدي وأرجل القتلى تبرز من بين أكوام الردم والتراب، «جثة امرأة» وربما «جثتا امرأتين» أُلقيت على جثتي طفلين، الجثث انتشرت في كل مكان، أُلقيت على جنبات الشوارع في المخيمين وكذلك داخل البيوت، جثث كثيرة جرى تكويمها على جوانب الجدران حيث جرت فيما يبدو «عمليات اعدام جماعية».

لورن جنيكس «مراسل» صحيفة «الواشنطن بوست» في بيروت كتب يقول: «لقد تحول مخيم شاتيلا للاجئين الى مخيم أشباح، وبدا المشهد الذي تكشّف صباح السبت أمام أنظار الصحافيين الأجانب بعد نجاحهم في دخوله: كابوساً منقولاً من «جحيم دانتي» النساء يبكين أمواتهن وروائح عفنة تنبعث من الجثث التي تلفحها حرارة الشمس اللاهبة.

جثث ملقاة على شوارع تملؤها خراطيش رصاص فارغة، تحاذيها لعبة أطفال على هيئة سيّارة، وحذاء نسائي ذو كعب عال».

لقد أحصى كاتب هذه السطور ستاً وأربعين جثة قبل أن يصاب بالغثيان، كما أحصى صحافيون آخرون أكثر من مئة جثة. وأبداً لن يعرف عدد من قتلوا، وربما يكونون مئات أو ألوفاً لقوا مصرعهم، أو اختفت آثارهم بعد

أن جرى اقتيادهم في ساعات الفجر الأولى، من قبل رجال قوات الكتائب الذين كانوا يرتدون ملابس من انتاج اسرائيلي، ويحملون مدافع اسرائيلية، ولم يبقَ في المخيم للمراقبين والصحافيين وأقارب الضحايا، سوى شهادات القتل كاشارات على الجريمة.

لقد جرى تفجير المنازل وطحنها على أصحابها بوساطة البلدوزرات، وانتشرت أكوام الجثث التي فارقتها الحياة تحت حطام الجدران التي نقرها الرصاص وهي تشهد الجريمة.

في حديقة متواضعة: استلقت جثتا امرأتين كأنهما كيسي طحين، ومن بينهما أطل رأس طفل تحجرت عيناه، وبقربهما استلقى طفل رضيع، ربما لم يبلغ السنة من العمر وكان مهشم الرأس تماماً.

في أحد الأزقة وجدنا جثتي فتاتين: الأولى في الحادية عشرة من العمر والأخرى لم تطفئ شمعتها الأولى بعد، كان في رأس كل واحدة منهما ثقب رصاصة... وعلى بعد خطوات منهما أُطلق الرصاص على ثمانية رجال أُسندوا الى حائط بيت يحمل رقم ٤٢٢، ٤٢٤.

كان زقاق من الأزقة الموجودة بين الأبنية المهجورة التي عاش الفلسطينيون داخلها بعد عام ١٩٤٨ يحكي قصة خاصة حول الجريمة.

في زقاقٍ آخر تكومت جثث ستة عشر رجلاً بعضها فوق بعض وعلى مقربةٍ منها على أرضية ساحة من الباطون، استلقت جثة امرأة في قرابة الأربعين تلبس فستاناً قطنياً وتلف رأسها بمنديل، لقد مزق الرصاص ثدييها... أما في مخيم صبرا فأول ما طالعنا من المشاهد: جثة أبو دياب ديراني «وهو مسن في السبعين، رأسه مدفون في الرمل ويده ممدودة باتجاه حذاء نسائي بين الردم.. وعلى بعد خطوات منه استلقت على ظهرها جثة مسن آخر ملتحٍ وبلباس النوم (البيجاما) وقد مُزق الجزء العلوي من رأسه».

في مدخل المخيم الجنوبي هدمت البلدوزرات حياً بكامله وحفرت بئراً قطرها عشرة أمتار امتلأت بالردم، ربما يكون قبراً جماعياً، ويبدو أنّ الأمر لن يتضح حتى يتم حفر المكان.

في مكان آخر تعلقت جثة مغدور بعارضة شباك أحد المنازل الذي لم ينجز المجرمون هدمه، وبين ردم بناية محاذية تمكنا من رؤية جثث ثلاثة

خيول غبراء، ومن بعيد سمعنا صوت مأمأة ماعز صغير تمكن من البقاء على قيد الحياة في بحر الموت، لقد بدا هذا الصوت وكأنه نغمة تنبعث من عالم آخر.

«توماس فريدمان» مراسل صحيفة «نيويورك تايمز» (٢٨ / ٩ /١٩٨٢ قال «بناءً على مشاهداته داخل مخيمي صبرا وشاتيلا : «بأنّ العديد من ضحايا المجزرة هم أفراد عائلة كاملة: ذبحوا فيما كانوا جالسين حول موائد العشاء، وبعضهم ذُبح ذبحاً من عنقه بالسكاكين، وبعضهم قُتل ضرباً بقضبان الحديد وأكثرهم قُتل رمياً بالرصاص» وقال: «مما لا شك فيه أنّ بعض هؤلاء كان من سكان حيفا أو غيرها في عام ١٩٤٨، ممن تركوا موائد طعامهم فيها ولم يشربوا القهوة، فجاءهم الموت في الوضع نفسه بعد أربعة وثلاثين عاماً».

هذه كانت الانطباعات الأولى لبعض الصحافيين الذين رأوا مشهد المخيمات بعد خروج القتلة، والتي حملتها وكالات الأنباء ونُشرت في الصحف في الأيام التالية وسببت رعشة خوف سرت في أجساد البشر في العالم كله، وأصبح إسما «صبرا» و«شاتيلا» جرحاً عميقاً في ذاكرة الناس، وقرينة للهول والفظاعة، للوحشية البالغة، للألم المرير والرعب الهائل.

الإعداد للجريمة

ما أن دخل اتفاق ترحيل القوات المدافعة عن بيروت حيز التنفيذ، حتى تراءى للغزاة وحلفائهم المتواطئين في الداخل، وحلفائهم وحُماتهم في الخارج: أنّ أوان قطف الثمار قد حل، ففي الثالث والعشرين من شهر آب (اغسطس)، وبعد يومين من بدء رحيل المقاتلين: تمّ فرض الشيخ بشير الجميّل قائد ميليشيات الكتائب رئيساً للجمهورية وذلك تحت حماية دبابات القوات الغازية وفي ظل حرابها.

في الوقت نفسه أخذت الأوساط الاسرائيلية تتحدث عن حلول وقت دفع الحساب، وانّ على الجميّل أن ينفذ ما قطعه على نفسه من تعهدات للقادة الاسرائيليين، في حال وصوله الى سدة الرئاسة، وقد كتب يهودا ليطاني في صحيفة «هآرتس» ٢٤ / ٨ /١٩٨٢مقالاً بعنوان «جميّل حان وقت سداد الدين» جاء فيه: «من الصعب القول انّ بشير الجميّل كان سيُنتخب لو لم تقم اسرائيل بتوسيع عملية «سلام الجليل»، وانّ اسرائيل تملك حق اسداء النصح حينما ترى ذلك ضرورياً وتحدثت الصحيفة في افتتاحيتها

عن: «أنّ هناك في أوساط الكتائب من قال بضرورة اخلاء الفلسطينيين من لبنان بشكل كامل».

في اليوم نفسه الذي انتُخب فيه الجميّل تحدثت صحيفة «الوطن» الكويتية (٢٣ / ٨ /١٩٨٢) عن أوساط سياسية في «نيويورك» قالت استناداً الى معلومات استقتها من مصادر الاستخبارات الاميركية: «انّ هناك احتمالاً لضربة ارهابية كبيرة في لبنان يعد لها وزير الحرب الصهيوني ارييل شارون، وانّ هذه الضربة قد تترافق مع ظروف اغتيال احدى أو عدد من الشخصيات اللبنانية البارزة، والتي ستتسبب في افتعال مجزرة كبيرة».

هذا الكلام الذي كُتب قبل ثلاثة أسابيع من مصرع الجميّل وحدوث المذبحة يشير الى أنّ الأمر لا يتعلق بمجرد نبوءة، واستنتاج، خصوصا وانّ مصدره الاستخبارات الاميركية وانما يتعلق بمخطط مرسوم تسربت بعض الأنباء عنه.

في تلك الأيام التي أعقبت انتخاب بشير الجميّل والتي جرى فيها ترحيل المقاتلين الفلسطينيين والسوريين، تحدثت الصحافة الاسرائيلية عن تصريحات لمسؤولين اسرائيليين، ولمسؤولين كتائبيين. التصريحات الأولى، تعزف على نغمة «خرق منظمة التحرير للاتفاق وابقاء ما يزيد على ألفي مقاتل فلسطيني في المخيمات»، والثانية، تتحدث عن مسألة «الطرد الجماعي للفلسطينيين في لبنان».

الحديث عن موضوع بقاء مقاتلين فلسطينيين في غرب بيروت، بدأه شارون قبل بدء عملية الترحيل، حيث طرحه يوم «١٥ / ٨ /١٩٨٢» على الوسيط الاميركي فيليب حبيب زاعماً أنّ هناك ٢٥٠٠ «مخرب» تزودوا ببطاقات هوية شخصية لبنانية. وكرر هذا الحديث في مقابلة أجرتها معه شبكة التلفزيون الاميركية يوم ٢٩ / ٨ /١٩٨٢حيث زعم: «انّ المنظمة تنوي ابقاء ثلاثة آلاف شخص من رجالها ليكونوا نواة لنشاطاتها في المستقبل».

ومن الواضح أنّ هذه التصريحات التي لم تقتصر على شارون وايتان بل عمت وسائل الاعلام وأقوال القادة الآخرين، كان المقصود منها ومن نشرها ومن التركيز عليها من قبل وزير الحرب بالذات: تهيئة الأذهان لاجتياح غرب بيروت والقيام بما يسمونه «تمشيط وتطهير» المخيمات.

أما التصريحات الموازية التي أطلقها البعض من المسؤولين في أوساط الكتائبيين، فتتحدث عن «اخلاء الفلسطينيين من لبنان بشكل جماعي» حسب تعبير صحيفة (دافار) «٢٣ / ٨ /١٩٨٢». وهو أمر اعتبرته الصحيفة: «أحد المهام الحيوية التي اذا تمكن الجميّل من انجازها، فسيكون بامكانه الصمود في وجه المعسكر المعارض».

«التطهير والاخلاء» هدفان التقى عليهما الحليفان: الغازي والمتواطئ، و«التطهير» و«الاخلاء» كلمتان تحملان مدلولات أُخرى عن أُناس مثل شارون وبشير الجميّل اللذين قال عنهما الصحافي الاسرائيلي يوري أفنيري بأنهما: «متشابهان من حيث القوة واستخدام الطرق الوحشية للوصول الى أهدافهما».

لم يكن الاسرائيليون والكتائبيون يخفون رغبتهم في دفع الفلسطينيين المقيمين في لبنان الى الهرب من هناك، يعقوب مريدور الوزير المكلف بمعالجة «شؤون السكان المدنيين في لبنان» قال عندما سألوه عما سيفعلونه بسكان المخيمات: «ادفعوا بهم شرقاً ولا تسمحوا لهم بالعودة».

ويقول الاسرائيليون انّ بشير الجميّل قال بأنه سيجعل من الضاحية الجنوبية والمخيمات «حديقة للحيوانات».

<u>كيف سيتم اخلاء الفلسطينيين جماعياً؟ وكيف سيتم دفعهم نحو الشرق؟</u>

لابد أنّ عملاً استراتيجياً* كهذا، يحتاج الى «عمل استراتيجي» على نسق ما جرى في التاسع من حزيران (يونيو) ١٩٤٨ في قرية «دير ياسين» وهو أُسلوب جربه الصهاينة وأفلحوا فيه من أجل تهجير السكان الفلسطينيين من الأرض المحتلة عام ١٩٤٨.

في أواخر آب (اغسطس) ١٩٨٢ زار شارون واشنطن من أجل التنسيق مع الادارة الاميركية، وصرّح عقب ذلك بأنه «وجد تفهماً متزايداً في الولايات المتحدة للأهداف المشتركة لاجلاء «المخربين» والمقاتلين المتعاطفين مع «منظمة التحرير».

---

*سبق «لبيغن» ان اعتبر مذبحة «دير ياسين عملا استراتيجياً».

وبدأ الاسرائيليون يتحدثون في ذلك الحين عن مسألة عقد معاهدة «سلام» بين اسرائيل ولبنان، فقد نقلت وكالة رويترز في «٢٥ / ٨ /١٩٨٢» عن مناحيم بيغن قوله: انّ لبنان سيكون ثاني دولة توقع «معاهدة صلح منفرد» مع اسرائيل وانّ ذلك سيتم في القريب العاجل.

غير أن مسألة توقيع «معاهدة مع اسرائيل» في «القريب العاجل» لم تكن تروق لبشير الجميّل الذي لقي معارضة واسعة من قطاعات لبنانية عريضة، وخصوصا في الوسط الاسلامي، وأعلن زعماء لهم وزنهم في الحياة السياسية في لبنان مثل سليمان فرنجية ورشيد كرامي وصائب سلام ونبيه بري ووليد جنبلاط وغيرهم عن معارضتهم لاعتلائه سدة الرئاسة، كونه «قائد ميليشيا محلية» كانت الطرف الأساس في الحرب الأهلية. ولمعارضتهم توقيع «معاهدة» مع اسرائيل كون هذه المعاهدة: ستحمل بالضرورة شروط المحتل، وتجعل من لبنان قاعدة وممراً له.

كان رأي بشير الجميّل: أن يتم التريث في مسألة «توقيع المعاهدة» حتى يتمكن من بسط سلطته على بقية الأراضي اللبنانية، وقد عبر عن ذلك في الاجتماع السري الذي عقده مع مناحيم بيغن في مدينة نهاريا في الأرض المحتلة بتاريخ ١٩٨٢/٩/١. وقد نقل «راديو اسرائيل» في ٩/٣ /١٩٨٢: انّ الجميّل طلب من مناحيم بيغن عدم الضغط عليه، على الأقل في هذه المرحلة، لاقامة علاقات مكشوفة مع اسرائيل، وأضاف الراديو: انّ هذا الاجتماع الذي حضره شارون جرى لبحث العلاقات بين الطرفين.

الا أن رأي بيغن كان غير ذلك، فقد أراد التوقيع فوراً على المعاهدة ويقال انه غضب وثار في وجه الجميّل ويقال ان الجميّل عبر عن استيائه وانه قال لصائب سلام في الاجتماع الذي تمّ بينهما يوم ٩/١١ /١٩٨٢، وقبل اغتياله بثلاثة أيام، انّ بيغن قد أهانه وجرحه.

ويذكر المقربون من الجميّل أيضاً: أنّه قال لمحاوريه في ذلك الاجتماع بعد أن مدّ يديه اليهم في نهاية نقاش استمر حتى الثالثة صباحاً: «اذا كنتم تريدون توقيفي... فما عليكم سوى تكبيل يدي... وتذكرون أنكم تتحدثون الى رئيس جمهورية لبنان لا الى خادم اسرائيل انّ لنا مبرراتنا».

وقد أدى نشر الاذاعة الاسرائيلية لأخبار الاجتماع الى اثارة غضب الجميّل والى اقدامه على اصدار تكذيب فوري للنبأ.

وقد كرر بيغن رأيه بعد اجتماعه بالجميّل من أنّ: «معاهدة السلام يجب أن تعقد في القريب العاجل، وأنه اذا لم يتم عقد المعاهدة الآن فانه لن يتم التوصل الى معاهدة سلام أبداً».

كانت مطالبة بيغن بعقد «معاهدة سلام» بصورة عاجلة تعبر عن خوفه من حدوث متغيرات في المنطقة، تذهب بما رأى أنه قد حققه من «انتصار» وتمنع الجميّل من التوقيع على المعاهدة أو من تنفيذها... وفي الوقت نفسه كان يريد أن يقدم شيئاً للجمهور الاسرائيلي الذي أخذت تتزايد المعارضة في داخله، وترتفع أصواته ضدّ استمرار الحرب في لبنان، وضدّ استمرار دفع الخسائر من القتلى والجرحى الاسرائيليين، لقد كان متعجلاً ليقدم لهم شيئاً ليقول أنّ هذا هو ثمن الحرب.

لكن تلكؤ بشير الجميّل أثار حنق «بيغن» وحنق «شارون» المتطلع لتقديم نفسه «كبطل قومي» بعد أن خرجت المقاومة من بيروت.

في الأيام الأولى من شهر أيلول (سبتمبر) تكثفت لقاءات الاسرائيليين بالكتائبيين، شارون نفسه زار بيروت واجتمع ببشير الجميّل، وكذلك فعل ديفيد كمحي مدير عام الخارجية الاسرائيلية بالاضافة الى الاتصالات اليومية التي كان يقوم بها رجال «الموساد» العاملون في الميدان لمقر قيادة الكتائب.

في تلك الأيام وفي تلك اللقاءات كانت تحبك خطوط «المؤامرة» لتنفيذ اجتياح بيروت الغربية والقيام بالمجزرة في المخيمات... وفي الوقت نفسه يجري البحث عن الذريعة، اغتيال «الشخصية البارزة» والتي سبق أن تحدثت عنها مصادر الاستخبارات الاميركية.

وفي الأيام التي تلت انسحاب الدفعة الأخيرة للمقاتلين المدافعين عن بيروت، كانت القوات المتعددة الجنسيات تعد نفسها للرحيل المبكر، خلافاً لجدول تفصيل الانسحاب من بيروت ـ وحلول الجيش اللبناني والقوات المتعددة الجنسيات فيها ـ الذي سبق الاشارة اليه وكان الجيش اللبناني ينفذ خطته في الانتشار داخل بيروت الغربية وفي كل يوم يتسلم مواقع جديدة من القوى الوطنية من المرابطين وحركة أمل، ويتسلم ما تركته المقاومة الفلسطينية من عتاد وذخيرة، وفي يوم ١٩٨٢/ ٩/١٣ الذي سبق اغتيال بشير الجميّل تسلم هذا الجيش موقعين مهمين من قوات المرابطين هما «برج المر» وفندق «النورماندي»... وقد جعل تسليم المواقع هذا الجزء الغربي من بيروت بلا دفاعات، بل جعلها مدينة مفتوحة، بعد أن أزال

الجيش اللبناني والقوات المتعددة الجنسيات حقول الألغام، والحواجز وتسلم المناطق والمواقع الدفاعية من القوى الوطنية، مما جعل المدينة مهيأة لاقتحام سهل.

في تلك الأيام كان شارون لا يقاوم شهوته في اقتحام بيروت الغربية، اذ كان يطلق العنان لقواته لتتقدم كل يوم في منطقة من المدينة، ففي أيام ٤، ٥، ٦ من أيلول (سبتمبر) ١٩٨٢ تقدمت هذه القوات واحتلت قصر منصور «المجلس النيابي» ودخلت منطقة الليلكي وبئر حسن، واحتلت ثكنة «هنري شهاب» واستولت على مبنى السفارتين: «اليمنية الديموقراطية» و«الهنغارية» وحصلت اصطدامات مع القوى الوطنية في منطقتي «بئر حسن» و«السان سيمون».

وقد هددت اسرائيل يوم ٩/٦ /١٩٨٢ باجتياح خطوط التماس واحتلال بيروت الغربية اذا لم تنسحب قوات الحركة الوطنية وحركة أمل من شاطئ البحر، ومن منطقة الجناح.

وقد عاودت القوات الاسرائيلية دخول منطقة بئر حسن في يوم ٩/١٢ /١٩٨٢ ، ولم يعد هناك غير قلب المدينة «شارع الحمراء، وكورنيش المزرعة، والبسطة وغيرها» ومخيمي صبرا وشاتيلا: لم «تطأهما قدم الجندي الاسرائيلي، ويبدو أنّ هذه كانت مسألة مهمة بالنسبة «لشارون» الذي يريد أن تطأ أقدام جنوده: «كل شبر من تلك الأرض التي أصبحت رمزاً للمقاومة، وللصمود، ولتحدي آلة الحرب الاسرائيلية».

بُعيد رحيل المقاومين بدأ الناس الذين هجروا المخيمين والضاحية الجنوبية في العودة الى بيوتهم، لقد صدّق الكثيرون منهم ما تعهدت به الولايات المتحدة ـ الوسيط الوحيد ـ قبل خروج المقاتلين الفلسطينيين من بيروت: من أنّ اسرائيل لن تدخل بيروت الغربية.

مراسل صحيفة «النجم الأحمر» يصف تلك الأيام فيقول: «لقد زرت صبرا وشاتيلا قبل ثلاثة أيام من وقوع المجازر، كان المخيمان كسائر أحياء بيروت الغربية التي عانت من الاحتلال الاسرائيلي، والتي أمطرتها آلة الحرب الاسرائيلية بوابل لا ينقطع من النيران منذ ٢٦ حزيران (يونيو) ١٩٨٢.

كانت عجوز فلسطينية تثبت لوح توتياء فوق جدران بيتها، كي يكون له سقف، وكان أربعة صبيان لا يتجاوز أكبرهم الثانية عشرة يساعدونها في

ذلك، عدد غير قليل من الناس صدقوا أنّ اسرائيل لن تدخل بيروت الغربية، أليس هذا ما تعهدت به الولايات المتحدة...؟؟».

الكتائبيون الذين استقدموا الغزو، رأوا أنهم حققوا ما يريدون، وأنهم كانوا الجانب الغالب في الصراع مع القوى الأخرى ـ الوطنية ـ على الأرض اللبنانية. لقد حدد الكتائبيون أنفسهم «كغالبين» دون أن يطرف لهم جفن من أنّ الدبابات الاسرائيلية التي دمرت لبنان هي من صنعت لهم ما يسمونه «نصراً» و«غلبة». الكتائبيون كانوا «يشحذون سكاكينهم» للانتقام حتى من قبل «تنصيب» بشير الجميّل رئيساً للجمهورية، اذ انهم ارتكبوا وبعض حلفائهم من أمثال «حرس الأرز» و«قوات حداد» العديد من الجرائم ضدّ المدنيين من شيوخ ونساء وأطفال في مخيمات الجنوب الفلسطينية في عين الحلوة، والمية ومية، والرشيدية وغيرها، خطفوا الكثيرين وقتلوهم وحين أدخلتهم القوات الغازية منطقة الجبل قتلوا أربعة عشر مواطناً من مواطنيهم الدروز في سوق الغرب خلال حفلة عرس، وفي بيروت نفسها وكمقدمة لما ينوون فعله مع حلفائهم الاسرائيليين قاموا في ٣٠ / ٨ / ١٩٨٢ بقتل رجل مسن وابنته وزوجة ابنه في حارة الناعمة ومثلوا بجثثهم وألقوهم في الشارع، بذريعة أنهم فلسطينيون.

ومن الملفت للنظر: أنّ الجيش اللبناني لم يدخل الى المخيمات في بيروت ضمن عملية انتشاره التي كان يجري تطبيقها في بيروت الغربية في الأيام التي سبقت اغتيال بشير الجميّل.

القيادة الاسرائيلية التي وضعت تصفية الوجود الفلسطيني في لبنان كأحد أهدافها الرئيسية، كونها تعتبر هذا الوجود أرضاً خصبة لنمو العمل الثوري الفلسطيني ولعودة «نشاط منظمة التحرير» الى لبنان، القيادة الاسرائيلية كانت تبحث عن «الشخصية البارزة»، التي ستجعل منها ذريعة لاقتحام بيروت وتنفيذ ما دبرته وأعدته لمخيمي «صبرا وشاتيلا».

ويبدو مما تسرب من معلومات أنّ القيادة الاسرائيلية وجدت ضالتها في شخصية بشير الجميّل ذاته ليكون «كبش فداء».

ورأت هذه القيادة أنّ موت الجميّل ربما يُعطي الفرصة، لبديل أكثر مطواعية ككميل شمعون مثلاً: وهو شخص له تاريخه في التعامل مع اسرائيل، ولا يقل حماسة لمخططاتها عن بشير الجميّل.

ويبدو أنّ الولايات المتحدة أيضاً كانت ذات مصلحة في القضاء على شخص بشير الجميّل واستبداله كونه لم يلقَ الحماسة المطلوبة والتأييد اللازم في الأوساط اللبنانية، وظهر لها أنّ أمر فرضه على الشعب اللبناني يبدو صعباً في ضوء المعارضة القوية التي قوبل بها وخاصة في الجانب الاسلامي.

اذن فقد وجدت كل من «اميركا» و«اسرائيل» ـ أنّ بشير الجميّل ليس بالشخص المطلوب، وكان بشير الجميّل ضحية أحلامه ذاتها ـ في تحويل الضاحية الجنوبية الى حديقة عامة للحيوانات ـ ورأى حلفاؤه فيه، الطعم الذي يستطيعون به بدء العمل، ومن غيره يمكن أن يثير في الادارة المختارة ـ بشكل رئيسي للتنفيذ ـ مثل شهوة القتل تلك؟؟.

بدء العمل: اغتيال «بشير الجميّل»

في الثالث عشر من أيلول (سبتمبر) ١٩٨٢ أجرى الرئيس بشير الجميّل آخر مقابلاته الصحافية وكانت مع مجلة «تايم» الاميركية الأسبوعية والتي نُشرت في ٢٠ / ٩ /١٩٨٢، وقد أكد في تلك المقابلة أنّ السلام مع اسرائيل سيأتي في حينه، وقال: انّ هدفه الأول: «هو بسط سيطرة الحكومة اللبنانية على الصعيد الأمني على كامل الأراضي اللبنانية».

وفي اليوم التالي الرابع عشر من أيلول (سبتمبر) ١٩٨٢، استهل الرئيس المنتخب يومه بلقاءات أجراها مع كبار المسؤولين في الحكومة من مدير قوى الأمن الداخلي الى قائد الجيش، ثمّ غادر قصر بعبدا في الواحدة بعد الظهر.

الحلقة الثامنة عشرة: شارون لأمين الجميل: أستطيع أن أحبسك داخل بعبدا بحيث لا تخرج من هذا القصر

في الساعة الرابعة الا عشر دقائق من ذلك اليوم (١٩٨٢/٩/١٤) وصل بشير الجميّل الى بيت الكتائب في الأشرفية، وبعد أن اجتمع ببعض القادة ورؤساء الأقسام، انتقل في الساعة الرابعة وعشر دقائق الى قاعة الاجتماعات في القاعة الأرضية، وبدأ يتحدث في المجتمعين من كوادر حزبه، بعد لحظات دوى انفجار هائل، حول المبنى المكون من ثلاث طبقات الى كومة من الركام بعد أن طيّره من أركانه الأربع، وعلى الفور ضربت القوات الاسرائيلية وميليشيات الكتائب طوقاً حول المنطقة في شعاع بلغ ثلاثة كيلومترات، بعد أن تحركت الدبابات الاسرائيلية باتجاه المكان وتبعتها سيّارات الجيب وطائرات الهيلوكوبتر، وملأ الجنود الاسرائيليون جميع شوارع منطقة الأشرفية.

في الساعات الأولى التي أعقبت الانفجار ساد الغموض مصير «الرئيس المنتخب» وتضاربت الأنباء حول الانفجار: بعض المصادر ذكرت أن سيّارة مفخخة دمرت المبنى والبعض الآخر قال انها عبوة ناسفة مزروعة في داخله، وفي البداية أذاعت محطة «راديو الكتائب» أنّ بشير الجميّل «سليم ومعافى» ويدير عمليات الانقاذ بنفسه مما أثار صيحات الارتياح ضمن أنصاره في حي الأشرفية، التي رافقها اطلاق نيران غزيرة تعبيراً عن «الفرح» ـ لكنّ اذاعة أُخرى قالت: انه مصاب بجروح في ساقه، وانه خرج من بين الأنقاض.

في الساعة السابعة والنصف من مساء ذلك اليوم أعلنت الاذاعة الرسمية للكتائب «صوت لبنان» أنّ مصير الرئيس الجميّل مازال غامضاً.

في الساعة الحادية عشرة ليلاً أُخرجت جثة «الرئيس المنتخب» من بين الأنقاض وتمّ التعرف عليها من قبل قادة حزب الكتائب في مستشفى «أوتيل ديو» عن طريق محبس الرئيس وبرقية كانت موجودة في جيبه، ولم يصدر النعي الرسمي الا في الساعة الرابعة الا ربعاً من صباح اليوم التالي ١٩٨٢/٩/١٥ غير أنّ المحطات التلفزيونية الاميركية كانت سباقة في اعلان نبأ الوفاة.

وفي صباح ١٩٨٢/٩/١٤ الذي جرى فيه الانفجار في «مقر الكتائب ـ الأشرفية» وفي الساعة التاسعة والنصف منه تحديداً، قام قائد الفرقة

العسكرية الاسرائيلية الموجودة في منطقة بيروت بالدعوة لعقد اجتماع لقادة وحداته في الساعة السادسة من بعد ظهر ذلك اليوم، وأعطاهم مهمات محددة تتعلق بدخول بيروت الغربية وتحديد الشوارع التي يجب أن يتواجدوا فيها بعد ذلك سواء في بيروت الغربية أو الشرقية، وأنّ عليهم انتظار الأوامر لتنفيذ هذه المهمات بين لحظة وأخرى في ذلك اليوم.

وفي الساعة الخامسة من بعد ظهر ذلك اليوم تلقى وزير الحرب الاسرائيلي نبأ حدوث الانفجار في مبنى الكتائب في الأشرفية، وكان شارون جاهزاً للعمل فقام مباشرة بعقد اجتماع ضمّ رئيس الأركان ورئيس شعبة المخابرات ورئيس الموساد من أجل تحديد المهمات ودراسة تنفيذ خطة اقتحام بيروت، وقام في الساعة السابعة بالاتصال بمناحيم بيغن لاطلاعه على تفاصيل الأمور، وفي الساعة نفسها كان قائد المنطقة الشمالية امير دروري: قد دعا قادة التشكيلات في القطاع الغربي الى اجتماع عُقد في الساعة الثامنة مساءً، وفي الساعة العاشرة أصدر هذا القائد أمره الى قائد منطقة بيروت العميد عموس يارون بالاستعداد لدخول بيروت الغربية.

وفي الوقت الممتد بين الساعة الحادية عشرة والساعة الثانية عشرة كان رئيس الأركان الاسرائيلي، قد وصل الى بيروت واجتمع من فوره مع يارون الذي استعرض معه الخطة التفصيلية لدخول بيروت الغربية، واتصل مع رئيس الوزراء مناحيم بيغن.

وكان وزير الدفاع شارون قد أصدر أمره في الاجتماع الذي عُقد في مكتبه الذي سبقت الاشارة اليه في الساعة الخامسة باتخاذ الترتيبات لاحتلال بيروت الغربية.

وقد حصل في الساعة الثانية عشرة على موافقة بيغن الذي أبلغ الأمر الى ايتان في بيروت والذي أصدر بدوره أمراً في الساعة الثانية عشرة والنصف بالتحرك لاحتلال بيروت الغربية.

لقد بدأ التنفيذ فوراً حيث تحركت هذه القوات، بعد أن منعت التجول في المدينة، واحتلت نقاطاً في المنطقة الفاصلة، وانتظمت للتقدم في محورين أساسيين: محور الشاطئ، ومحور كورنيش المزرعة باتجاه الفاكهاني والجامعة العربية، وفي الساعة الخامسة من صباح ١٩٨٢/٩/١٥ كانت القوات الاسرائيلية تتقدم على هذين المحورين.

وكان قد عُقد اجتماع في الساعة الثالثة صباحاً بين ايتان ودروري من جهة، وبين قادة الكتائب وعلى رأسهم فادي أفرام، وايلي حبيقة مسؤول المخابرات في قوات الكتائب، في مركز قيادتهم حيث تمّ تدارس خطة العمل ومسألة دخول قوات الكتائب الى المخيمات، ويقول الاسرائيليون انّ قادة الكتائب طلبوا تأجيل دورهم ٢٤ ساعة بدعوى تنظيم قواتهم.

تسلسل الأحداث هذا ـ المأخوذ من شهادات القادة الاسرائيليين أمام لجنة كاهان ـ يدل على أنّ تحرك القوات الاسرائيلية لاحتلال بيروت الغربية، لم يكن رد فعل على اغتيال بشير الجميل، وانما كان عملاً مدبراً، اذ لا يمكن حشد القوات ووضعها في حالة من الجاهزية للعمل في هذه السرعة، ويبين هذا التسلسل أنّ العمل بدأ قبل الانفجار، وأن كل شيء كان جاهزاً، وانّ القرار بالتحرك اتُخِذ قبل معرفة مصير الرئيس بشير الجميل، الذي لم تتأكد وفاته الا بعد الحادية عشرة ليلاً، وأن القوات الاسرائيلية شرعت في عملية الاحتلال قبل اعلان النعي الرسمي. وتدل شهادات القادة الاسرائيليين بالنسبة للاجتماع الذي عُقد في الثالثة من صباح الخامس عشر من أيلول (سبتمبر) مع قادة الكتائب، أن احتلال بيروت الغربية والقيام بالمجزرة كان متفقاً عليه من الطرفين*، الا أن التوقيت كان مفاجئاً للكتائب فطلبوا مهلة أربع وعشرين ساعة لتجهيز قواتهم، وهذا بالطبع يدل على أن الاسرائيليين وحدهم من حدد التوقيت في ذلك اليوم، هذا التوقيت الذي لا يمكن أن يكون قد وقع مصادفة مع انفجار «بيت الكتائب» ومقتل بشير الجميل.

لقد كانت التهم جاهزة في جعبة الاسرائيليين، ففي ١٩٨٢/٩/١٦ قالت صحيفة هآرتس «إنّ الخبراء الأمنيين الاسرائيليين يقولون إن اغتيال بشير الجميل كان جزءاً من مؤامرة سورية، باشتراك عملاء يساريين لبنانيين». أرييل شاون وزير الحرب الصهيوني علق على مقتل الجميّل فقال: انّ العلاقات مع الدول ليست قائمة على شخص واحد حتى وان كان هذا الشخص «زعيماً فذاً» مثلما كان بشير الجميّل!!؟؟.

بالنسبة للكتائبيين فقد همس بعض مسؤوليهم أن: الشركاء في الجريمة كانوا داخل المبنى. وصرح أحدهم لصحافي اسرائيلي: «كثيرون لديهم

---

* **ذكرت صحيفة «هيرالد تربيون» في ١٩٨٢/٩/٢١: ان الاتفاق تم بين الطرفين على القيام بالمجزرة في ١٩٨٢/٩/٣ في بيروت.**

مصلحة في اغتيال الرئيس المنتخب، بدءاً بمنظمة التحرير والسوريين وانتهاءً بأقصى الأطراف المقابلة».

هذه الأقوال تدل على أن الكتائبيين كانوا يشكون في الاسرائيليين!!

وعلى الرغم من ذلك فقد اعتُقل شخص يُدعى حبيب الشرتوني ووجهت اليه تهمة تدبير وتنفيذ عملية الاغتيال، وسُلّم الى السلطات اللبنانية، وأدلى باعترافات مزعومة علنياً.

غير أنّ العقل لا يمكن أن يصدق كيف يستطيع شخص لا علاقة له بحزب الكتائب* أن يُدخل «عشرات الكيلو غرامات من المتفجرات» الى مقر الحزب في الأشرفية، وأن يقوم بمفرده بوضعها بحيث تؤدي الى نسف كامل المبنى، هذا المبنى الذي يشكل قلعة بالنسبة للكتائب والمحروس جيداً، وكيف يتأتى لشخص عادي أن يكون على علم ببرنامج الرئيس اليومي؟ وأنه سيتواجد في ذلك المكان وفي تلك اللحظة بالذات حتى يُخرج أقرباءه المزعومين من المبنى قبل ساعات من الانفجار ويعود لتنفيذ المهمة؟

انّ عملية مثل تفجير بيت الكتائب واغتيال رئيس الجمهورية بالشكل المحكم الذي تمت فيه لا يمكن أن تتم دون أن تكون وراءها جهات قوية تستطيع الوصول الى قلب المبنى، والى كل مكان فيه، وأن تكون على علم ببرنامج الرئيس اليومي وتحركاته.

ومن غير الأذرع الطويلة «لجهاز الموساد» الممتدة في أعماق تنظيم حزب الكتائب - ورد في تقرير لجنة كاهان تأكيد للعلاقة الوثيقة بين الموساد والكتائب - بقادر على الوصول الى قلب حصن الكتائب والى اقتلاع رأس ذلك التنظيم؟؟.

كل الدلائل تشير الى معرفة الكتائبيين بهوية «المجرم الحقيقي». الا أنهم لم يستطيعوا الاشارة اليه نظراً لشبكة العلاقة التي تربطهم بالاسرائيليين والاميركيين والتي لا يمكن لهم أن يخرجوا من دائرة نفوذهم ولا أن

---

* **على الرغم من ان هذا الشخص ينتمي للحزب القومي السوري لتحميل المسؤولية لهذا الحزب ولليسار اللبناني، وقد نفى هذا الحزب معرفته بهذا الشخص.**

يرفعوا العين اليهم أو يوجهوا حتى علامات التساؤل. لذا فقد آثروا اصطناع مسرحية «حبيب الشرتوني».

روبرت فيسك مراسل «التايمز» «في بيروت كان يسأل أحد الكتائبيين عن رأيه في تقرير «لجنة كاهان» بعد نشر هذا التقرير، فأجابه الكتائبي: أشياء كثيرة يمكننا أن نقولها عن الاسرائيليين، لكننا لا نجرؤ على ذلك.

شهادة القادة الاسرائيليين أمام «لجنة كاهان» تدل على أنّ الكتائبيين كانوا يتلقون الأوامر من الاسرائيليين ولا يجرؤون على المناقشة أو الاعتراض.

أما عن الدخول الى بيروت الغربية، فحسب قول «التايمز» نقلاً عن أحد ضباط الجيش الاسرائيلي أنّ هذا الضابط وزملاءه كانوا يعرفون مسبقاً بقرار الحكومة باحتلال بيروت الغربية، وأنّ هذا الأمر كان قد اتفق عليه بعد لقاء تم مع موريس درايبر.

احتلال بيروت الغربية، «دون المخيمات»!!

قلنا انّ القوات الاسرائيلية أخذت في التقدم نحو بيروت الغربية في الساعة الخامسة من صباح الخامس عشر من أيلول (سبتمبر) ١٩٨٢ على محورين رئيسيين: المحور الساحلي والمحور المركزي المحاذي لمخيمات اللاجئين الفلسطينيين، وفيما بعد تقدمت قوات أخرى من المرفأ الى قلب حي الفنادق ومن المتحف الى البريد الى كورنيش المزرعة، وبسرعة أخلى الجيش اللبناني المواقع التي كان قد تسلمها من القوى الوطنية وتراجع عنها ليدخلها الاسرائيليون، وانكفأ بعيداً وراء المباني الآمنة، وبدأ الاسرائيليون في الاستيلاء على الأبنية المرتفعة وعلى مفارق الطرق لاحكام السيطرة على المناطق المجاورة، وبسرعة تمّ الاستيلاء على الكثير من الأماكن الحساسة. وعلى الرغم من المقاومة التي أبدتها القوى الوطنية الموجودة في غرب بيروت الا أنّ المدينة كانت شبه مفتوحة، نظراً للتفوق الساحق للقوات الاسرائيلية عدداً وعدةً بعد أن رحل عن المدينة المدافعون عنها من القوات الفلسطينية والسورية ـ والذين كان يقدر عددهم بنحو ١٥ ألف رجل ـ وبسبب ازالة كل حقول الألغام والمتاريس والتحصينات والعوائق وتسليم المواقع الحساسة للجيش اللبناني.

أربيل شارون وزير الحرب الاسرائيلي حضر الى بيروت في صباح ذلك اليوم وأخذ يدير عمليات القوات الغازية من على سطح احدى البنايات العالية الموجودة على مفرق السفارة الكويتية. في تلك البناية كان يتواجد في الساعة التاسعة صباحاً - برفقة شارون - كل من ايتان ودروري حيث اتخذت القوات الاسرائيلية مقراً لقيادتها يمكن لها منه مراقبة العاصمة اللبنانية ومشاهدة ما يجري فيها، ويمكن لها أيضاً مشاهدة مخيمي صبرا وشاتيلا ومراقبة ما يجري فيهما بشكل دقيق، من هناك تحدث شارون مع مناحيم بيغن وقال له: «قواتنا تتقدم نحو أهدافها وأنا أراها بالعين المجردة».

المراسل العسكري لصحيفة «هآرتس» ١٩٨٢/٩/١٦، أرسل لصحيفته يقول: «لقد اندفعت قوات المشاة والمدرعات الاسرائيلية نحو قلب المدينة، ورأس بيروت، وقد تقدمت ببطء بعد ساعات الصباح الباكر من يوم ١٩٨٢/٦/١٥، وقد تمكنت من الاحاطة، بمخيمات اللاجئين في صبرا وشاتيلا والفاكهاني»، وأضاف: «يهدف الجيش الاسرائيلي من وراء سيطرته على بيروت الغربية الى الحيلولة دون حدوث فراغ في المنطقة. وقد كان هدف التقدم الاحاطة بمخيمات اللاجئين الكبيرة دون الدخول اليها في هذه المرحلة، وكذلك اغلاق المدينة ورأس بيروت».

قبل ظهر ذلك اليوم ١٩٨٢/٩/١٥، جرى لقاء بين القادة الاسرائيليين على رأسهم شارون وبين قادة الكتائب لتدارس الوضع*. بعد ذلك توجه أرييل شارون الى «بكفيا» ليقدم تعازيه (؟؟؟) الى عائلة الجميل - وقد صرح رداً على سؤال: «بأن التاريخ لا يحدده هذا الشخص أو ذاك. وقد روى الحاضرون أنه استُقبل بفتور كبير».

بدأ شارون زيارته بالمجاملات التقليدية وبذل كل ما في وسعه لكي يعطي آل الجميّل وأركان الجبهة اللبنانية الانطباع بأنه واحد منهم وأن بينه وبينهم وحدة حال. فزار ضريح بشير ووضع عليه عشرات الورود ووقف بخشوع أكثر من عشر دقائق أمام القبر، ثم قام بزيارة زوجة بشير السيدة سولانج في منزلها وقدّم لها هدايا باسم الشعب الاسرائيلي. وقدّم هدايا مشابهة لجميع الذين التقى بهم مذكراً اياهم بشكل صريح

---

* **سبقت الاشارة الى اللقاء الذي تمّ في الساعة الثالثة من صباح اليوم نفسه والذي طلب فيه الاسرائيليون من الكتائب التحرك لاحتلال المخيمات واعتذار الكتائبيين وطلبهم مهلة مدتها أربع وعشرون ساعة.**

بالتضحيات والجهود والمعاناة التي قدمتها اسرائيل من أجل ما وصفه تأمين استقلال لبنان وسيادته وطرد السوريين والفلسطينيين من أراضيه. ثم عقد اجتماعاً أولاً مع أعضاء المجلس الحربي لحزب الكتائب وثانياً مع مكتب رئاسة الجبهة اللبنانية. خلال هذين الاجتماعين عرض صورة المحادثات اللبنانية ـ الاسرائيلية وعبر عن سخطه لموقف الرئيس أمين الجميّل. واحتجّ بشدة لأن الشيخ أمين يتعامل مع اسرائيل بصفتها دولة محتلة. وطالب من المجتمعين أن يلجؤوا الى ممارسة الضغوط على الحكم اللبناني لتغيير موقفه في المفاوضات والقبول بتطبيع العلاقات مع اسرائيل كحد أدنى.

الشيخ (بيار الجميل) الذي حضر الاجتماعين بحكم موقعه قال لمراسل «الأسوشيتد برس» في حديث خاص أن شارون اعتمد معه سياسة الترهيب والترغيب.

وأضاف بيار: «أن شارون لجأ حتى الى التهديد أنه في حال رفض الكتائب تبنّي وجهة نظره والضغط على أمين فان ذلك سيؤدي الى تغيير جذري في تحالفات اسرائيل اللبنانية». وأضاف بيار أن : «المجتمعين فهموا أن ذلك يعني أن اسرائيل ستدعم الدروز في الجبل وتساعدهم على تقتيل وتشريد الموارنة. وهذا ما حدث بالفعل كما تعلمون».

ثم طلب شارون اجتماعاً خاصاً مع الرئيس أمين. فكان أن طلب أمين أن يحضر الاجتماع ممثلون عن الكتائب والجبهة. وجرى جدال انتهى بالاتفاق على أن يكون الاجتماع ثنائياً ثم ينضم اليه أعضاء المكتب السياسي للجبهة اللبنانية.

في وقت لاحق قال ادوار حنين لمراسل «الأسوشيتد برس» وهو يرجوه أن هذا الحديث ليس للنشر وكذلك حديث الشيخ بيار في اليوم السابق لأن شارون طلب التكتم الكامل حول المحادثات وهدّدهم أنه في حال تسريب أي شيء للصحافة وبشكل خاص الصحافة اللبنانية فان هذا سيعني كسر الجرّة وتعليق المفاوضات حسب تعبير شارون. فكان أن اتفق المراسل مع ادوار حنين على ارسال الحديث الى مركز الوكالة في نيويورك بصفة الاطلاع. وتعهّد المراسل أن جميع أركان السياسة الاميركية وبخاصة في الكونغرس ومجلس النواب سيطلعون عليه. وهكذا كان.

قال حنين: «عندما انضممنا الى الاجتماع، ومنذ لحظة دخولي خلف الشيخ بيار والرئيس كميل وجدت أن وجه الرئيس أمين لا لون له.

وأدركت فوراً أن الوضع خطير جداً. فبادرت على الفور محاولاً تخفيف جو التوتر المخيف وسألت الأمين ممازحاً: ماذا جرى؟ هل سحب عليك مسدسه؟ أم هل ضربك تحت الزّنار؟». حاول الأمين الاجابة ولكن شارون قاطعه: «كان المفروض أن أفعل هذا». فصاح به الأمين: «لكنك فعلت ما هو أسوأ من ذلك. الشيخ بيير بقي جامداً كالصخر وهو يعبس. أما الرئيس كميل فطلب بهدوء أن يتكرم أحدهما ويروي ماذا يجري. أجاب شارون وهو يرغي ويزبد: «تصوّروا أنّ هذا (...) يتهمني بأنني أريد احتلال لبنان وتطويعه ويعترف بوقاحة أنه أقام اتصالات مكثّفة مع السوريين والفلسطينيين الذين جئنا لكي نخلصكم منهم». فصرخ بيار بحدة: «أنت وغد... مجرد أن تصف رئيس جمهورية لبنان وفي وجهه أنه (...) يدل على أنك وغد وقذر».

وتدخّل حنين مضيفاً: «بالطبع لا يمكن أن نجري أية محادثات بنّاءة في مثل هذا الجو وأن أحداً في لبنان لا يقبل منك لا هذا التصرف ولا هذا الكلام بحق رئيس الجمهورية».

واقترح حنين على شارون أن يعتذر. فرفض شارون وأضاف بغضب موجهاً كلامه الى الأمين: «أنا أستطيع أن أحبسك داخل بعبدا بحيث لا تخرج من هذا القصر حتى للنزهة وأستطيع أن أقطع عنك خطوط الهاتف والماء والكهرباء». قاطعه الأمين بانفعال: «أتحداك أن تفعل هذا». ردّ شارون: «بل اذا اقتضى الأمر أيها (...) أحبسك داخل التواليت في قصر بعبدا».

قال حنين لمراسلنا: «تتصور أنه عقب ذلك لم يكن بالامكان سوى أن نقف جميعاً الى جانب الأمين وأن نتّخذ موقفاً صارماً من شارون».

الرئيس كميل (شمعون) قال لنا بعد أن خرج شارون صافقاً الباب وراءه: «ان هذا الرجل خاسر والخاسر يلجأ الى الوسائل كافة وهو يتمنى علينا فعلاً أن نعمل لانقاذه داخل اسرائيل».

واقترح الرئيس كميل أن يتم فعلاً التكتم حول ما جرى أما بالنسبة للقرار السياسي بدعم شارون أو عدم دعمه فقد اقترح كميل أن يتأجّل البت في ذلك الى حين صدور تقرير لجنة كاهان ودرس ردود الفعل عليه وآثاره داخل اسرائيل. اضافة الى ذلك تبنّى المجتمعون قراراً اقترحه كميل مفاده أن مصلحة لبنان ليست في الجلوس لا تحت الدلف السوري ولا تحت المزراب الاسرائيلي.

كذلك اقترح كميل أن يذهب بنفسه الى القاهرة وذلك للتنسيق مع المصريين بشأن المفاوضات مع اسرائيل والعمل على الاستفادة من الخبرة المصرية في التعامل والتفاوض مع اسرائيل وكذلك الاستفادة من العنصر المصري لتأمين استمرار الزخم الاميركي في دعم لبنان وصولاً الى طرد جميع الغرباء عن أراضيه دون استثناء.

وأخيراً وعلى صعيد النتائج المترتبة عن زيارة شارون لبيروت قال تقرير «الأسوشيتد برس» أنه كانت هناك نتائج عسكرية تجلّت أولاً في معارك الجبل حيث إن قوات الجبهة اللبنانية منيت بخسائر فادحة في الجبل على يد الدروز الذين ساعدتهم القوات الاسرائيلية كما أنّ سعد حدّاد تحرك في الجنوب ليوسع رقعة دويلته فدخل صيدا والنبطية والحبل على الجرّار اذ أنه يخطط الآن لدخول مدينة زحلة.

أما على الصعيد السياسي فقد أدت الزيارة الى تعميق الاتصالات اللبنانية ـ المصرية والتنسيق بين القاهرة وبيروت الى حد كبير.

وقد قال شارون فيما بعد أنه سمع أمين الجميّل «يتحدث عن الانتقام» غير أنّ التايم الاميركية قالت في عددها الصادر في «١٩٨٣/٢/٢١» أنّ شارون قد حثَّ آل الجميّل على الانتقام لمقتل بشير الجميل.

في ذلك اليوم حدث لقاءان آخران مع قادة الكتائب وبحضور ممثلين كبار عن الجيش اللبناني وذلك لتنسيق مسألة «المهمة الموكلة الى الكتائب بدخول المخيمات»، ولم يحضر شارون هذين اللقاءين لأنه كان قد عاد جواً الى اسرائيل.

كانت الأوامر المعطاة للجنود الاسرائيليين تقضي بتجريد جميع الوطنيين اليساريين والمسلحين المسلمين كافة في بيروت الغربية من أسلحتهم، وقام هؤلاء الجنود مباشرة باجراء عمليات تمشيط منهجية في المناطق التي دخلوا اليها، حيث قاموا بتجريد المسلحين من حركتي «أمل» و«المرابطين» من أسلحتهم، كما زعم الاسرائيليون أنهم عثروا على مخازن للأسلحة كانت المقاومة الفلسطينية قد سلمتها الى القوى اليسارية بمساعدة أدلاء من عملاء الاستخبارات الصهيونية المبثوثين في بيروت الغربية منذ سنوات عديدة.

في الساعة التاسعة من صباح ذلك اليوم كان مناحيم بيغن رئيس الوزراء الاسرائيلي، يستقبل في مكتبه في القدس المحتلة موريس درايبر الموفد

الخاص للرئيس ريغان حيث بادره بقوله: «سيدي السفير، أتشرف بأن أبلغكم بأنّ قواتنا تتقدم وتأخذ مراكزها في بيروت الغربية منذ الساعة الخامسة من فجر اليوم، وانّ هدفنا هو الحفاظ على الأمن والنظام، وأنّ الوضع الناتج عن اغتيال بشير الجميّل قد يؤدي الى حدوث اضطرابات دامية!!».

وفي ذلك الاجتماع قال بيغن لموريس درايبر: اننا نعتمد على القيادة العسكرية «للكتائب»، أما موريس درايبر فقد أبدى حرصه على «أن تتم العملية بسرعة بحيث لا تطول مدتها».

وعلى أي حال وعلى الرغم من التبريرات الاسرائيلية لمسألة دخول بيروت والتي زعمت فيها أنها دخلت لمنع «القيام بأعمال انتقامية» بعد مقتل بشير الجميّل، وللسيطرة على «المخربين» الموجودين في «المخيمات» على حد زعمها* ، لم يثبت أنّ هناك فدائيين على الرغم من التمشيط المنهجي لبيروت الغربية، ولم يجد الصحافيون الأجانب والاسرائيليون أي اشارة على وجود أي فدائي بين ضحايا صبرا وشاتيلا، وعلى الرغم من هذه التبريرات الا أنّ معارضة قوية ظهرت في الأوساط الاسرائيلية تندد بهذا العمل، وحتى في داخل الوزارة الصهيونية التي قال معظم أعضائها أنه لم تجر استشارتهم في هذا العمل، ووصف أحدهم العملية بأنها «فضيحة لا سابقة لها». وقالت صحيفة هآرتس (١٩٨٢/٩/١٦) والتي أوردت هذا القول بأنّ: (قرار دخول «جيش الدفاع» الى بيروت جرى ضمن مشاورات مقلصة بين رئيس الوزراء مناحيم بيغن ووزير الدفاع أرييل شارون ووزير الخارجية «اسحاق شامير»). أما صحيفة «دافار» الصادرة بالتاريخ نفسه فقد قالت: («إن قرار الدخول الى بيروت الغربية اتخذ من وراء ظهر الحكومة وبمشاورات مقلصة جرت بين وزير الدفاع ورئيس الحكومة فقط»).

---

* **وصل الامر برفائيل ايتان «رئيس اركان قوات الحرب الصهيونية الى القول: «لو لم نفعل ذلك في تلك الساعات بالذات ولو تأخرنا في تنفيذ مهمتنا بضع ساعات لكانت الكارثة قد وقعت على رأس اسرائيل» (معاريف ١٩٨٢/٩/١٧)**

الحلقة التاسعة عشرة: القادة الإسرائيليون قالوا أمام لجنة «كاهـان» إن ممـثلاً مـن الجـيش اللبنـاني كـان يحـضر باستمرار الاجتماعات التي تتم بينهم وبين قادة «الكتائب»

ذكر القادة الإسرائيليون في إفاداتهم أمـام «لجنـة كاهـان» «أنـه كـان هنـاك ممثـل للجـيش اللبنـاني باسـتمرار فـي الاجتماعـات التـي تـتم بيـنهم وبـين الكتائب».

بعد توغل القوات الإسرائيلية في بيروت الغربية وتطويقها لمخيمي صـبرا وشـاتيلا أخـذت هـذه القـوات بإقامـة الحـواجز حـول المخيمـين - بعـد أن صـوبت مـدافع دباباتهـا نحوهـا - لمراقبـة المـداخل والمخـارج، وذلـك بعـد ظـهر الخامس عشر من أيلول ١٩٨٢.

مخيما صبرا وشاتيلا* الواقعان بين الفاكهاني ومقبرة الشهداء شمالاً، وبئـر حـسن جنوبـاً، وبـين منطقـة الـسفارة الكويتيـة والمدينـة الرياضـية غربـاً، ومنطقة الغبيري شرقاً واللذان لا تفصلهما عن بعضهما حدود واضـحة.. كان يسكنهما ما يقارب الستين ألف نسمة من الفلسطينيين بالدرجة الأولى، ثم اللبنانيين عند اجتياح بيروت الغربية كما تواجد فيهما بعض السكان من جنسيات أُخرى.

وحين جرى تطويق المخيمين كـان كل مـا تبقـى فيهمـا مـن الـسكان شـيوخ ونـساء وأطفـال وقليـل مـن الرجـال بعـد أن رحـل الـشباب المقـاتلون إثـر «اتفاق فيليب حبيب».

ومع حلول الظلام أخذت القوات الإسرائيلية في إطلاق قنابل مدافعها علـى المخيمين الأعزلين، وسقط قتلى وجرحى من المدنيين، والـذين بـدأ أوائلـهم في الوصول إلى مستشفى عكا في جنوب مخيم شاتيلا وإلى مستشفى غـزة شمال مخيم صبرا، مع حلول مساء الأربعاء ذاته.

فـي ذلـك المـساء غرقـت بيـروت فـي ظـلام دامـس بعـد أن قُطعـت عنهـا الكهربـاء بشكل مفاجئ، أما في المخيمين فقد كانت القنابل المـضيئة تمـزق ظلمـة الليـل الرهيـب كـي تعـرف قـذائف المـوت الإسـرائيلية طريقهـا نحـو

---

* **مساحة مخيم شاتيلا (٥٠×٥٠م) أما مخيم صبرا فمساحته ٣٠٠×٣٠٠م.**

البيوت المتهالكة، تلك القذائف التي تمثل نذر الموت الذي أعده القتلة الغزاة للشيوخ والنساء والأطفال المستضعفين الذين استفرد بهم السفاحون بعد أن رحل عنهم حماتهم الذين اطمأنوا للتعهدات الأميركية، واستمر القصف طوال الليل..

في اليوم التالي « الخميس ١٩٨٢/٩/١٦» كانت القوات الصهيونية تقوم باستكمال إحكام سيطرتها على الشوارع والمناطق الداخلية في مدينة بيروت الغربية.. وقد التقت الطوابير الإسرائيلية المدرعة القادمة من اتجاهين مختلفين قبل ظهر ذلك اليوم في «جادة باريس» قرب السفارة الأميركية، وقد أرسل «زئيف شيف» (جنرال احتياط محلل عسكري) المراسل العسكري لصحيفة «هآرتس» لصحيفته يقول: «سيطر الجيش الإسرائيلي على «جميع المحاور والشوارع الرئيسية في بيروت، بما في ذلك حي البسطة.. وينتظر الجيش الإسرائيلي أن يقوم الجيش اللبناني وميليشيات الكتائب بعمليات تفتيش في مخيمات اللاجئين في بيروت الغربية».

سقطت بيروت الغربية بالكامل في يد جيش الاحتلال في اليوم الخامس بعد المئة من الغزو.. لقد أحدث الاقتحام أضراراً بالغة في المدينة وأعاد إليها صور الخراب والدمار التي شهدتها قبل أيام قليلة ماضية إبان الغارات والقصف الوحشي الإسرائيلي.

وفي هذه المرّة كانت طوابير المدرعات تزرع قذائفها وحممها في البنايات والمحلات التي تنتشر على جوانب الطرق التي سلكتها هذه الطوابير.. السكان في داخل المدينة قضوا تلك الأيام بلياليها في الملاجئ وهو أمر كانوا قد اعتادوا عليه أيام الحصار الطويلة.. وشيئاً فشيئاً كانت تتلاشى المقاومة الوطنية أمام آلة الحرب الإسرائيلية الغاشمة.

ظهر ذلك اليوم شرب شارون نخب نجاح «عملية اقتحام بيروت» بينما كان يحتفل في مبنى وزارة الحرب الصهيونية في تل أبيب بعيد رأس السنة العبرية: كانت نشوة الانتصار!! قد أسكرته. وهو يعلن عن ذلك مزهواً وسط ضباطه، لقد انتصر في حرب «الفيل والنملة» كما يسميها الإسرائيليون. ووقف ليقول «بنصره الرخيص»: «لقد تمكنا خلال ٢٧ ساعة من السيطرة على «جميع النقاط الرئيسية في بيروت ومحاصرة أولئك المخربين الذين بقوا هناك خلافاً للاتفاق».

في تلك الساعة أعلن الناطق العسكري الإسرائيلي: «يسيطر جيش الدفاع الآن على جميع النقاط الاستراتيجية في بيروت، ويحاصر مخيمات اللاجئين وتجمعات «الإرهابيين» فيها.. هناك بعض الجيوب من المقاومة التي لم يتم تطهيرها بعد في منطقة الفاكهاني حيث مكاتب منظمة التحرير الفلسطينية، في مخيمي صَبرا وشاتيلا».

كان الناطق العسكري الإسرائيلي، من خلال بيانه هذا يحاول تهيئة الأذهان لما سيحدث في المخيمات باختلاقه مسألة «تجمعات الإرهابيين» في المخيمات التي تمّ إقفالها، وبالحديث عن مكاتب منظمة التحرير وعن «جيوب المقاومة في المخيمات مصوراً الأمر: كما لو أنّ منظمة التحرير والقوات الفلسطينية ما زالت موجودة في بيروت.

إنّ الإسرائيليين لم يتحدثوا مطلقاً بعد عن «تجمعات المخربين» المزعومة تلك ولم يقولوا أبداً أين صارت تلك التجمعات.. لقد تأكد كل الذين دخلوا المخيمات بعد المذابح، أنه لم يكن هناك بين كل الذين قتلوا مسلح واحد «اللهم إلا إذا اعتبر الأطفال والأجنة في بطون الحوامل مسلحون في المستقبل وقُتلوا على هذا الأساس!!» ولم يذكر أنّ الإسرائيليين أو الكتائبيين قد أسروا أحداً في المخيمات يحمل سلاحاً أو حتى إن كانوا قد صادروا أي سلاح.

هذا السؤال لم توجهه لجنة التحقيق في مجازر (صبرا وشاتيلا) والمسماة (لجنة كاهان) لحكام إسرائيل الذين أدلوا بشهاداتهم أمامها أبداً !!.

تكاثرت في ذلك اليوم الدعاوى حول المخربين المزعومين. مناحيم بيغن وقف في مركز الحزب الليبرالي ليقول: «إنّ رؤساء منظمة التحرير قاموا بالخداع والتضليل، عندما وعدوا بأن يخرج جميع المخربين من بيروت الغربية والتزموا بذلك أمام فيليب حبيب، لكنه تبين في اليومين الأخيرين أنه بقي في المدينة عدد كبير منهم مع أسلحتهم».

حتى صحيفة هآرتس ١٩٨٢/٩/١٧ شاركت في الدعوة إلى «تطهير» المخيمات حيث قالت: «يجب أن تشمل السيطرة مخيمات اللاجئين في صبرا وشاتيلا والفاكهاني» وزعمت أنّ أعمال «التطهير» سيقوم بها الجيش اللبناني.. وحاولت التمهيد لمسألة الإعلان عن إدخال الكتائب إلى المخيمات حيث ذكرت: «من الممكن أن تقوم قوات حزب الكتائب بعملية مساعدة في تطهير مخيمات اللاجئين في بيروت الغربية».

وقائـع المذبحـة

في الساعات الممتدة من صباح الخامس عشر من أيلول (سبتمبر) الذي تدارس فيه إيتان ودروري مع قادة الكتائب فادي أفرام وإيلي حبيقة مسألة «عملية المخيمات» وسمع فيه الإسرائيليون: أقوالاً مثل: أنه سيحدث «كسحة» في المخيمات وتعني: «تشريح وفرم». وحتى ما بعد ظهر يوم السادس عشر من أيلول (سبتمبر)، كان القتلة يعدون قواتهم ويجهزون أنفسهم للدخول إلى المخيمات: حيث طليت جدران المباني على الطرق المؤدية من بيروت الشرقية إلى المطار بشعارات «القوات اللبنانية» ورسمت الأسهم التي تشير إلى الطرق، وجرى تجميع هؤلاء القتلة في مكان ما استعداداً للبدء بعملية المخيمات التي أسموها «مهمة خاصة».

وقد نقلت مجلة «دير شبيغل» الألمانية ١٩٨٣/٢/١٤ حديثاً لأحد هؤلاء القتلة* جاء فيه: أنّ التجمع حدث يوم ١٩٨٢/٩/١٥ في وادي شحرور حيث حضرت عناصر من الكتائب ومن الأحرار من بيروت الشرقية ومن عكار ومن جنوب لبنان، كما حضر إلى هذا التجمع «١٢» إسرائيلياً بزيهم العسكري ولكن بدون رتب ويتكلمون العربية بطلاقة.

وإنّ هذا التجمع أُعيد يوم ١٩٨٢/٩/١٦ في المكان نفسه حيث طلب من الكتائبيين ألا يسربوا أي شيء عن المهمة التي سيقومون بها، وقد أبلغهم الإسرائيليون أن يتجنبوا استعمال البنادق، وإنّ كل شيء يجب أن يتم بهدوء.

وقال بإنهم نُقلوا في سيارات عسكرية إسرائيلية إلى مطار بيروت حيث انضم إليهم عدد من الجنود الإسرائيليين الذين كانوا يلبسون زي الكتائب العسكرية، وقد أبلغهم الضابط الكتائبي المسؤول بأنّ «هؤلاء الأصدقاء الإسرائيليين المرافقين لكم هم متطوعون لم يخبروا آمريهم بأنهم سيشاركون... لكنهم سيسهلون عليكم مهمتكم».

في فجر ذلك اليوم السادس عشر من أيلول (سبتمبر)، كان هدير الطائرات الإسرائيلية المحلقة على ارتفاع منخفض فوق المخيمين يثير الرعب في نفوس السكان، وكان القناصة المتمركزون حول المخيم قد

* أغفلت المجلة ذكر اسمه لكنها أشارت إلى انه «معروف لدى مكتب التحرير».

بدأوا رماياتهم على كل من يتحرك في الشوارع الضيقة. ثمّ أخذت تتكاثر القنابل الآتية من التلال والمرتفعات المحيطة، وطوال النهار ظلّ الجرحى يتوافدون إلى مستشفى غزة حيث استمر الأطباء والممرضات في العمل بدون انقطاع.. كما أرسل قسم من الجرحى إلى مستشفى المقاصد.

في الساعة الثامنة من صباح ذلك اليوم كان رفائيل إيتان رئيس أركان الجيش الصهيوني يتصل باربيل شارون «وزير الحرب» «ثم بالجنرال أمير دروري قائد المنطقة الشمالية حيث طلب إليه أن يتحقق بنفسه من أنّ الكتائبيين جاهزون. وبعد ذلك قام إيتان بعقد اجتماع في مقر القيادة الإسرائيلية العامة اشترك فيه: رئيس الاستخبارات العسكرية، ورئيس «الشين بيت» (قسم الأمن الداخلي)، وأحد كبار موظفي «جهاز الموساد» حيث شرح لهم «عمليات المخيمات».

في بيروت وعند ظهر ذلك اليوم استقبل الجنرال «دروري» في مقر قيادته قائد القوات اللبنانية «فادي أفرام» يصحبه «إيلي حبيقة» وسأله فيما إذا كان رجاله جاهزين للدخول إلى مخيمي صبرا وشاتيلا، فأجابه أفرام فوراً.

وفي الساعة الثالثة كان فادي أفرام قائد القوات اللبنانية يناقش مع الجنرال عاموس يارون قائد القوات الإسرائيلية في منطقة بيروت وبحضور إيلي حبيقة المشرف على العملية من جانب الكتائب: الخطة الموضوعة والطرق التي سيسلكها القتلة على خارطة صور جوية للمخيمين.. واتفق مع يارون على مسائل الدعم والإضاءة والتجهيز وغيرها.

بعد ذلك كانت مجموعات القتلة تتجمع في مطار بيروت الدولي. وحسب قول مجلة «شتيرن الألمانية» نقلاً عن ضباط الجيش اللبناني:

«إنّ طائرتي نقل عسكريتين من طراز «هركليز» تُقلان قوات إسرائيلية، قد هبطتا في مطار بيروت ونزل منهما مسلحون وسيارات «جيب عسكرية».

كما ذكر أهالي الشويفات وسكان خلدة أنهم شاهدوا قوافل من السيارات العسكرية التابعة لقوات «لبنان الحر» تصل من الجنوب وتتجه صوب المطار. وقد أكد صحافي إسرائيلي أنه التقى في مطار بيروت ساعة تنفيذ المجزرة بميكانيكي من قوات سعد حداد كان قد تابع دورات تدريبية في إسرائيل ويتكلم العبرية.

وقبل الخامسة مساءً كانت القوات الكتائبية والتي يقودها إيلي حبيقة تتجمع عند المطار، سالكة الطريق التي جرى وضع الأسهم والإشارات عليها في اليوم السابق، وفي الساعة الخامسة، كانت هذه القوات تتحرك باتجاه المخيمات لتدخلها من جهة الجنوب والجنوب الغربي والغرب.

وفي ذلك الوقت كان «دروري» الذي سمع من الكتائبيين عن «كسر العظم في المخيمين» يتصل بالوزير «شارون» ليقول له: «أصحابنا يدخلون المخيمين، لقد تمّ تنسيق العملية مع قادتهم»... ويرد عليه شارون قائلاً «تهانينا».

بعد أن تحرك القتلة من المطار اجتازوا حي الأوزاعي وساروا بمحاذاة ثكنة هنري شهاب.. وعلى الطريق من المطار شاهدهم مراقبو هيئة الأمم المتحدة، وشاهد الناس في منطقة بئر حسن المجموعة الأولى، وكانت مكونة من نحو ٢٥ سيارة «جيب عسكرية، وكانت القوات الإسرائيلية تمهد الطريق أمامها بنيران الدبابات ومدافع المورتر».

الكتائبيون أقاموا لهم مقر قيادة للإشراف على تنفيذ «الكسحة» في مقر «الأمم المتحدة» قرب مفرق السفارة الكويتية، وإلى الجنوب من المبنى الذي «جعله الإسرائيليون مقراً لقيادتهم والذي لا يبعد سوى ٢٠٠ متر عن «مسرح المذبحة» ويتألف من سبعة طوابق يستطيع من يقف على سطحه مشاهدة المخيمين بشكل كامل.

كان على رأس «قوات الكتائب» المشاركة إيلي حبيقة مسؤول الاستخبارات في قوات الكتائب، ويساعده كل من ميشال عيد وميشال زوين و«ديب انطلياس» ومسؤول الشرطة العسكرية الكتائبية وآمر منطقة بيروت الشرقية «مارون مشعلاني»، وقائد المغاوير في قوات الكتائب جوزيف إدة ومعهم ضابط الارتباط بالقوات الإسرائيلية جيس والذي عرف عنه قوله: «ليس هناك حل إلا بقتل سكان المخيمات الفلسطينيين».

إيلي حبيقة قائد القوات الكتائبية التي لعبت الدور الرئيسي في تنفيذ المجزرة: وصفته مجلة تايم ١٩٨٢/٤/١٠ بأنه «يحمل بشكل دائم سكيناً وقنبلة ومسدساً، وقد اشترك في مذبحة تل الزعتر، وهو قاسٍ لا يعرف الرحمة، رغم أنه كان على خلاف مع أمين الجميّل، فقد كان المسؤول عن حراسة «بشير الجميل» والملوم حول مقتله، حيث كان تواقاً لفعل

شـــيء يـضـع المـسؤولية علــى عــاتق غيـره... وكــان الفلـسطينيون هـم الضحية».

أما الإسرائيليون فيقولون عنه: «يرجع عهد إسرائيل بـ (إيلـي حبيقـة) إلـى عـام ١٩٧٦ عنـدما أوفـده بـشير الجميّـل إلـى الجنـوب نـزولاً عنـد رغبـة إسرائيل في دعم «سعد حداد» فـي الـشريط الحـدودي، وكـان لـه يومـذاك ٢٢ سنة من العمر.. وقد أثبت «جدارتـه» فـي ذلـك الحـين، إذ قتـل العديد من المدنيين اللبنانيين والفلسطينيين، إلى درجة أنّ الإسرائيليين أعادوه من حيث أتى لئلا يلوثهم رذاذ فظاعته وجرائمه..

لكنّ صـلتهم لـم تنقطـع بـه وأنـه كـان علـى علاقـة بالاستخبارات الاميركيـة «السي، آي، إيه و«بجهاز الموساد» الإسـرائيلي.. وأنـه اتبـع فـي إسـرائيل دورات تدريبية عدة».

أما حول طبيعة مقاتلي الكتائب فيقول الإسرائيليون: «إنّ القـوات اللبنانيـة شبيهة كل الشبه بميليشيات حداد»: فهؤلاء مثل أولئك يظهـرون «البطولـة والمرجلة» أمام المدنيين العُزّل مـن الـسلاح، ويكتفـون باقتفـاء أثـر الجـيش الإسرائيلي، ليقوموا بأعمال النهب والقتل مثلما فعل رجال سعد حداد حين اقتفوا أثـر الجيش الإسرائيلي عـام ١٩٧٨ حين أبـادوا سكان قريـة الخيـام بوحشية، ونـهبوا كل ممتلكاتهم ونقلوها في الشاحنات.

وقد كتـب إيتـان هبيـر المراسـل العسكري لـصحيفة «يـديعوت أحرنـوت» الواسعة الانتشار في إسرائيل عن رجـال الكتائـب، فقـال: منـذ وقـت طويـل وقيادة الجيش الإسرائيلي تعرف أنّ المقـاتلين الكتـائبيين (إن جـاز تـسميتهم بالمقاتلين) ليسوا سوى عصابة من الشبان وغير الشبان، مـستواهم القتـالي هو أقرب إلـى الجبن والتخـاذل، ولا أخلاقيـات لهم.. ومعظمهم مرتشون، حتى إنّ مقاتلي منظمـة التحريـر كـانوا يرشـون رجـال الحـواجز الكتـائبيين ليغضوا النظر عن مرور التموين والمـواد الأخـرى المحظـورة لهم.. إنـهم رعاع في هيئة تنظيم ببزّاتهم العسكرية وآلياتهم ومخيمات تـدريبهم.. ولقـد ارتكبوا فظائع بشعة».

أما جريدة «بمحنيه» الأسبوعية الناطقة باسم الجيش الـصهيوني فقد كتبـت يوم ١٩٨٢/٩/١ وقبل أسبوعين من مقتل الجميّل وحدوث المجـازر: «لقـد سـمع ضــابط إسـرائيلي كبيـر الحـديث التـالي مـن فـم ضـابط كتـائبي: «لا ندري ما الذي نبدأ به؟ أهو الاغتصاب أم القتل؟... لو أنّ عند الفلسطينيين ذرة من تفكير لرحلوا عن بيروت... وأنتم لا تـستطيعون تـصور المجـزرة

التي ستحل بهم وبمن سيبقى منهم في المدينة... ولم ينفعهم أن يحاولوا الذوبان بين الناس... لأن سيف المقاتلين «المسيحيين» وبنادقهم ستلاحقهم في كل مكان.. وسنبيدهم عن بكرة أبيهم».

هذا هو رأي الإسرائيليين في رجال الكتائب.. الضباط الإسرائيليون يقولون إنهم كانوا يسمعون الكتائبيين يقولون: «سنذبحهم كلهم.. سنجعل الدم يسيل حتى الركب»، وقد علق ضابط إسرائيلي عندما علم بأمر «شارون» بإدخال الكتائب إلى المخيمات: «من يدخل الثعلب إلى القن فلا يعجب أن يأكل الثعلب الدجاجات».

هؤلاء القتلة وعلى رأسهم إيلي حبيقة هم من أُوكلت إليهم المهمة الرئيسية في تنفيذ عمليات الإبادة في المخيمات.

بين الساعة الخامسة والسادسة من مساء الخميس ١٩٨٢/٩/١٦ ابتدأت المجزرة.. الكتائبي الذي تحدث إلى مجلة «دير شبيغل» الألمانية قال:

«قادنا شخص مقنَّع إلى منزل قرب السفارة الكويتية.. حيث اقتحمنا باباً وكسرناه، كان هناك رجل مسن وزوجته وولداه.. أحدهما حاول المقاومة طعناه في قلبه وحمّلنا الآخرين في الشاحنات.. في المنازل المجاورة كان رفاقنا يقتلون الناس: شيوخاً ونساءً وأطفالاً بالسكاكين وبالحراب حتى امتلأت الشوارع وأبواب المنازل بالجثث.. لقد استمررنا في أعمال التقتيل ولم نبقِ حتى على البهائم» وقال: «في الساعة الرابعة صباحاً رجعنا في سيارة نقل إلى منطقة «الحدث»، حيث بقينا بعض الوقت ثمّ عدنا في صبيحة اليوم التالي» وقال: «..يقتلون ويطعنون كل من تبقى من سكان المخيم.. ويطلبون إحضار المزيد من الفلسطينيين ليتم قتلهم».

الحلقة العشرون: محاولة اغتيال انطوان لحد شكلت قناعة منذ العام ١٩٩٨ لدى الاسرائيليين ان الترتيبات الامنية في الحزام الأمني لن تمنع العمل الفدائي في جنوب لبنان

من هي سهى بشارة؟

هي سهى فواز بشارة، من بلدة دير ميماس في الجنوب اللبناني، ومن مواليد عام ١٩٦٧، والدها فواز بشارة عامل مطبعة عمره (٥٨ عاماً)، وهو عضو في الحزب الشيوعي اللبناني. وقد كانت سهى قبل سنة من تنفيذ العملية ضد لحد طالبة تدرس الرياضيات والمعلوماتية في بيروت وفجأة، وبقرار رفضت الإفصاح عن دوافعه قررت سهى ترك دروس الرياضيات، واتجهت إلى الشريط الحدودي المحتل لتعمل مدرسة لرقص الباليه، في مدرسة مرجعيون الكائنة هناك، وقد كان الدافع الحقيقي لقرارها هذا هو الشروع في التحضير للمهمة التي كلفت بها سهى، وهي تنفيذ حكم الإعدام بقائد ما يسمى (جيش جنوب لبنان) العميل أنطوان لحد، وذاك امتثالاً لأمر الحزب الشيوعي اللبناني الذي اقترح العملية، والذي كانت سهى قد انتسبت إليه في العام ١٩٨٢ سراً، حتى أن أباها، وهو عضو في الحزب نفسه، لم يعلم بانتسابها. ومن الجدير بالذكر أن سهى قد انتسبت بعد ذلك، وفي العام ١٩٨٧ إلى جبهة المقاومة الوطنية اللبنانية، وسهى كما جاء في بيان حزبها عن عملية اغتيال لحد، ضمن مجموعة الشهيدة لولا عبود التي استشهدت في عملية انتحارية ضد قوات العميل لحد، عام ١٩٨٥.

علاقتها بالعميل لحد وأسرته

بدأت هذه العلاقة، منذ استلام سهى عملها كمدرسة لرقص الباليه، في مرجعيون أي قبل عام من تنفيذ عملية الاغتيال، وكانت بداية العلاقة حين تعرفت سهى على فكتوريا زوجة العميل لحد، ثم ما لبثت أن استطاعت إقامة علاقة صداقة متينة مع سائر أفراد أسرته، وصار ترددها على بيته أمراً اعتيادياً بوصفها مدرسة لرقص الباليه تعطي دروساً خاصة لأفراد تلك الأسرة. وتذكر بعض الصحف الإسرائيلية أن جميع أفراد الأسرة قد اطمأنوا إليها ووثقوا بها ما عدا العميل لحد، ومما يوردونه للدلالة على شكه بها، أنه لم يعطها ظهره مرة واحدة خلال جميع زياراتها لمنزله، بل كان يسارع إلى مواجهتها، كلما وجدها في منزله.

تنفيذ العملية

قرابة الساعة السابعة من مساء الاثنين ١٩٨٨/١١/١٧ دعت عقيلة الجنرال لحد فيكتوريا، سهى بشارة إلى منزلها لتناول الشاي، وكان في المنزل ولداه (ربيع وروني)، وسيزار صقر رئيس شعبة الإعلام في ميليشيات لحد. واستمرت الزيارة حتى الساعة الثامنة، عندها وصل أنطوان لحد إلى المنزل، وقد تحدثت معه سهى بشارة في مواضيع عديدة حول العمل الاجتماعي في «المنطقة الأمنية» وفي نهاية حديثها همت بجمع حاجاتها، لكنها وبحركة مفاجئة وبمنتهى برودة الأعصاب سحبت مسدساً من حقيبتها عيار ٥,٤٥ مم وباشرت بإطلاق النار على العميل الإسرائيلي فأصابته بثلاث رصاصات قبل أن يتمكن سيزار صقر وزوجة لحد من السيطرة على الفتاة البطلة وتجريدها من المسدس. بعد ذلك مباشرة دخلت عناصر المواكبة المنزل واعتقلت سهى ونقلت لحد إلى مستشفى مرجعيون بسيارة، ومنها بسيارة أخرى إلى المطلة، ومن هناك تم نقله بطائرة مروحية إلى مستشفى رامبام في حيفا.

وأفادت التقارير التي وردت بعد ذلك أن سهى قد أطلقت على لحد ثلاث رصاصات، استقرت إحداها في الجهة اليمنى من صدره، وثانية في أعلى ذراعه اليمنى، أما الثالثة ففي رجله.

ماذا عن حالة لحد الصحية بعد العملية؟... في البداية، وبهدف التقليل من قيمة العملية وحجمها، زعم الإسرائيليون أن جراح عميلهم متوسطة وقابلة للشفاء بسرعة، لكن التدهور الذي أصاب حالته بعد العملية الجراحية التي أجريت له في مستشفى رامبام، والتي استمرت قرابة أربع ساعات، هذا التدهور، وما تلاه من غيبوبة استمرت نحو خمسة أسابيع، دحض زعمهم الأول. ففي التقرير الطبي الذي صدر عن الأطباء الإسرائيليين الذين أشرفوا على العملية الجراحية جاء: «أن حالة الجنرال ميؤوس منها ومتردية للغاية». وفي صباح يوم ١٩٨٨/١١/٩، ذكرت إذاعة إسرائيل أن «حالة لحد قد ازدادت تردياً بسبب فقدانه كميات كبيرة من الدم، وبسبب إشكالات ومضاعفات أعقبت العملية الجراحية التي أجريت له».

وقد ظلت الأنباء تتضارب حول حالته، حتى تم الإعلان عن مغادرته مستشفى رامبام في حيفا، بعد نحو ثمانية أسابيع، قضاها فيه في العناية المشددة، وقضى خمسة منها في غيبوبة تامة. وكان خروجه يوم

١٩٨٩/١/١. ولتأكيد هذا الخبر، ظهر مساء اليوم نفسه على شاشة التلفزيون الإسرائيلي، في نشرة الأخبار المسائية (مباط). وقد كانت بادية بوضوح حالة الشلل الذي أصاب يده اليمنى من جراء الرصاصة التي اخترقت أعلى الذراع اليمنى كما كان بادياً عليه العجز عن النطق. وذكر راديو إسرائيل يوم ١٩٨٩/١/٢ أن لحد سيعود إلى مستشفى رامبام قريباً لمواصلة علاجه.

وفي هذا المجال لا بد من الإشارة إلى أن المسدس الذي استخدمته المناضلة «سهى» هو من صنع الاتحاد السوفياتي وقد دخل إلى الخدمة في أوائل الثمانينيات مع البندقية ٥,٤٥ مم التي استخدمت من قبل وحدات الإنـزال الجوي السوفياتي في أفغانستان ومن ميزات هذا المسدس أن رصاصته تخرق الجسم بشكل لولبي ولكن غير منتظم الأمر الذي يتسبب بشلل حقيقي للعضو المصاب.

ولكن ماذا حصل للبطلة سهى؟ أفادت الأنباء، أنه بعد اعتقالها من قبل قوات العميل لحد، أسلمتها هذه القوات إلى إسرائيل، التي وضعتها في البداية، في معتقل الخيام الموجود في الشريط الحدودي المحتل*، وبعد ذلك نقلت إلى داخل إسرائيل للتحقيق معها، وقد استمرت عملية التحقيق وسط احتجاجات عربية ودولية كثيرة وأعربت عن عدم شرعية احتجاز سهى في إسرائيل، وطالبت بإطلاق سراحها فوراً لكن الإسرائيليين بعد إنهاء تحقيقهم معها، أعادوها إلى قوات لحد، بغية تمكينهم من الانتقام منها.

ردود الفعل الإسرائيلية على العملية

تجلت ردود فعل إسرائيل على اغتيال عميلها لحد بصورتين: عسكرية/ انتقامية وإعلامية عبر تصريحات عدد من المسؤولين الإسرائيليين.

أولاً: رد الفعل العسكري/ الانتقامي:

عقب العملية، داهمت القوات الإسرائيلية منـزل البطلة سهى بشارة في دير ميماس، وعشرات المنازل في البلدة، وفي مرجعيون والخيام، واعتقلت /٢٢/ مواطناً هناك، أفادت بعض المصادر أن والدة سهى كانت

---

*الاحتلال دام من آذار (مارس) ١٩٧٨ وحتى أيار (مايو) ٢٠٠٠.

بينهم. وذكرت أنباء لاحقة أن الإسرائيليين قد فرضوا طوقاً (أمنياً) حول المنـزل، شاركت فيه المدرعات و(٧٥) عنصراً، ثم جاء في نبأ أذاعه الناطق باسم الحزب الشيوعي أن قوات الاحتلال قد نسفت المنـزل.

من جهة أخرى، وعلى الصعيد نفسه، جابت عناصر الميليشيات العميلة معظم قرى الشريط الحدودي المحتل، وفرضت الإقفال على المدارس، فيما أقفلت سلطات الاحتلال الإسرائيلي جميع المعابر المؤدية إلى الشريط الحدودي. ثم قامت قوة إسرائيلية - لحدية مشتركة بعملية تمشيط في مناطق مرجعيون ودير ميماس والخيام. وذكرت بعض المصادر أن قوات لحد قامت بعد دقائق من شيوع خبر اغتيال قائدهم بقصف مرتفعات جبل الضهر بالقذائف الفوسفورية، مما أدى إلى إصابة مواطن هناك واندلاع حرائق كبيرة. كما قصفت تلك القوات بلدات اللويزة وجرجوع وجباع وعربصاليم.

ثانياً: ردود الفعل الإسرائيلية كما عبرت عنها الصحافة وتصريحات بعض المسؤولين:

ذكر أكثر من مصدر إسرائيلي، في معرض التعليق على العملية، أن وصول المقاومة الوطنية اللبنانية إلى رأس ما يسمى (جيش جنوب لبنان)، يعد ضربة قوية في الصميم أصابت الترتيبات (الأمنية)، والاحتياطات العسكرية التي اتخذتها إسرائيل في الجنوب اللبناني المحتل، بغية الحيلولة دون انطلاق العمليات الفدائية التي تزعم إسرائيل أنها تهدد (أمن) مستوطناتها في الشمال. كما أن عملية اغتيال لحد قللت كثيراً من ثقة إسرائيل بقدرة جيشها العميل في الجنوب وبجدوى استمرار الاعتماد عليه، وقد نجحت المقاومة في أن تطال قائده شخصياً.

وقد عبر (اسحق) شامير عن أسفه لوقوع هذه العملية، وأبدى اهتماماً زائداً بها، يكشف ذلك من الطلب الذي توجه به إلى مدير مستشفى رامبام طالباً فيه إيداع ديوانه - أي ديوان شامير - معلومات مفصلة بشكل دوري عن حالة لحد الصحية.

أما يوسي بيليد، قائد المنطقة الشمالية فقد صرح عقب العملية بأن قيادته «تنظر بخطورة إلى محاولة اغتيال لحد».

أما منسق نشاطات الاحتلال في لبنان أوري لوبراني فقد أدلى بتصريح للصحافيين بعد العملية قال فيه: «إن إصابة اللواء لحد لا تغير من قدرة

ويقظة جيش لبنان الجنوبي ومن مدى استعداداته، ولن يبقى هذا الجيش يتيماً». لكنه أكد من جهة أخرى «أنه ينظر بعين الخطورة إلى هذه العملية». وقال: «إن الجيش الإسرائيلي سيتخذ أكبر قدر من اليقظة والتدابير الأمنية الضرورية في الجنوب، ويجب علينا أن نتعلم من هذه الحادثة».

أما دان شومرون، رئيس الأركان الإسرائيلي فقد أعرب عن استيائه من العملية وقال في معرض تعليقه، في كلمة أمام (لجنة الخارجية والأمن) في الكنيست: «إن العناصر المكلفة بحماية لحد حذرته مراراً من محاولة اغتياله. وإن هذه التحذيرات كانت ترتكز على الفتاة ذاتها التي أطلقت النار عليه لكن لحد لم يستجب لهذه التحذيرات». ويبدو أن شومرون قد أراد بذلك التنويه بأن العملية لم تكن مفاجئة، والتنويه بقدرة الاستخبارات الإسرائيلية على الكشف المبكر وعلى التوقع.

وعموما، كان هناك ـ كما يتبين من استقراء، ما أوردته الصحافة الإسرائيلية عن العملية ـ ازدياد ملحوظ في نسبة الشك الإسرائيلي بقدرة القوات الإسرائيلية وعملائها اللحديين على الحد من انطلاق العمليات الفدائية في الجنوب فضلاً عن إيقافها أو منعها، وبالتالي باتت تشكل قناعة جديدة تقول بالتقليل من جدوى الاعتماد على ما يسمى بـ (الترتيبات الأمنية في الحزام الأمني) وبقدرة هذا (الحزام) على التصدي بنجاعة تامة للعمل الفدائي في الجنوب، بعد تمكن أبطال المقاومة من اختراقه باستمرار، وبنجاح.